عبد الوهاب مطاوع

وحدي مع الآخرين

الدار المصرية اللبنانية

وحدي مع الآخرين

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 11024 / 1995
الترقيم الدولى : X - 238 - 270 - 977

الطبعة الخامسة : ربيع ثانى 1425هـ ـ أغسطس 2004 م
الطبعة السادسة : جمادى الأولى 1429هـ ـ يونيو 2008 م
رسوم الغلاف : محمد فايد
رسوم داخلية للفنان : محمد قطب

عبد الوهاب مطاوع

وحدي مع الآخرين

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۞ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۞ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۞ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۞ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۞ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ صدق الله العظيم

مقدمة

مهما تكن ناجحاً ومشهوراً وثرياً ومحبوباً من الآخرين ، فلابد أن تجىء لحظة تشعر فيها أنك إنسان وحيد وبائس لأقصى حد ، ولا تجد من تكلمه وتشركه معك فى خواطرك وهواجسك وهمومك !

هكذا كتبت فى مقدمة مقالى « وحدى مع الآخرين » الذى اخترت عنوانه لهذا الكتاب . وهكذا يشعر كل إنسان فى أعماقه فى بعض الأحيان . . فالوحدة شبح قاس يهدد الإنسان فى كل مراحل عمره ، وقد يشعر الإنسان بوحدته الداخلية حتى وهو وسط زحام البشر ، حين يفتقد التعاطف الحقيقى والمشاركة الصادقة ممن حوله . .

وفى هذا الكتاب مقالات وصور أدبية وإنسانية ترددت فيها بين «نفسى » . . وبين الآخرين ، فعايشت هموم الآخرين وتعاطفت معها وكتبت عنها فى بعض الأحيان ، وخلوت بنفسى فى أوقات أخرى ، وسجلت هواجسها وتأملاتها ورويت عنها . . .

وهكذا تمضى حياة الانسان فى أغلب الأحوال . . يعيش وسط الآخرين ويشاركهم همومهم واهتماماتهم وأحلامهم . . وينفرد بنفسه فى

أحيان أخرى ويستسلم لتأملاته وخواطره وأحلامه الأبدية فى السعادة والأمان .

وما بين هذين القطبين يتردد الإنسان طوال الوقت فى رحلة أبدية مستمرة . . فلا هو يستطيع أن يندمج فى الآخرين كل الوقت . . ولا هو يستطيع أن يحتمل وحدته إلى النهاية ، ولا مفر من أن يقطع هذا الطريق المزدوج ذهابا وإياباً طوال رحلة العمر . .

وفى كتابى صور من هذه الحيرة الأبدية بين « نفسى . . وبين الآخرين»

عبد الوهاب مطاوع

القاهرة فى : ١٢ ديسمبر ١٩٩٥



■■ لقد أكلتُ من خُبز الغرباء . . فوجدته كالعلقم ! . تذكرت هذه العبارة من رواية « المساكين » للروائى الروسى العظيم ديستويفسكى وزائرى يروى لى ما جاء يستشيرنى فيه وهو مثقل الفكر والضمير بما يشغله .

إنه أب موظف جامعى ، يعمل بإحدى الهيئات العامة ويتقاضى مرتباً لا بأس به ، ويحصل على حوافز ومكافآت يدخرها لمواجهة طوارىء الحياة ، وزوجته ربة بيت جامعية استقالت من عملها بعد عشر سنوات من العمل ،وتفرغت لرعاية أطفالها الثلاثة وزوجها وبيتها، ورضيت بحياتها وشغلت ما تبقى من أوقات فراغها بالقراءة والزيارات العائلية ومشاهدة التليفزيون خاصة المسلسلات وخياطة فساتينها بأفضل مما قد

يفعل مصمم أزياء محترف ، والأطفال الثلاثة مهذبون ومهندمون ومتفوقون فى دراستهم ، والأسرة كلها سعيدة ومقبلة على الحياة ولها مسراتها العائلية العديدة التى لا يُحس ببهجتها سواها ، كإفطار يوم الجمعة السعيد الذى يجمع كل أفرادها وتتفنن الزوجة العاشقة لأطفالها ولزوجها فى إعداده و إثرائه بتحف الطعام والحلوى ، وكغدائها المتميز كل يوم خميس الذى يجمع شمل الأسرة ، ويهيئها لقضاء الأمسية السعيدة التى تنتظرها إما فى بيت أهل الأب أو فى بيت أسرة الأم . . أو فى حديقة نادى الهيئة العامة التى يعمل بها عائل الأسرة أو فى دار السينما . و كرحلة الشتاء التى تستغرق أسبوعا كاملا فى عطلة نصف السنة تقضيه الأسرة فى مشتى قريب للعاصمة تابع لجهة العمل ولا يكلف ميزانية الأب الكثير ، وكرحلة الصيف التى تستغرق عشرة أيام سعيدة فى مصيف الهيئة ذى الأسعار التعاونية .

والأم المثقفة الحازمة هى عصب هذه الأسرة وعقلها المفكر ، فالأب يعمل ويكافح بإخلاص ويعود لزوجته بكل ما يتقاضاه من مرتب ومكافآت ، فتدبر بها ميزانية الأسرة وحياتها ، وتخطط أيضاً لمستقبلها فتفتح لكل طفل من أطفالها دفتر توفير بالبريد تضع له فيه كل شهر مبلغاً صغيراً يضاف إلى ما تودعه فيه من هدايا الأهل المالية فى مناسبات النجاح والتفوق وأعياد الميلاد . والزوجان متحابان ومتفاهمان وسعيدان بحياتهما وراضيان عنها ، فما المشكلة إذن التى أثقلت ضمير هذا الرجل الوسيم مريح الطلعة الذى جاء يستشيرنى فيها ؟ . إن له ابن عم أو قريبا فى منزلة ابن العم بمعنى أدق ، يعيش فى مدينة الاسكندرية على

بعد مائتين وعشرين كيلو مترا من القاهرة ، وقريبه هذا رجل أعمال ناجح وثرى ومتزوج من زوجة فاضلة منذ عشرين عاماً ،ولم ينجب . وقد تأكد الاثنان منذ زمن طويل من عدم قدرتهما على الإنجاب ورضيا بحالهما وتراضيا عليه ، لكن زوجته تحن إلى ممارسة أمومتها الموءودة ولهذا فقد فكرت فى رعاية طفلة صغيرة تضمها إلى بيتها وتهتم بشئونها وتلحقها بأرقى المدارس وتتابع تعليمها حتى تقدمها للمجتمع فى النهاية فتاة مهذبة متعلمة قادرة على مواجهة الحياة . وقد فكر الاثنان فى الأمر طويلاً ثم تساءلا فى النهاية . . ولماذا نربى أبناء الغرباء الذين لا نعرفهم ولا نعرف جذورهم العائلية فنضم لأسرتنا طفلة من إحدى دور رعاية الأطفال، كما ينصحنا الجميع ، ولماذا لا نقدم هذا العطاء بل هذا الحظ السعيد لأحد أطفال الأهل والأقارب الذين ينوءون بثقل أعباء الحياة وكثرة الأطفال فنخفف عن أبويه بعض العناء ونوفر للإبن أو الإبنة تعليماً راقياً لا يستطيع أبواه أن يقدماه له ؟ .

وانتهى بهما تفكيرهما إلى أن يعرضا على زائرى هذا أن « يخففا » عنه عبء أحد أطفاله الثلاثة ويضما لأسرتهما صُغرى هؤلاء الأطفال التى لم تبلغ بعد السادسة ويعدا لها غرفة نوم جميلة بفراش على شكل طائر الطاووس . . وبستائر بهيجة الألوان . . ونوافذ تعزف الموسيقى كلما فتحت ، ودب ضخم جميل يربض فى أحد أركانها ، ودولاب ملىء بالفساتين الجميلة والألعاب الساحرة . وبعد ذلك يلحقانها بأرقى مدرسة ويتعهدانها بالرعاية والاهتمام حتى تغدو عروسا شابة جميلة ! .

وفاتح القريب زائرى فى هذا « العرض » فاستاء له الأب كثيرا ولولا تقديره لظروفه الإنسانية لأذاه بالكلام الجارح . وحدثت زوجة القريب أم الطفلة فى الأمر فكبتت انفعالها تقديرا لنفس الظروف وشكرتها معتذرة .

وتعجب الأبوان للفكرة الغريبة واتفقا على أن يرجو الأب قريبه ألا يعود لطرح هذا الأمر عليهما مرة أخرى حرصا على العلاقات الطيبة بينهم. وتقبل القريب الرفض حزينا لكنه لم يف بوعده بعدم الحديث فيه مرة أخرى ، ولم يكف هو وزوجته عن الإشارة إليه بطريقة غير مباشرة كلما جمعتهما الظروف بالأبوين فى شكل أمنيات حسيرة أو عبارات مقصودة من نوع : تخيل لو كنت قد وافقت على عرضى وألحقت ابنتك بمدرسة كذا التى تتقاضى خمسة آلاف جنيه فى السنة فى المرحلة الابتدائية ؟ . أو من نوع : كم كنت أود أن تستمتع طفلتك بثروتى وبالملابس الفاخرة والرحلات الجميلة إلى أن تكبر وألحقها بالجامعة الأمريكية ! . . إلخ . والأبوان يتجاهلان الإشارت المتعمدة ويلتزمان الصمت إزاءها حتى كرها لقاء الزوجين الوحيدين وأصبحا يتفاديان المناسبات التى تجمعهما . وفى غمرة ذلك كله توقف الأب فجأة وسأل نفسه ذات ليلة : تُرى هل أحسنتُ إلى ابنتى برفض هذا العرض الجارح أم أسأت إليها ؟ . وهل ترانى جنيت على طفلتى حين حرمتها من «حظ سعيد» كان يترصدها وتعليم راق لا أستطيع توفيره لها ؟ .

ونقل تساؤله الحائر لزوجته فاستاءت له فى البداية ثم أشفقت على زوجها مما يستشعره من « عجز » مؤلم عن أن يوفر لابنته ما يعده بها قريبه

الثرى ، فطمأنته إلى أنه لم يجن على طفلته ولاعلى أحد ، بل إنه يجنى عليها إذا استجاب لهذا القريب وحرم طفلته من أحضان أبويها وشقيقيها .

وهدأ الأب قليلاً لكنه لم يسترح تماماً من هذا الهاجس فجاء يسألنى نفس السؤال وهو فى غاية الحرج والضيق ، فأجبته بلا تردد بأنه لم يجن شيئا على طفلته ولم يحرمها من شىء ، وإنما قد فعل ما يمليه عليه واجبه حين أبى لها أن تُنتزع من بين أحضان شقيقيها وأمها وأبيها لتعيش بين « غرباء » مهما كانت عاطفتهم تجاهها ، وتقاسى مرارة البعد عن أمها وأسرتها وهى فى أشد الحاجة إلى حبهم ورعايتهم والإحساس بالأمان بينهم .

فالتعليم الراقى رغم أهميته ، وغرفة الأطفال السحرية المزودة بكل الألعاب رغم فائدتها ، والملابس الفاخرة والرحلات ، كل ذلك لا يمكن أن يعوض طفلة صغيرة مرارة الافتراق عن أبويها وأشقائها فى مثل هذه السن الصغيرة ، ولا مرارة الإبعاد عن دنياها التى تحس فيها بالأمان وأسرتها التى تحس بالانتماء إليها كعضو أصيل فيها ، وليس كضيفة حتى ولو كانت ضيفة معززة ومكرمة . . بل إن هذه الطفلة مهما نعمت بحب الأبوين البديلين وتنعمت بما يقدمانه لها من عطاء مادى وفرص ذهبية للتعليم فسوف تعانى ربما طوال عمرها من مرارة الإحساس بتخلى أبويها عنها وتسليمها إلى «غرباء » لأسباب قدّراها وعجز عقلها كطفلة عن فهمها وسيظل عاجزاً عن التماس العذر لهما فيها فعلا إلى نهاية العمر .

وتذكرت وأنا أحدث زائرى تلك العبارة التى جاءت على لسان ذلك

الكهل البائس « مقار ديوفشكين » فى رواية « المساكين » التى أجاب بها الفتاة الجميلة الوحيدة باربرا حين ضاقت بعناء الحياة وعجزها عن مواجهتها بعائد عملها الشحيح من تطريز الدانتيل ، فكتبت له أنها قد قررت أن تعمل كمربية فى بيت أسرة لا تعرفها تخلصا من مشكلاتها ، ورد عليها الكهل الطيب الذى يتفانى فى حبها بلا أدنى غرض سوى الرغبة فى إسعادها ومساعدتها حتى ليقدم لها ما تملكه يده ويتضور هو جوعاً إلى حد المرض ، رد عليها ناصحاً لها بألا تفعل ذلك أبداً وألا تعمل لدى أسرة لا تعرفها ولا تهتم فى الحقيقة بأمرها ولا يهمها منها سوى أمرها هى لديها واحتياجاتها منها لأنهم « غرباء » عنها ، مؤكداً لها « أن خبز الغرباء شديد المرارة على من يأكله مهما كان شهيا » ثم اختتم نصيحته المخلصة لها بخلاصة تجربته معه قائلا : لقد أكلت من خبز الغرباء فوجدته كالعلقم ! .

وتذكرت كذلك ما روته الكاتبة الإنجليزية ذائعة الصيت أجاثا كريستى فى مذكراتها عن أمها التى سقط أبوها الضابط عن حصانه فأصيب إصابات بالغة وتوفى متأثراً بجراحه وترك وراءه أرملة شابة فى السابعة والعشرين من العمر وأربعة أطفال صغار ، وكيف عرضت عليها شقيقتها المتزوجة من ثرى أمريكى وتقيم فى شمال انجلترا أن تضم إليها أحد أطفالها لترفع عنها بعض أعبائها فاختارت الأرملة الحزينة البنت الوحيدة من بين أبنائها لكى تنتقل إلى كفالة خالتها وتعيش مع أسرتها . وكتبت أجاثا كريستى بعد سبعين عاماً أو أكثر من هذه الواقعة فى مذكراتها تقول : إنه بالرغم من أن دوافع الجدة الأرملة لاختيار أمها

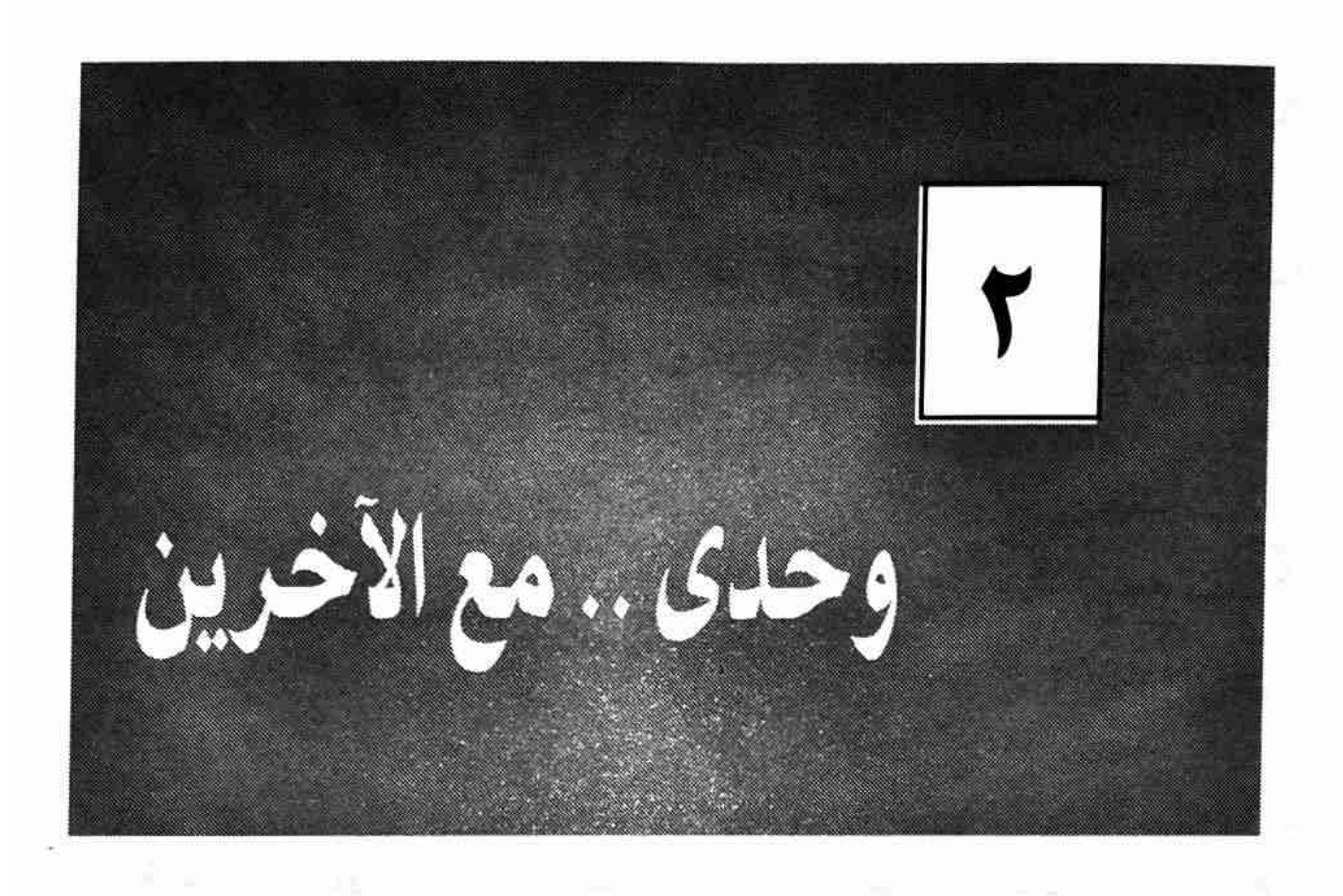
للانتقال إلى حضانة خالتها الثرية دون إخوتها الذكور كانت واضحة ، وهى أن الذكور يستطيعون تدبير حياتهم والاعتماد على أنفسهم بأسرع مما تفعل الفتيات ، إلا أن ابنتها ـ أم أجاثا ـ قد فسرت ذلك كطفلة بأن أمها إنما تهتم فى الواقع بالذكور وتفضلهم عليها ، لهذا فقد احتفظت بهم فى حضانتها وسلمتها هى وحدها إلى الخالة الثرية ، وغادرت الطفلة بيتها فى جرسى إلى بيت خالتها فى شمال انجلترا وفى أعماقها ألم شديد لإحساسها القاتل بأنها « غير مرغوب فيها » من جانب أمها . وعاشت طفولة تعيسة فى بيت خالتها رغم التعليم الأفضل والحياة الأرقى، وراحت تبكى كل ليلة فى فراشها وتذوى صحياً حتى جاءتها خالتها بطبيب عجوز فحصها وتحدث إليها طويلاً ثم قال لخالتها بحزم : إن الصغيرة تعانى من مرض واحد فقط هو مرض « الحنين إلى الوطن » أى إلى الأسرة التى نشأت فيها وإلى أمها وأشقائها وبيتها الخاص وذكرياتها فيه ! . وتعجبت الخالة الثرية لذلك كثيراً فالصغيرة هادئة ومهذبة ولا تشكو من شىء . . وهى تحبها وترعاها وكذلك يفعل زوجها الأمريكى العجوز فما سبب هذا الذبول والانكسار ؟ . وقد واصلت الطفلة حياتها رغم ذلك فى بيت خالتها حتى كبرت وتزوجت من ابن زوج خالتها الأمريكى وأنجبت منه عدة أطفال كان من بينهم من قدّر لها أن تصبح أشهر كاتبة روايات بوليسية على مر التاريخ ، ومع ذلك فقد ظلت الأم كما قالت أجاثا كريستى فى مذكراتها « تحمل فى نفسها » لأمها الاتهام الصامت بأنها قد تخلّت عنها دون إخوتها الذكور حتى ماتت وهى فوق الثمانين ! .

وعلّقت الكاتبة الإنجليزية الشهيرة على ذلك بقولها إنها كثيراً ما قرأت بعد ذلك فى أبواب البريد فى الصحف الإنجليزية وهى فى قمة شهرتها رسائل لآباء وأمهات يسألون محررى هذه الأبواب حائرين : هل يضحون ويقدمون ابنهم أو ابنتهم لأسرة أخرى ثرية تستطيع أن توفر لها تعليماً راقياً وحياة أفضل تعجز مواردهم عن توفيرها لها ، «فكنتُ - تقول أجاثا كريستى - أصرخ فى كل مرة : لا تفعلوا فبيت الطفلة الخاص مهما كان متواضعاً ، وأهلها مهما كانوا بسطاء والحب الذى تكنه لهم وتستشعره لديهم وإحساس الأمان الذى تشعر به بينهم لانتمائها لهم ولبيت خاص بها وليس إلى بيوت الآخرين ، كل ذلك أى تعليم راق يستطيع أن يعوضها عنه ؟ . وأية حياة أفضل تستطيع أن تجبر ذلك الشرخ النفسى الذى تحسه وهى تُنتزع من بين إخوتها وأحضان أبويها لكى تنتقل إلى بيت غريب وأناس غرباء ؟ . وقد كان دافعى دائما إلى هذا الرأى هو تعاسة أمى التى لازمتها فى بيت خالتها رغم حب الخالة وزوجها ورعايتهما المخلصة لها حتى تزوجتْ ! » .

استرجعت ذلك كله فى مخيلتى وزائرى يجلس أمامى ، ورويته له تأييداً لرأيى الذى أكدته له بوضوح ، فإذا بوجهه يتهلل . . وإذا بعلامات الارتياح تكسو ملامحه فينهض مبتهجاً وهو يقول لى : أكرمك الله لقد رفعت عن صدرى حجرا ثقيلا وأرحت ضميرى إلى أننى لم أحرم ابنتى من ذلك « الحظ السعيد » الذى تصورته فى بعض لحظات ضعفى وإشفاقى من أن أكون قد ظلمتها بعاطفتى كأب ، وسوف أعود إلى



زوجتى بما سمعت منك . . وأنسى هذا الأمر كله تماماً . ومد إلىّ يده مصافحاً فنهضت لوداعه حتى باب مكتبى وصافحته مودعا وشاكراً . . ورجعت إلى مقعدى وصدى عبارة دستويفسكى العظيم عن « خبز الغرباء » المر لايزال يتردد فى أعماقى ! .



مهما تكن ناجحاً . . مهما تكن مشهوراً . . مهما تكن ثرياً . . مهما تكن محبوباً من الآخرين أو محاطاً بهم حباً لك . . أو انتفاعاً بك . . فلابد أن تجىء لحظة تشعر فيها بأنك إنسان وحيد تماماً . . وبائس للغاية . . ولا تجد ما تفعله بوحدتك . . أو من تتحدث إليه على سجيتك وبلا حرج ! .

أما متى تجىء هذه اللحظة . . فقد تجىء فى أى وقت من اليوم ، لكن الأغلب الأعم أن تجيئك فى الليل إذا كنت أعزب وحيداً . . أو إذا كنت إنساناً سيىء الحظ عانيت مرارة الفشل فى زواج سابق . أو مغترباً تعيش بعيدا عن أهلك وأصدقائك وبلدك أو « غريبا » بين من تعيش بينهم ولا تربطك بهم خيوط الحب والفهم والعطف المتبادل .

وحين تجيء هذه اللحظة فإنك تحس بحاجتك إلى صديق أو شريك . . أو حبيب تستطيع أن تتصل به وأنت واثق من أنه لن يضيق باتصالك به فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، ومن أنه سوف يسعد بالحديث معك وسيسمع منك ويهتم بك ويشاركك همومك وقلقك ويخفف عنك .

وفى مثل هذه اللحظة كثيراً ما يعيد الإنسان تقويم حياته . . ويراجع ما حققه فيها من أهداف ونجاحات فى مجالات مختلفة . . فينتهى من عملية التقويم هذه غالباً إلى « الرثاء لنفسه » مهما كان ما حققه فى حياته من نجاح أو ثراء . . أو شهرة ! .

فإحساس الإنسان بالتعاسة وبالوحدة سواء أكانت حقيقية أم داخلية يفقده الشعور بقيمة أى « إنجازات » أخرى حققها فى حياته .

وأخطر قرارات الإنسان الشخصية قد يتخذها فى مثل هذه اللحظة التى يشعر فيها بأنه إنسان بائس ووحيد تماماً بلا رفيق ولا شريك للقلب والمشاعر ، كقرار الزواج أو الانفصال . . أو الهجرة أو العودة من الغربة أو حتى تغيير مجال العمل والطموح بأكمله؟ .

يروى الفنان العظيم شارلى شابلن فى مذكراته أنه بعد أن حقق بدايات نجاحه الأسطورى فى هوليود وأصبح مجرد ظهور اسمه على شاشة السينما فى دور العرض يشيع موجة من السرور بين المشاهدين استعداداً للبهجة المرتقبة ، قام برحلة بالقطار من شيكاغو إلى نيويورك وكانت الرحلة تستغرق وقتها خمسة أيام ففوجىء عند توقف القطار فى

أول محطة بزحام كـ « يوم الحشر » وبآلاف من المواطنين يحملون لافتات الترحيب به وعشرات من الأشخاص يدخلون القطار باحثين عنه ، ويرغمون سائق القطار على الانتظار حتى ينزل شابلن إلى الرصيف ويشهد حفلاً لتكريمه .. وعمدة المدينة وكبراؤها يحيطون به .. والموسيقى تعزف .. والأعلام مرفوعة وصور شابلن تغطى كل مكان .. فألقى شابلن وهو مذهول فى الحاضرين كلمة شكر قصيرة ، وتناول معهم نخب الانتصار والنجاح .. ورجع سعيداً إلى القطار وواصل رحلته فتكرر المشهد بحفاوة أشد فى كل محطة توقف فيها ، إلى أن فوجىء وهو لا يزال فى القطار ببرقية من قائد بوليس نيويورك يرجوه فيها أن ينزل من قطاره فى محطة فرعية صغيرة قبل المحطة الرئيسية لأن الجمهور يسد مداخلها ومخارجها منذ الصباح وسيتعذر على الشرطة إخراجه منها ، فيستجيب إلى طلب قائد البوليس ويذهب إلى فندقه فى سيارة مُسدلة الستائر ، فإذا بالجمهور قد أحاط به من كل مكان فيدخل إليه بصعوبة بالغة ويخرج إلى الشرفة لرد تحيتهم كالزعماء التاريخيين عدة مرات ، إلى أن ينجح البوليس فى تفريقهم بعد عناء شديد لكيلا يعوقوا حركة المرور ، وينصرف الجمهور بالفعل ويخلو شابلن إلى نفسه فى جناحه بالفندق فيتساءل كما كتب فى مذاكراته :

ـ ما هذا الذى يحدث لى الآن ؟ . ها أنا فى قمة نجاحى كأنما كافة البشر يعرفوننى بينما لا أعرف أنا أحداً . لقد بدأت أرثى لحالى وقد سيطرت علىّ نوبة غير مفهومة من الأسى .. وتذكرت ممثلاً ناجحاً قال لى منذ أيام وهو فى شدة الضيق :

ـ ها قد « وصلنا » الآن يا شارلى إلى ما كنا نطمح إليه فما قيمة كل هذا؟ .

ووجدت نفسى أفكر فجأة فى الأصدقاء القدامى الذين أتمنى أن ألقاهم وأنا متوّج بكل هذا النجاح العظيم وأتساءل ترى هل بقى لى أصدقاء قدامى . . وأين هم الآن؟ .

وواصل شابلن رحلة نجاحه . . ودخل عالم الملايين وتزوج أولى زوجاته وكانت ممثلة جميلة ففشل زواجه بها بعد أن انشغل كل منهما بأفلامه ونجاحه وأصبحا لا يلتقيان على مائدة العشاء أو الإفطار بالأسابيع ثم ترامت إليه أخبار علاقتها بممثل شاب جديد فطلقها وعاش وحيداً بضعة أعوام وهو لا يزال فى قمة نجاحه وثرائه ورغم ذلك فلقد استولى عليه الإحساس بالكآبة والوحدة فسأل نفسه ذات مساء وهو يجلس وحيداً فى جناحه الفاخر بأكبر فنادق لوس أنجلوس : تُرى من هو « الصديق » الذى أستطيع أن أتصل به الآن بلا حرج لأقول له إننى مكتئب . . وزهقان وبائس وأريد أن أتحدث معك على راحتى وافضفض معك واتخفف من ضيقى ووحدتى ؟ . وفكر فى سؤاله بعض الوقت ثم انتهى إلى هذه الإجابة المعبرة : (لا أحد) ! .

نعم . . لا أحد . . رغم كل ما يحيط به من شهرة وأضواء ومعجبين . . ومتهافتين على التقرب منه والفوز بصداقته فالأصدقاء الحقيقيون القدامى تفرقوا فى الحياة . . والباقون منهم نائمون فى هذه اللحظة إلى جوار زوجاتهم وأبنائهم وليس من اللائق إيقاظهم من نومهم أو انتزاعهم من جوار زوجاتهم لإزعاجهم بمثل هذه الخواطر . . أما الآخرون فليسوا



أصدقاء للروح يستطيع أن يتحدث إليهم بلا حرج ويتعرّى أمامهم ويكشف لهم تعاسته وضعفه وحيرته . . فهم معارف . . أو زملاء . . أو أصدقاء شهرة وعمل لا يرون فيه إلا النجم الشهير . . والإنسان الناجح القوى . . حتى لو أراد أن يتحدث إلى أحدهم بما يشعر به من تعاسة وخوف وقلق ، فلن يستطيع أن يفعل . . فاللسان لا يطيع صاحبه ولا يبوح بحقيقة المشاعر إلا للأصدقاء الحقيقيين الذين لا يخجل من أن يتحدث إليهم بهواجسه .

وبسبب هذه اللحظة التى سأل فيها شابلن نفسه هذا السؤال اتخذ قراراً شخصياً خاطئاً أثر تاثيراً مؤلماً على حياته . . فلقد قرر الاستجابة لإحدى زميلاته الفنانات والزواج بها ضيقاً بوحدته . . فكان زواجاً تعيساً آخر استغرق عدة سنوات، وانتهى بالفشل والمشكلات، وعاد بعده إلى حياة الوحدة سنوات أخرى ، ولم يعرف السعادة الحقيقية إلا وهو يقترب من الخمسين حين التقى بفتاة صغيرة جاءت للعمل كممثلة مبتدئة فى أفلامه اسمها أونا أونيل . . وهى ابنة الكاتب المسرحى الأمريكى الشهير «يوجين أونيل » فأحبها وأحبته حباً طاغياً مسيطراً وتنازلت من أجله عن أحلامها فى الفن والشهرة وتزوجته رغم معارضةأبيها وأسرتها ومقاطعتها لها . وإلى جوار أونا الصغيرة بنت الواحدة والعشرين عاش شابلن أسعد أيام حياته منذ التقى بها . . وحتى رحل عن الحياة بعد حوالى سبعة وعشرين عاماً ، وأنجبت له تسعة أبناء . ومات شابلن وهو يعيش معها فى سويسرا بعد هجرته من أمريكا . . وكتب عنها فى مذكراته التى أصدرها عام ١٩٦٤ أنه وبعد

حوالى عشرين عاماً من الزواج حين يذهب معها إلى حفل عام أو زيارة ينظر إليها وهى تتقدمه مرفوعة الرأس بكبرياء لطيفة ويفيض قلبه لها بالحب والعرفان لما أسبغته على حياته من سعادة . . وحب وثراء .

وقد ماتت أونا بعد رحيل شابلن بأكثر من عشر سنوات غير نادمة على زواجها منه الذى أثار عليها عاصفة عائلية لم تخمد إلا بعد أن أنجبت ثانى أطفالها !

والمغزى الخطير حقاً هو أن شابلن قد عاش وحيداً وتعيساً فى نجاحه وشهرته . . وثرائه . . وزيجتيه الأوليين . . حتى التقى بأونا أونيل . . أو أونا شابلن وأحبته حباً حقيقياً نهائياً وأحبها حباً طاغياً مسيطراً فسعد بها وسعدت به ولم يشعر بعد ارتباطه بها بالوحدة أو التعاسة لحظة واحدة فى حياته مع أن عصره كفنان كوميدى عبقرى كان قد انتهى وتغيرت الدنيا ، فلم تعد الجماهير تبيت أمام دار العرض ليلة افتتاح أحد أفلامه الجديدة ، ولم يعد البوليس يفرق الجماهير بالهراوات الثقيلة من حوله ، وقد اعتزل الفن والسينما والحياة العامة لكن لا شىء من ذلك يهم فى نظر الإنسان العاقل الذى يبحث عن السعادة الحقيقية ، فهذه هى سُنَّة الحياة ولا مغيِّر لها . . ولكل نجاح دورة صعود إلى القمة . . وفترة بقاء محدودة فوقها ثم دورة هبوط لابد منها إلى الناحية الأخرى ، ولكل زمان رجاله ونجومه ، فماذا يعنيه من كل ذلك وقد ارتوى من النجاح العملى فى الحياة . . ولم تحرمه الأقدار من النجاح الحقيقى فى الحياة الخاصة مع امرأة جميلة أحبته وباعت الدنيا من أجله . . وأحبها هو بكل مشاعره ، وانطوى لها دائما على مشاعر العرفان والاعتزاز

والحب، وإلى جانبه أبناء وأحفاد يملأون حياته بكل ما يدعو للبهجة والرضا والسعادة .

نعم . . لم يعد شهيراً ولا « مطلوباً » بنفس القدر فى سوق السينما العالمية كما كان الحال فى سنوات المجد الأولى . . لكنه لم يعد أيضاً وحيداً ولا تعيساً كما كان وهو فى أوج مجده وشهرته وتألقه ! .

تسألنى . . ولماذا أقول لك كل ذلك ؟ وأجيبك : إنها تأملات أثارها لدىَّ التقائى مصادفة منذ أيام بإنسان ناجح إلى حد التألق فى أحد مجالات الحياة وقد حقق فيه ما لم يكن يحلم ببعضه فى بداية حياته وكفاحه الذى شهدت بعض مراحله ، فلم أفاجأ برؤيته وهو على شفا الوقوع فى هاوية الاكتئاب النفسى المرضى . . لا ينام بغير المنومات ولا يسعد بشىء ولا يبتهج لشىء ولا يتحمس لشىء ويعانى من « الأنيميا » لأنه فاقد الشهية إلى حد لا يكاد يطيق معه رؤية طعام . . وكانت شكواه المريرة لى من أنه يخاف من الليل حين يرخى أستاره على الدنيا لأنه فى الصباح ينشغل بعمله . . أما فى الليل فلا يعرف ماذا يصنع بنفسه ووقته ولم تعد تفلح معه حيلة لتسليته وإشعاره بالابتهاج ، فمدبِّرة بيته العجوز تنصرف فى العصر . . وتابعه وهو صديقه الوحيد تقريباً يغادره عند المساء إلى بيته وزوجته وأولاده ويبقى هو فى الشقة الواسعة الخالية وحده يقلب قنوات التليفزيون ويسأم مشاهدته . . ويقرأ بعض الوقت فيسأم القراءة، وينظر إلى التليفون الصامت ويسأل نفسه سؤال شارلى شابلن المحير حين كان يعيش وحيداً : تُرى من هو الصديق الذى أستطيع أن أتصل به الآن بلا حرج ، وأقول له : إننى وحيد ومتضايق وأريد أن

أتسلّى بالحديث معك بعض الوقت فلا يجد إجابة مريحة للسؤال ! . فيكاد كما قال لى « يستجدى » أن يزوره أحد الأصدقاء . . أو أن يجد صديقا حقيقيا جافاه النوم مثله فيتصل به ويتحدث إليه ويخرج معه رغم كثرة معارفه وأصدقائه وزملائه والطامعين فى صداقته ، ولا تَسلنى لماذا لم تنصحه بالزواج كحل طبيعى ومثالى لوحدته ! . فلقد نصحته به أكثر من مرة فكان يجيبنى دائماً بنفس الإجابة المتحسرة :

ـ زيجتان فاشلتان . . فى الرأس تكفيان ! . ويكفينى ما أعانيه حتى الآن من آلامهما وذيول متاعبهما . ومع ذلك فلا حل لوحدته وتعاسته سواه . . ولا حل لوحدة أى إنسان وتعاسته سوى أن يعاشر من يحب ويعمل بما يحب من مجالات العمل . . ويصادق من يخلصون له الود . . ويشاركونه نظرته للحياة . . والبشر والأشياء فهناك حكمة بوذية قديمة تقول: إن مفاتيح الجنة هى نفسها التى تفتح أيضاً أبواب الجحيم! .

وهذا صحيح من بعض الوجوه . . فالنجاح فى الحياة العلمية . . والثراء . . والشهرة كلها مفاتيح قد تفتح لك أبواب النعيم . . لكنها قد تفتح عليك أيضاً أبواب التعاسة . . والوحدة . . إذا خَلَت حياتك من أسباب السعادة الحقيقية . . وإذا كنت محروماً من الاستقرار العائلى . . والحب الحقيقى . . والصداقة الجميلة المُبرأة من الأغراض .

وأيضاً إذا كنت محروماً قبل كل ذلك وبعده من الإيمان الذى يهّون عليك متاعبك . . ويصبّرك على بلواك . . ويعدك بالسعادة الباقية فى الدار الآخرة إذا كنت قد ضللت الطريق إليها فى هذه الحياة القاسية .



فى تلك الليلة لم يكن فى مقهى وسط المدينة الذى اعتدنا أن نلتقى فيه كل مساء سواى وسواه . أين الأصحاب ؟ أين رفاق الشلة ؟ .

قد يجيئون فى أى لحظة من الليل . . وقد لا يجيئون . وأنا مرهق على غير العادة من عمل اليوم الطويل وأرغب فى الانصراف لكى أنام . لكنى لا أستطيع أن أتركه وحيداً حتى يأتى بعض الرفاق ليجالسوه بدلاً منى . . وهو يحس بتعبى ورغبتى فى الانصراف لكنه يستمهلنى كلما بدت علىّ الرغبة فى النهوض . .

والساعة تجاوزت الثانية صباحاً ولم يظهر أحد بعد . اللعنة أين اختفوا هذه الليلة بالذات إن رأسى يميل من شدة التعب . . وسيارتى

عند الميكانيكى معطلة . . وسأقاسى مشقة البحث عن سيارة أجرة فى هذا الوقت المتأخر من الليل . . ورفيقى فى هذه السهرة لا يستطيع أن يعود إلى بيته أو بالأصح إلى بيت ابنته أو بالأصح إلى بيت ابنته المتزوجة التى يقيم عندها إلا بعد الفجر . . هكذا اعتاد أن يفعل كل يوم منذ سنوات شبابه ولا مبدّل لعاداته . . فهو فى الثمانين من عمره عرك الحياة وعركته وعمل ستين عاماً بالصحافة ،ولديه مخزون لا ينضب من الحكايات والذكريات وقد كبر الأبناء وتزوجوا وأنجبوا ، وماتت زوجته منذ سنوات طويلة .

وقد استنفدت كل قدرتى على مقاومة التعب . . فهممت بالنهوض فجأة بغير استئذان . . لكنه كان أذكى منى وأسرع ، لمح بوادر حركتى وسبقنى هو إلى النهوض بخفة طالباً منى انتظاره حتى يعود من الحمام . وكانت حركته أكثر خفة مما تحتمله شيخوخته ، ففقد توازنه وسقط على الأرض وصرخ من شدة الألم . ونهضت فزعاً لإنهاضه فازداد صراخه وتأوهاته . . وأجلسته على مقعده بصعوبة شديدة . . فتعالت صيحات الألم منه . . « يا دى المصيبة » . . لقد أصيب الشيخ بكسر فى عظمة الحوض من سقوطه على الأرض ، وتعذرت عليه الحركة . . وتعذرت عليه الراحة . .

سألت صديقى عن رقم تليفون ابنه الوحيد ليأتى لينقله لبيته بسيارته فأجابنى بأن ابنه مسافر بالصدفة خارج القاهرة . . سألته عن تليفون زوج ابنته الكبرى فأجابنى بأن تليفونه عطلان . . لم يبق إلا زوج ابنته الصغرى وسألته عن تليفونه وارتحت إلى أنه طبيب ، إذن فهو أنسب

شخص للتعامل مع هذه الكارثة . . ونهضت إلى مكان التليفون فى آخر المقهى لأتصل به وأنا متحرج مما سوف أسببه له من إزعاج وانزعاج على صهره . . وقررت أن أبادره بالقول بأن الحالة ليست خطيرة وأن المطلوب فقط هو أن يحضر بسيارته لاصطحاب صهره للبيت أو المستشفى أيهما يراه مناسباً .

أما « الشكر » على اتصالى به واهتمامى بأمر صهره . . فلا مبرر له . . فالشيخ صديق قديم وهذا أقل ما أستطيع أن أقدمه له . . وأدرت رقم تليفونه ورن الجرس طويلاً قبل أن أسمع صوته ، يتساءل من المتحدث فقدمت له نفسي ورويت له القصة باختصار واستعددت لأن أقول له إنه لا داعى للقلق . . و . . . و . . فإذا بصوته يجيء جافاً بارداً خاليا من أى إحساس أو انزعاج :

ـ ولماذا لم تتصل بابنه ؟ .

بُهت لا للسؤال فقط وإنما أيضا للطريقة الجافة التى تكلم بها . . وأحسست كأننى متهم يجرى التحقيق معه وساءنى أنه لم يفكر لحظة فى أن يطمئن على حال صهره أو يسألنى عنه . . وقلت له : ابنه مسافر للأسف خارج القاهرة هذه الليلة فجاءنى نفس الصوت الجاف البارد «يحقق » معى :

ـ ولماذا لم تتصل بزوج ابنته الكبرى ؟ .

يا إلهى كأننى المسئول عما حدث لهذا الشيخ العجوز . .

أجبته بأن تليفونه معطل .

فساد الصمت بيننا دقيقة مرت عليّ كدهر ثم قال لى بنفس اللهجة الباردة الجافة : ما هو رقم تليفون المقهى ؟ وأعطيته له فقال لى إنه سوف يتصل بى بعد ربع ساعة ! ووضعت السماعة واستولى عليّ الضيق وكرهت الدنيا وكل ما فيها فى هذه اللحظة .

وبقيت بجوار التليفون أنتظر المكالمة فمر وقت طويل قبل أن يرن الجرس ورفعت السماعة وقد قررت إن عاد « للتحقيق » معى بنفس هذه اللهجة الجافة أن أعطيه درساً فى الأخلاق والإنسانية والشهامة وفى أفضال هذا الشيخ العجوز عليه وهو الذى يضيق الآن بطلب استدعائه لاصطحابه ، وليكن بعد ذلك ما يكون . . وتحفزت لذلك فإذا بصوته يجىء هذه المرة ناعماً . . رقيقاً . . دافئاً :

ـ مساء الخير . . كيف حال « الوالد » الآن ! هل هو بخير ؟ هل لا يزال يتألم ؟ آلام الكسر فى مثل هذه السن شديدة كان الله فى عونه . . سأحضر بعد قليل لاصطحابه . . ووضعت سماعة التليفون ذاهلاً لكنى فهمت ما جرى ! لقد كانت زوجته نائمة حين اتصلت به فى أول مرة . . فتعامل معى بشخصيته الحقيقية . . نذلاً جافاً . . بارداً ، وأمضى الفترة الماضية فى الاتصال بابن صديقى فتأكد من سفره وبزوج الإبنة الكبرى فتأكد من عطل تليفونه ، ولم يعد أمامه مفر من أداء هذا الواجب الثقيل . . فأيقظ زوجته أو لعلها استيقظت على مكالماته وعرفت الخبر ، وحين اتصل بى للمرة الثانية كانت زوجته إلى جواره فتعامل معى بشخصيته الأخرى المزيفة .

وعدت لمجلس صديقى وطمأنته بقرب وصول زوج ابنته ، ولم يمض وقت قليل حتى دخل علينا المقهى باسماً . . رقيقاً . . عطوفاً فلم أستطع النظر إلى وجهه ، وراقبته وهو ينحنى على صهره فى عطف كاذب وأنا أقاوم رغبة قاتلة فى أن أركله فى ظهره ، ثم تعاونا على حمل الشيخ إلى سيارته حيث تنتظر ابنته منزعجة ، وتمت المهمة بسلام فمدَّ زوج الإبنة الشاب يده إلى ليصافحنى . . فتشاغلت عنها متعمداً بتوديع صديقى ، ثم أعطيته ظهرى وعدت إلى المقهى .

وأجرى صديقى بعد أيام جراحة عظام . . وساءت صحته بعد ذلك شهوراً ثم لقى ربه وانطوت صفحة حياته الحافلة رحمه الله . . ومضت عشر سنوات طويلة . . نسيت فيها هذه القصة فيما نسيت . ثم أبلغتنى سكرتيرتى منذ أسابيع بأن قارئة تطلب مقابلتى لعرض مشكلة شخصية لها وتلح فى تحديد موعد عاجل لها بدعوى أنها ابنة صديق قديم لى . واستقبلتها على الفور فإذا بها ابنة صديقى الشيخ هذا وزوجة ذلك الطبيب الذى كان شاباً منذ عشر سنوات وأصبح الآن أستاذاً بكلية الطب . . ورحبت بها كثيراً واستمعت لقصتها باهتمام . لقد أحبت زوجها وأحبها عدة سنوات قبل زواجهما . . وتزوجته فى وجه صعوبات كثيرة . . أبسطها مقاطعة أهلها لها عدة سنوات قبل أن يصفحوا عنها ، والآن بعد أن مات أبوها وماتت قبله أمها ، ولم يعد لها فى الحياة سوى زوجها . . فإنه يعذبها بمغامراته وخياناته العديدة ، والتى لا تستطيع إثباتها عليه . . لأنه يبدو أمامها دائماً ملاكاً . . مخلصاً . . باسماً . .

متعجباً من شكِّها فيه ، رغم ما تراه بعينيها من تصرفاته المريبة وما تسمعه بأذنيها من اتصالاته ومن أحاديث الصديقات .

وهتفتُ بينى وبين نفسى بصوت داخلى عال : النذل ! لا يزال يواجه الحياة بشخصيتين متناقضتين تماماً الأولى حقيقية يستجيب معها لكل غرائزه بلا مبادىء ولا مثاليات والثانية مزيفة . . يرتدى فيها نفس القناع الملائكى الباسم .

ماذا عساى أن أقول لها ؟ . لقد روت لى قصته الأخيرة معها التى حطمت أعصابها . والقرائن التى جمعتها عنها تجعل للشك فيه أسباباً منطقية وهى تطلب رأيى لتتأكد من صدق ظنها لا لكى تواجهه أو تطلب الطلاق منه ، وإنما فقط لكى تستريح وتطمئن على سلامة قواها العقلية ، وتعرف أنها لا تعايش الوهم والخيالات كما يحاول جاهداً إقناعها بذلك .

واحترت بماذا أجيبها . لو لم أكن قد عرفت زوجها وتعاملت معه فى تجربة سابقة كشفت لى حقيقة شخصيته لأجبتها على الفور ، بأن قرائنك لا ترقى إلى مستوى الأدلة الدامغة . . وبالتالى فإن احتمال براءته مما تنسبينه إليه مساو تماماً لاحتمال إدانته ، وما دام الشكّ يفسر لصالح المتهم . . فإن حكمى على القصة التى رويتيها لى أنه برىء منها إلى أن يثبت العكس .

لكننى من ناحية أخرى على يقين من أنه قد ارتكب فعلاً كل ما تتهمه به بغير دليل كاف . ويقينى هذا لم أتوصل إليه من القرائن التى عرضتها

علىّ ، وإنما من معرفتى بشخصيته الحقيقية . . « والقاضى لا يحكم بعلمه » فيما يعرض عليه من قضايا وإنما بما يعرض عليه من أدلة وبراهين ثابتة ، بل إنه يتنحى عن نظر القضية التى ينظرها إذا وصلت إليه معلومات عنها عن غير طريق ساحة القضاء وأوراق القضية . . إذن فلا سبيل لأن أحكم عليه «بعلمى» عنه ، ولابد من الاكتفاء بتقييم القرائن بغير التأثر برأيى الشخصى فيه .

واضطررت آسفاً إلى ذلك . . وناقشت معها شكوكها وقرائنها على هذا الأساس ثم سألتها فى النهاية :

ـ لو تأكدت من ظنونك هل تطلبين الطلاق منه . . وتهدمين أسرتك وتمزقين أبناءك بينكما ؟ .

فأجابت بحسرة : لا أستطيع أن أفعل ذلك . . فليس لى مكان آخر ألجأ إليه بعد موت أبى وأمى . . وأبنائى أعزُّ علىّ من أن أعرضهم لهذه المحنة وهم عزائى وأملى الوحيد فى الحياة . . بل إننى لا أستطيع أيضاً الانفصال أو الاستغناء عنه فهو حب حياتى منذ كنت فى الثامنة عشرة من عمرى ولا أتصور أن أكون لغيره أو أن أعيش بعيداً عنه .

قلت لها : ماذا تستفيدين إذن من إثبات صحة الواقعة الأخيرة ؟ .

قالت : أن أواجهه مرة بخطأ ارتكبه . . فيعترف به ويعتذر عنه ، ويعترف لى بأنى لست مجنونة أتوهم أشياء لا وجود لها فى الحقيقة كما يحاول دائما إقناعى .

ـ وماذا بعد ؟

قالت بانكسار : لا شيء . . لكنه قد يتغير . . وقد يكف عن تعذيبى بالشك فيه . . وعن اتهامى بالجنون إذا شككت فى تصرفات جديدة مريبة له .

فلم أتردد هذه المرة فى أن أقول لها : لن يتغير . . ولن يعترف بخطأ له . . ولن يكفَّ عن اتهامك بالجنون إذا واجهتيه بقرائن جديدة . . لهذا فنصيحتى لك هى أن تقبلى به كما هو مادمت لا تفكرين فى تغيير حياتك معه ولا تقدرين على ذلك . . ونصيحتى لك . ألا تتيحى له فرصة تشكيكك فى نفسك . . وأن تضيقى عليه فقط فرص الخطأ الفاضح بسذاجتك أو بحسن نيتك معه . . ثم أن تعوضى بعد ذلك متاعبك معه بالتصاقك بأبنائك وبتجنب أسباب الشقاق معه . . وإطالة ساعات الصفو بينكما بقدر الإمكان ، وترحمى نفسك وأعصابك وصحتك من محاولة تغييره ، لأن الطب لا يعالج إلا المرض الذى يحتمل الشفاء ، أما المرض الميئوس منه فلا يملك له الطبيب إلا تخفيف الآثار وانتظار معجزة الشفاء من السماء . . وحال زوجك كحال المريض الميئوس منه لا نملك له إلا الدعاء بالهداية . . وطلب الشفاء من الله ، واليأس إحدى الراحتين فى النهاية . أما تعذيب النفس بمحاولة إصلاح ما لا ينصلح فلا عائد له إلا المعاناة . . والأرق . . وتدهور الصحة . وهذا ما لا أريده لك بأى حال من الأحوال .

فهزت رأسها يائسة وواعدة بأن تفعل ما أشرت عليها به لكنها قالت لى فجأة وهى تصافحنى : سأفعل ما أشرت به لكنى أريد رأيك النهائى

فقط لكى أستريح . . هل أرتكب الجريمة الأخيرة التى رويتها لك . . أم لم يرتكبها ؟ .

ففكرت قليلاً ثم قلت لها : رأيى النهائى هو أن قرائنك ضده تبرر لك الشك فيه . . لكنها ليست كافية وحدها لإدانته ! .

فشكرتنى وغادرت مكتبى وهتفت لنفسى بعد خروجها : ألف لعنة على مبدأ ألا يحكم القاضى بعلمه . . وألف مليون لعنة على مبدأ تفسير الشك لصالح المتهم ! .



٤

رجل المستحيل

اتصل بى يستأذن فى الحضور إلى مكتبى بعد قليل لأمر هام . كان الوقت قرب منتصف الليل فى يوم الاثنين الذى أستقبل فيه قراء بريد الأهرام وأستمع لمشاكلهم ، وقد اكتفيت بما سمعت من هموم وآلام ذلك المساء ، ولم يعد فى صدرى متسع للمزيد . فصارحته بأنى قد استنفدت كل طاقتى النفسية والعصبية فى اللقاءات السابقة ولم أعد صالحاً للتفكير فى مشكلة جديدة فإذا كان مصرا على مقابلتى . . فليتفضل لنحدد موعداً آخر للقاء . فأكد لى أنه سيأتى لكى يسلم لى رسالة فقط ولن يطلب رأيى فيها خلال نفس اللقاء .

وضعت سماعة التليفون وانشغلت بما يشغلنى من عمل ، فلم يمض وقت طويل حتى وجدته يدخل إلى مكتبى . تصافحنا وشىء ما فى

داخلى يهمس لى بأنى قد التقيت به من قبل لكنى لا أعرف أين أو متى حدث ذلك . وصدق إحساسى حين قال لى بعد قليل : لعلك تذكرنى . . فلقد جئت إليك منذ حوالى عام وأبلغتك رغبتى فى تعيين بعض الشباب الباحثين عن عمل من قرائك فى شركتى الخاصة ، وأرسلت إلى عددا منهم . وتذكرته على الفور ، إنه رجل الأعمال الناجح الذى جاءنى فعلاً منذ حوالى عام ولاحظت عليه فى لقائى الأول به أنه إنسان مهذب متواضع سعيد بما حقق من نجاح فى حياته ويريد أن يساهم فى حل مشاكل بعض الشباب من قراء بريد الأهرام بإيجاد العمل الملائم لهم . وكان شرطه الوحيد لى وقتها أن يكون هؤلاء الشباب الذين أرسلهم إليه من أصحاب الحالات الاجتماعية الحرجة ليكون العمل إنقاذاً لهم من معاناتهم وقد شكرته بحرارة على عرضه وقتها وأرسلت إليه عدداً من الشباب لكن شتان بين الرجل الناجح الباسم الذى التقيت به منذ عام . . وبين هذا الشخص المكتئب الحزين الذى يجلس أمامى . وأحسست على الفور بأن هناك مشكلة ملحة وراء إصراره على مقابلتى رغم تأخر الوقت ، ونظرت إليه مشجعاً ، فمد يده إلىّ برسالة مكتوبة وأمسكت بها وبدأت أقرأ :

أنا رجل من أسرة كبيرة طيبة . تخرجت فى الجامعة ، وعملت فى مجال جديد بعيد عن دراستى تعلمته بسرعة وأجدته ، ثم سافرت للعمل فى إحدى الدول العربية لعدة سنوات وعدت وأسست شركتى الصغيرة وحين بلغت الثلاثين من عمرى قررت أن أتزوج فاخترت إحدى قريباتى لتكون شريكة حياتى وكانت أسباب اختيارى لها ، أنها على خلق وتحبنى

بشدة وصاحبة رأى ودين وبارك كل أهلنا ارتباطنا ، ونظر إلينا الجميع بالإعجاب والإكبار ، فزوجتى جميلة ورقيقة تعمل بإحدى الوظائف لإثبات ذاتها وشغل فراغها وأنا شاب وسيم وميسور مادياً وصاحب عمل ناجح ، وتزوجنا وأنجبنا ولداً وبنتاً وعشنا حياة هادئة مستقرة يغبطنا الجميع عليها وعلى البهجة التى يستشعرها أى زائر يدخل جنتنا الصغيرة .

وقد تشاركنا وتساندنا فى مواجهة مواقف الحياة المختلفة بالحب والعطف المتبادل فوقفت هى إلى جوارى كثيراً فى بداية افتتاح شركتى الصغيرة وخففت عنى صعوبات البداية . ووقفت الى جوارها فى محنة مرض أمها ثم وفاة أبيها وأمها فيما بعد ، وأحسستُ بعد وفاتهما بأننى قد أصبحت مسئولا عنها ليس كزوج محب فقط وإنما كأب وشقيق أكبر لها أيضاً بعد أن أصبحت وحيدة فى الحياة ، فتحملت مسئولية الحفاظ لها ولشقيقتها الوحيدة على تركة أبيهما وتكبدت فى سبيل ذلك عناء كبيراً فأصبحت أعمال شركتى وأعمال تركة أبيها تشغل كل وقتى ، وواصلت العمل ليلاً ونهاراً فى الجبهتين حتى استقرت أعمال تركة أبيها واطمأننتُ إلى أنى قد حافظت لها ولشقيقتها على ميراثهما من الضياع . . وبدأت أعود تدريجيا للتفرغ لعملى الخاص وبدأت فى تطويره . . ووضعتُ خطة جديدة للتوسع فيه ودخول أسواق بعض الدول العربية وافتتحت لى مكتباً فى إحدى عواصمها وانشغلت فى ذلك كثيراً ، لكننى لم أنشغل عن بيتى وأسرتى الصغيرة ولم أبخل على زوجتى وأولادى بحبى وحنانى واهتمامى . . فهم كل حياتى ، وقد رأيت أننى قد أصبحت كثير السفر

لأعمالى الجديدة فاشتريت لزوجتى سيارة جميلة لكى تستخدمها خلال فترات سفرى القصيرة . وبدَت لى الحياة خلال هذه الفترة جميلة وواعدة بمستقبل أكثر ازدهاراً ونجاحا . لكن شيئا غريباً طرأ على حياتنا فجأة فأثار هاجسى وقلقى . . لقد بدأت شخصية زوجتي تتغير بشكل ملموس فأصبحت تغالى فى الاهتمام بأناقتها ومظهرها بأعذار مختلفة وشديدة الاهتمام بعملها رغم عدم حاجتنا إليه ماديا . وبدأت وجهات نظرنا تختلف حول بعض الأمور مع أننا كنا دائماً متفاهمين حول كل شىء . وبدأت المشاكل الصغيرة بيننا حول هذه التطورات الجديدة فى حياتها من المكالمات التليفونية الطويلة التى أصبحت تنشغل بها عنى إلى أسلوب ملابسها وزينتها المبالغ فيها ، وبدأ العش السعيد يسمع نعيق الشجار لأول مرة بعد أن كان لا يسمع إلا أنغام الحب ، وانتابنى إحساس غامض مزعج بأن زوجتى ليست صادقة معى فيما تقدمه لى من تفسيرات عن هذا التغير الجديد فى أسلوب حياتها . إحساس غامض لا دليل عليه سوى قلبى الذى ينبئنى بأن هذه السيدة الصغيرة الجميلة التى تتحدث معى الآن لم تعد هى نفسها السيدة التى عرفتها وامتزج روحانا وقلبانا خلال السنوات الأخيرة .

وبعد معاناة نفسية طويلة قررت الإقدام على خطوة خطيرة تعكس ما تردَّت إليه علاقتى بها وهى مراقبتها من حيث لا تعلم ! وانصرفت عن عملى الذى كرست له حياتى وجندت ذكائى وكل حيلى لأكتشف سر تغيرها الغامض . واستعنت بالسيارات المؤجرة . . وبأشخاص متفرغين

لمراقبتها عن بُعد بل واستعنت أيضاً بأجهزة تسجيل صغيرة بثثتُها فى غرفة المعيشة بالبيت حيث تجرى زوجتى المكالمات الطويلة الهامسة .

ولم أكتشف رغم كل ذلك شيئاً محدداً . . لكن إحساسى بوجود شىء فى حياتها أحسه ولا أجد دليلاً عليه لم يرحمنى . . وزادت معاناتى وانهرت نفسياً وعصبياً حتى فكرت جدياً فى الانتحار وأنا الشاب الناجح الذى يحسده الآخرون على نجاحه وأسرته الصغيرة . . وفى غمرة حيرتى هذه ذهبت فى فجر أحد الأيام الى مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة وأديت صلاة الفجر وزرت الضريح الذى تفوح منه روائح المسك وبكيت وأنا أدعو ربى أن يخرجنى من حيرتى وأن يلهمنى الصواب فيما أفعل ، لكى أتخلص من جحيم المعاناة . . واستجاب الله لدعائى سريعاً فلم تمض على ذلك أيام حتى وضعت يدى على السر الغامض ، وكان كارثة هزَّت وجدانى من الأعماق . لقد أصبحت زوجتى يا سيدى لاتحبنى . . وإنما تحب زميلاً لها فى العمل ، وليته كان شخصا مناسباً لها أو يتميز عنى بشىء يستحق من أجله أن يستأثر بقلب زوجتى دونى بل على العكس من ذلك تماماً . فهو شاب يصغرها بثمان سنوات ويصغرنى بـ ١٦ سنة . وهو شاب بسيط لا يملك شيئا هو وأسرته وليس فيه ما يجذب إليه أى امرأة بشهادة زملائها وزميلاتها أنفسهم ، كما أننى لا ينقصنى شىء من جاذبية شخصية أو رجولة كاملة . ووقفت ذاهلاً أمام هذه الحقيقة القاسية ، وفى اضطراب تفكيرى فكرت جدياً فى أن أقتله ثم تراجعت فى اللحظة الأخيرة لأنى أحسست بالخسة والنذالة فى أن أعاقبه هو ولا أعاقبها هى . ثم ماذا أجنى من وراء هذا العمل الإجرامى ؟ هل

سيصفو لى قلب زوجتى المسلوب ، وعدلت عن هذا التفكير الانفعالى، واخترت الطريق الأصعب وقررت الانفصال عنها وإعطاءها حريتها لأضعها أمام الاختيار الحر بيننا . . فإما أن تندم على ما فعلت . . وترجع إلىّ مقتنعة بى وبأنها قد أخطأت خطأ بشعاً فى حقى وحق أسرتها وتكفر بمشاعر صادقة عما فعلت . . وإما أن تصحح علاقتها الخاطئة بهذا الشاب وتعيش معه فى الحلال وتحت وهج الشمس . . وليس فى ظلام الخيانة والغدر.

ونزل الطلاق عليها كالصاعقة وبعد الطلاق واجهتها بكل ما عرفت عنها وبكل ما جمعت من أدلة على خيانتها ولم تجد ما تقوله لى بعد الانهيار والبكاء الطويل سوى أننى قد أسهمت فى انزلاقها إلى الخطأ بانشغالى عنها بتوسعات أعمالى الأخيرة ! ورددت عليها بأنه لا شىء يشفع للخيانة أو يبررها ، ومع ذلك فان كانت علاقتنا كزوجين قد انتهت ، فإن علاقتى بك كأم لأطفالى وكقريبتى اليتيمة التى أعتبر نفسى مسئولاً عنها بعد وفاة أبويها لم تنته ، لهذا فانى أريد أن أطمئن على مستقبل أيامك مع هذا الشاب وأن أتأكد من انك ستعيشين حياة مستقرة حتى ولو كانت مع غريمى . وسألتها عن خطتها للمستقبل فطلبت منى أن ألتقى بزميلها الشاب وأبحث معه هذا الأمر ! ولم أتردد لأنى كنت قد طلبت منها ذلك فعلاً لكى أستكشف نياته الحقيقية تجاهها .

والتقيت به فى وجودها فى سيارتى فجلس هو إلى جوارى . . وقبعت هى متخاذلة فى المقعد الخلفى . . وتحاملت على نفسى وارتفعت فوق آلامى، وبدأت أتحدث معه كما يتحدث الأب مع شاب علم بأنه على

علاقة بابنته ويريد أن يطمئن إلى جدّيته معها . وبدأت أساله عن خطته للمستقبل معها وماذا يريدان من هذه العلاقة وما هو مكان الأطفال فى خطتهما ولم أجد أية إجابة واضحة لديه أو لديها ولم أخرج من اللقاء سوى بأنها كانت مجرد خيانة دون تفكير فى العواقب أو المستقبل وبلا سبب أو هدف . . أو أخلاق . ولم أتمالك نفسى حين أدركت ذلك فأوقفت السيارة ونزلت منها وعدت إلى الخلف وفتحت الباب الذى تجلس الى جواره أم أطفالى ثم هويتُ على خدها بصفعة مدوية عبرت بها عن كل فجيعتى فيها وفى أخلاقها وفى شخصية فتى أحلامها الخسيس المضطرب هذا ! ولم يجرؤ شريكها الجبان على أن يدافع عن « حبيبته » ضدى بل ولم يبدِ أى حركة للمقاومة أو لحمايتها منى وإنما انكمش كالفأر صامتاً ومتخاذلاً فى مقعده . . وليته فعل شيئاً أو تحرك للدفاع عن كرامة السيدة التى خانتنى من أجله حتى ولو أدى ذلك إلى مصرعه فى معركة عادلة بيننا إذن لاحترمته وقدرت فيه استعداده لحمايتها والدفاع عنها . . لكنه كان يعرف منها أننى أجيد منذ الصبا فن الكاراتيه وأستطيع أن أسحقه بيدى فى لحظة فلم يتحرك ولم ينطق وازداد احتقارى له ولها . وحين تأكدت من أنه ليست لديهما أية خطة لتصحيح وضعهما طالبتهما بقطع علاقتهما فوراً وتعهدا أمامى بقطع علاقتهما . ورغم ذلك استمرت اللقاءات بينهما . . ووقعت فى يدى تسجيلات لمكالمات عاطفية بينهما وأشعار تكتبها فى حبه وأشعار يهديها إليها ! .

واستمرت زوجتى السابقة تكذب علىّ بشأن قطع علاقتها به . . وانتشرت الفضيحة فى مقر عملها بعد أن كانت سيرتها فيه ناصعة

البياض . . وكل ذلك وهو لا يتقدم خطوة واحدة فى طريق الارتباط المشروع بها بحجة معارضة أهله . فتحركت لأحمى مستقبل أولادى من نزوات هذين الطائشين فأرغمتها على أن تكتب كل ما تملك وهو كثير لأولادنا وحتى السيارة التى أهديتُها إليها أرغمتها على أن تكتبها باسمى واستجابت لكل ما طلبت بلا مقاومة . وأصبحت زوجتى السابقة بلا مال يغرى أحداً باستغلالها . . وانتظرت أن يثبت الآخر حبه المجرد من الغرض لها ويقدم على الزواج منها . ولم يفعل ، فأضيف إلى همومى النفسية المؤلمة همٌّ جديد لا أعتقد أن رجلاً آخر قد حمله قبلى هو أن أبحث لشريكتى الخائنة وشريكها الآثم عن وسيلة للارتباط الشرعى بينهما . . حتى لا يستمرا فى حياة الخفاء وعرضت عليهما مساعدتى لهما بكل ما أستطيع لكى يتزوجا . ويصححا وضعهما الشائن وكلما ذلَّلْت لهما عقبة من عقبات الطريق أثار هو بجبنه وتردده مشكلةً جديدة ، فأثار مشكلة معارضة أسرته لزواجه . وأقدمت على خطوة أكثر جراه رغم مرارتها وقابلت معها أسرته لإقناعها بالموافقة على الزواج . . ورفضت الأسرة ارتباط ابنها بها وهو جالس صامت متخاذل لا ينطق ولا يدافع عن كرامة « حبيبته » أمام أسرته . وفعلتُ ما هو أكثر من ذلك . . فوعدتهما بأن أشترى لهما شقة تجمع بينهما فى الحلال على أن يبقى الأولاد معى وتراهم هى كلّما أرادت فى أى وقت . فأبدى تخوفه من الصعوبات المادية لحياتهما الجديدة خاصة وأن زوجتى السابقة قد اعتادت على مستوى مرتفع للمعيشة معى !

ولم أدر ماذا أستطيع أن أفعل لهما أكثر من ذلك . فتوقفتُ يائسا

وواضعا الأمر أمامهما بوضوح وهو : إما الزواج الشرعى . . وإما الانفصال النهائى بينهما حفاظاً على ما بقى من القيم والأخلاق ، وراقبتهما مراقبة شديدة لتنفيذ ذلك ، ثم مضت فترة قصيرة فإذا بزوجتى السابقة تأتى إلى وتعترف لى برجولتى معها ووقوفى بشرف وشهامة إلى جوارها . . ثم تقسم لى أنها قد قطعت علاقتها نهائياً بهذا الشاب ، وتطلب عودتها إلى البيت . . وعودة الحياة الزوجية بيننا كما كانت بعد أن أدركت عمق خطئها . . وعرفت حقيقة معدنى بالقياس إلى جوهر فتاها « النذل » ذاك . ووقفت حائرا أمامها هل أصدقها فيما تقول أم أكذبها وكيف أثق فيها بعد ذلك لو عدنا للحياة معاً والشك يملأ حياتى ووجدانى ؟ إننى حريص فعلاً على إنقاذها . من الهاوية ، لكن كيف أتحمل حياتى معها بعد ذلك وأين أنا من كل ما جرى وكان ؟ . لقد خسرتُ الكثير نفسياً وصحياً ومادياً وفقدتُ قدرتى على العمل . . وأوقفت خطتى للتوسع والعمل الخارجى . . وافتقدت الإحساس بمعنى الحياة . . وبمنطق الأشياء . . ولا أعرف لماذا فعلتْ زوجتى ما فعلت ، وهى رغم كل شىء من أسرة كريمة . . بل إن « الآخر » أيضا رغم ضعفه وجُبنه من أسرة فاضلة رفضت الموافقة على هدم حياة أسرة أخرى من أجل ابنها ، وأولادى أمامى ضحايا لخطأ لا أعرف سببه . . ونزوة لم يقدر أصحابها عواقبها . . ولست أصدق أنها قد عادت إلى نادمة وبكل مشاعر الحب القديمة . وحتى لو صدقت فلن أنسى ولن أغفر لها ما فعلت بى وبنفسها وبأولادها فماذا أفعل معها . . وهل أقبل عودتها ؟ لقد أصبحت أنظر إليها و إلىّ على أننا ثمار عصر بائس تدهورت

فيه الأخلاق والقيم إلى أقصى درجة . . وتحولت حياتى إلى جحيم أعايشه كل لحظة من ليل أو نهار، وأنت تكتب وتنظر للحياة نظرة وردية وتخفف عن المهمومين آلامهم بكتاباتك التى تدعو للتفاؤل وإلى الثقة فى الله والخير والقيم الدينية والخلقية ، فهل تستطيع بعد كل ما رويت لك أن تلقى فى طريقى بأى بصيص من الأمل فى الخير والإخلاص والوفاء ؟ وهل تستطيع حتى لو جاهدت نفسك أن تبثَّ فى نفسى . . روح التفاؤل الوردى تجاه الحياة مرة أخرى ؟ ثم هل تنصحنى فى النهاية بأن أقبل العودة إليها وبأن أصدق ندمها وعودة حبها القديم لى من جديد . . . أم ماذا أفعل معها ؟

وانتهيت من قراءة الرسالة . . ورفعتُ رأسى من فوق سطورها محاذراً أن يبدو على وجهى أى تعبير للرثاء قد يجرح مشاعر ضيفى برغم كل ما شعرت به من رثاء حقيقى وتعاطف صادق معه . . ونظر هو إلى متطلعا إلى تعليق مبدئى على ما قرأتْ . . فقلت له متحاملاً على نفسى :

ـ أنت رجل شجاع بكل معنى الكلمة يا سيدى ، لكنى أحتاج إلى بعض الوقت لأفكر بعمق وصفاء فيما قرأت قبل أن أبدى فيه رأيى وسوف أتصل بك بعد يومين لنلتقى مرة أخرى ونتحدث فيما عرضته علىّ .

فنهض بقامته الفارعة مصافحاً وهو يقول لى :

ـ أنا لست شجاعاً . . وإنما أنا رجل مسئول عن سيدة من أهلى كانت زوجتى وأنجبت لى أطفالى وقد تحملتُ مسئوليتها وحاولت إنقاذها

رغم جرحها لمشاعرى كرجل وزوج حرصا عليها كإنسانة فى النهاية وحرصاً أيضاً على أطفالى .

فقلت له : كل هذا يؤكد أنك رجل شجاع . لأن الشجاع فقط هو من لا ينكص عن تحمل المسئولية ولو كان فى أدائه لها ما يجرح كرامته ومشاعره ، وأنت لم تتحملها فقط بل وأقدمت أيضا على ما يعتبره البعض ضربا من المستحيل بالنسبة لرجل وزوج فى سبيل تحمل هذه الأمانة الثقيلة . لهذا كله فأنت رجل شجاع ونبيل ولابد أن تعترف بذلك لنفسك وألا تبخسها حقها ، فقال وهو يتحرك إلى الباب منصرفا : تليفونى فى نهاية الرسالة وسأنتظر منك اتصالا حين تتوصل إلى رأى محدد فى مأساتى . . وإلى أن يحدث ذلك . . أؤكد لك مرة أخرى أننى لست شجاعاً . . وإنما « مسئول » . . وتعيس إلى أقصى حد بهذه المسئولية الكئيبة . . إلى اللقاء .

ثم غادر مكتبى وأنا أتابعه بنظراتى المتأملة . . والحزينة . وأفكر بعمق فيما سأقوله له فى لقائنا القادم .

يا إلهى . . ماذا عساى أن أقوله له حقا . . أو أنصحه به ؟

. . هل عندك نصيحة مفيدة لى . . وله !



■■ غريبة هذه الحياة ! تجرى فيها أحياناً أحداث لو عرضت علينا على الشاشة أو قرأناها فى قصة لاتهمْنا مؤلفها بالمبالغة والافتعال . لكن ماذا نفعل حين يكون المؤلف هو «الزمن » الذى قال عنه الأديب والفليسوف الانجليزى فرنسيس بيكون إنه أعظم المؤلفين أو « مؤلف المؤلفين » بنصِّ عبارته ؟ هل نستطيع أن نتهم الزمن أيضا بخروجه أحياناً على قواعد الدراما الواقعية والميل إلى المبالغة والافتعال ؟ ■■

لى صديق فنان ممثل عرفته منذ بداية خطواته الأولى وهو طالب بالجامعة ويمارس هواية التمثيل فى فريق كليته . ثم تخرج فى كليته فاتخذ قراراً جريئا هو ألا يقبل الوظيفة الحكومية التى كانت متاحة له

وقتها وأن يحترف الفن والتمثيل . وراقبت خطواته الأولى وهو يحاول أن يشق طريقه وسط الصخور بلا سند إلا من موهبته وإصراره على النجاح وفرحت بكل خطوة حققها فى مشواره الفنى إلى أن بدأت أقدامه تستقر فوق الطريق الصعب ، وبدأ اسمه يتصدر المسلسلات التليفزيونية وإعلانات مسارح القطاع العام . وراقبت عن قرب قصة حبه لزميلة له مؤهلة جامعيا ومن أسرة طيبة ، وشهدت حفل زفافهما بعد قليل فى فندق « هيلتون ـ النيل » وتمنيت لهما السعادة والتوفيق ، ثم شاركتهما فرحتهما بأول مولود لهما ثم بثانى مولود ، وانشغل كل منا بمعركته مع الحياة فأصبحنا لا نلتقى إلا كل عدة شهور . . أو كلما شارك فى مسرحية جديدة ودعانى لمشاهدتها ، لكن الصلة الحميمة ظلت قائمة بينى وبينه فيجمع المصيف بيننا أحيانا . . ويربط التليفون بيننا من حين لآخر .

وذات صيف منذ ثلاث سنوات كنت أستعد للسفر فى اليوم التالى إلى لندن فى أجازتى السنوية حين اتصلت بى فى بيتى زوجة صديقى الفنان تدعونى لمشاهدة المسرحية الضاحكة التى يتقاسمان بطولتها فى أحد المسارح الصيفية ، فاعتذرت لها على الفور باعتزامى السفر صباح غد وانشغالى الليلة فى كتابة بعض الأعمال الصحفية التى ستنشر خلال غيابى، فإذا بها تلح علىَّ فى الحضور ، فأحسست بالحرج وحاولت إفهامها بلطف باستحالة ذلك للأسباب التى شرحتها من قبل ، فإذا بها تتوسل إلى باسم الصداقة أن أفعل المستحيل لأحضر للمسرح تلك الليلة مهما كانت الظروف ! وأحسست بأن الأمر ليس مجرد دعوة لمشاهدة مسرحية ضاحكة فسألتها عن حقيقة الأمر، فانفجرت باكية وهى تقول

لى : ستحدث كارثة اذا لم تحضر الليلة وتجلس معنا أنا وفلان بل سوف تندم طويلاً على أنك لم تفعل . وأدركت الموقف فأسرعت أؤكد لها أنى سأترك كل شيء وأحضر لمقابلتهما قبيل انتهاء العرض المسرحى مهما كانت الشواغل . ووضعت السماعة وأنا أتعجب من نغمة الحزن العميقة فى صوتها . . وواصلت الكتابة بلا توقف لكى أفى بوعدى لها ، وقبيل منتصف الليل توجهت إلى المسرح وجلست فى الصالة أنتظر انتهاء المسرحية وتشاغلت بمشاهدة الفصل الأخير منها فلاحظت على الفور أن بطليها صديقى وزوجته فى قمة تألقهما الفنى وتأثيرهما على الجمهور . . فحوارهما معاً يفجر عواصف متلاحقة من الضحك ومزاجهما الفنى فى أحسن أحواله وهما يتبادلان القفشات النابعة من وحى اللحظة ولا يتحكمان أحياناً فى نفسيهما فيضحكان على القفشة التى ألفها أحدهما منذ لحظات مع الجمهور ، وكنت مرهقاً بالعمل طوال الأيام الماضية . . فاسترخت أعصابى لهذا الجو الضاحك . . واستسلمت لمداعباتهما وقفشاتهما وتابعت أحداث المسرحية مبتهجاً الى أن أفقت على ختام المسرحية ، ورأيت الجمهور يصفق لأبطالها بشدة فصفقت معهم . . وشاهدت صديقى يقدم زوجته للجمهور وابتسامته العريضة تنطق بفخره بها وإعجابه ثم يقبلها فى وجنتها بعد أن تنتهى من ردِّ تحية الجمهور، ورأيت زوجته تفعل نفس الشيء معه فتسحبه من ذراعه إلى مقدمة المسرح ليرد تحية الجمهور المتحمس وابتسامتها تنطق بفرحتها واعتزازها به وما إن ينتهى حتى تقبله هى أيضا فى وجنته ثم يمسك كل منهما يد الآخر ويرفعانهما تحية للجمهور ووداعاً له . وأسدل الستار

فخرجت من صالة المسرح إلى حديقته الخلفية التى تواعدت مع زوجة صديقى على انتظارها فيها ، وأرسلتُ عاملاً يبلغ الفنان الشاب بوجودى فى الحديقة وانتظارى له . . فلم تمض دقائق حتى رأيتها قادمة متجهمة وقبل أن أبدأ الحديث معها رأيته قادماً مندهشاً من حضورى بغير علمه ولاحظت تجهمه أيضاً وتعمده عدم النظر إلى زوجته !

وانصرف كل من كان فى المسرح من جمهور وعمال وفنيين ولم يبق إلا حارس الحديقة الذى ابتعد عنا ، وبدأ الحديث فانفجرت المفاجأة .

فصديقى وزوجته على خلاف تفاقم حتى اتفقا على الطلاق ولم يبق إلا التنفيذ صباح الغد ! . وكمحاولة يائسة من جانب زوجته اتصلت بى لأجلس معهما جلسة أخيرة قبل أن يقدما على الطلاق فى اليوم التالى! وبدأتُ بالسؤال التقليدى عما حدث، وتحدث صديقى طويلاً . . وتحدثت زوجته أطول . . وقاطع كل منهما الآخر أكثر من مرة . . وكذبه مرات ودافع عن نفسه وانهمرت دموع الزوجة غزيرة كالمطر ، ودمعت عيون الزوج تأثراً وانفعالاً أكثر من مرة ، واستجمعت كل قدرتى على الصبر والوساطة وتقريب وجهات النظر فإذا بالجلسة العاصفة تنتهى بعد ثلاث ساعات طويلة إلى أنه لا سبب حقيقياً لهذا النزاع ، اللهم إلا تفاهات الحياة اليومية التى ضاعف من تأثيرها خصام كل منهما للآخر ومجافاته له واعتصام كل منهما بكبرياء جوفاء وعناد أحمق يمنع كلا منهما من أن يبدأ بالاقتراب والصلح . أما أغرب ما اكتشفته خلال هذه الجلسة العجيبة فهو أن الزوجين المتحابين متخاصمان خصاماً كاملاً وشاملاً لكل أوجه التعامل بينهما منذ شهر

كامل أى منذ بداية عرض هذه المسرحية وأنهما خلال هذه الفترة الطويلة لم يتبادلا كلمة واحدة فيما بينهما ولا حتى تحية الصباح أو المساء . . إلا فوق خشبة المسرح التى يؤديان عليها دورى زوج وزوجته تقع بينهما المشاكل الزوجية المألوفة !

ولم أتمالك نفسى من الدهشة وسألتهما وكيف تحضران للمسرح كل ليلة وتنصرفان منه ؟ فأجابانى : يحضر كل منا منفرداً فى سيارته ويتوجه إلى غرفته فى المسرح ويضع ماكياجه ثم يؤدى دوره أمام رفيقه ، وربما نتوجه للمسرح من البيت فينزل كل منا فى نفس المصعد دون أن يخاطب شريكه أو ينظر ناحيته ويتجه لسيارته ويركبها . . وفى الليل يحدث نفس الشىء فيعود كل منا للبيت فى سيارته ويتجه الزوج إلى غرفة النوم . . وتتجه الزوجة إلى غرفة نوم الأولاد .

وهكذا منذ شهر كامل بلا كلمة ولا مشاركة فى طعام أو شراب أو حديث عن شئون البيت والأبناء .

واستعدتُ منظرهما وهما يتبادلا الضحكات والقفشات على المسرح . . ثم وكلٌ منهما يقدم الآخر للجمهور والابتسامة العريضة تغطى وجهه وتصرخ بحبه للآخر وفخره به . . ثم وكل منهما يقبِّل الآخر فى وجنته مُختالا به على العالمين ، ولم أستطع أن أكبح السؤال الذى يتقافز على لسانى فسألتهما : وكيف تتبادلان القبلات على المسرح أمام الجمهور ثم يبخل كل منكما على بكلمة حب أو تعاطف واحدة معه بعد انتهاء المسرحية ؟

فأجابنى الزوج والزوجة متنهدين : هذا ما يُحيرنا . . صحيح أنه «عمل » كنا نسعد به لكنه أصبح عذاباً مضاعفا حتى ان كلا منا فكّر فى الانسحاب من المسرحية لولا خوفنا مما سيثيره ذلك علينا من شائعات وأقاويل !

ولم أجد صعوبة كبيرة فى إقناعهما بالصلح ونبذ فكرة الطلاق نهائيا حماية لحبهما . . ولطفلين بريئين من أن يتمزقا بينهما ، ولا فى إقناعهما بتنازل كل منهما عن كبريائه وعناده مع شريكه مؤكدا لهما أن العناد دليل الغباء . . وأن الكبرياء الجوفاء اجتراء على مقام الخالق الذى لا يحق لأحد سواه ـ جلَّ شأنه ـ أن يتكبر لأنه « المتكبر » الوحيد وكل من عداه بشر ضعاف فى حاجة إلى عطف الآخرين خاصة وأن كلا منهما يحب الآخر حباً صادقاً ، وقد قدم لشريكه خلال رحلة الحب والزواج من التضحيات ما يمدُّ جذور حبه فى أعماق الآخر ، فكيف لهذه القصة الجميلة أن تنتهى على مذبح العناد والكبرياء؟

وأنهيتُ حديثى بمطالبة زوجة صديقى بترك سيارتها للصباح أمام حديقة المسرح والعودة إلى البيت فى سيارة زوجها موصياً إياها أن تهجر غرفة نوم الأولاد إلى الأبد . ووقفت على باب المسرح رافضاً ركوب سيارتى إلا بعد أن تركب الزوجة مع زوجها ، فركبا معا مبتسمين ولوحا لى بأيديهما مودعين . . وانطلقا إلى بيتهما وركبت سيارتى عائداً إلى بيتى ، ولم يتبق على موعد طائرتى سوى ثلاث ساعات ، وأدركت أنه لا أمل لى فى النوم قبل السفر فانشغلت بإعداد حقيبتى وانتظار السيارة التى ستنقلنى إلى المطار ، وجاءت السيارة فى موعدها فسلّمت الحقيبة لمن

يحملها إليها . . وحملت حقيبة أوراقى الصغيرة وودعت أسرتى واتجهت لباب الشقة فإذا بجرس التليفون يرن ! ترددت قليلاً فى رفع السماعة خوفاً من أن تعطلنى المكالمة غير المتوقعة عن موعد السفر . . لكنى غالبت ترددى ورفعت السماعة متوجساً من أن يكون الزوجان قد اشتبكا مرة أخرى فى نزاع جديد وأنهما يريدان إشهادى على فشل الصلح أو على عدم وفاء أحدهما بما تعهد لى به فى نهاية الحديث . فتبددت مخاوفى فجأة حين سمعتُ صوت زوجة صديقى يتألق بالبهجة والمرح وهى تصيح بطريقتها المألوفة : صباح الفل ! لقد أردنا أن نودعك قبل أن تركب الطائرة . . وأن نشكرك مرة أخرى ونتمنى لك كل خير . . وهذا «حبيبى » يريد أن يقول لك مع السلامة قبل السفر .

وأعطت السماعة « لحبيبها » فجاءنى صوته مهللاً ومحيياً وغلبته روحه المرحة فقال لى: لقد اتفقنا على أن نُدخِل تعديلاً جديداً على تحية الجمهور التى نؤديها معاً كل ليلة فى ختام المسرحية . . فحين أقدم «فلانة» للجمهور سأفاجئها وهى منحنية لرد التحية «بشلوت » من الخلف يقذف بها إلى الصالة ويعبر عن « حبى لها » ! . . وستفعل هى معى نفس الشىء . . ها ها ها أليس الأفضل أن أضربها وتضربنى أمام الجمهور مقابل أن أقبلها وتقبلنى فى البيت بدلاً من أن نقبل بعضنا أمام الناس . . ثم نتخاصم فيما بيننا ؟ ها ها ها . . مع السلامة .

وضحكت لهذه الدعابة وتخيلتُ وأنا فى طريقى للمطار هذا المشهد العجيب وابتسمت متعجباً منه . . ومن مفارقات الحياة وغرائبها الكثيرة . . التى لا تجد « ناقدا» أدبياً يستطيع أن يتهمها بالمبالغة أو الافتعال

.. لسبب بسيط هو أن « مؤلفها » هو الزمن ـ أعظم المؤلفين ـ وأعصاهم على النقد والتحليل ! فهل عندك أنت اعتراض على تآليفه»؟!.



طلبت لقائى فى باريس خلال مرورى بها فى طريقى إلى مونتريال فى كندا . ورحبت بلقائها رغم ضيق الوقت وقصر الفترة التى أمضيتها فى العاصمة الفرنسية . . وتوجهت فى الموعد المحدد إلى بيت صديقى الذى أبلغنى برغبتها فى مقابلتى وجاءت بعد قليل ، ونهضت لمصافحتها فرأيت أمامى سيدة مصرية متوسطة العمر جميلة . . محجبة . . صمد جمالها للزمن ، فقدرت أنها كانت فى شبابها فتنة للناظرين . قالت لى : إنها فى زيارة لباريس وعرفت من صديقى بوجودى بها فرغبت فى أن تقابلنى لتستشيرنى فى أمر يشغلها . .

وروت لى على الفور قصتها فقالت لى : إنها تزوجت صغيرة من رجل

لم تسعد معه ولم تحتمل الحياة إلى جواره طويلاً ، وعجزت عن الاستمرار فى المعاناة والمشاكل ، فطلبت الطلاق منه وأصرت عليه ووافق زوجها على طلاقها ، لكنه اشترط عليها شرطاً هو أن تتنازل له عن حضانتها لطفلها وطفلتها منه إلى الأبد ، وتمسك بهذا الشرط اللا إنسانى فرضخت له ، وتنازلت له عن الطفلين وعمر ابنتها ٨ سنوات وعمر ابنها ٧ سنوات ، وهى تأمل أن يخفف الزمن من حدة العناد والقسوة فيسمح لها بعد أن تهدأ النفوس بحقها الطبيعى فى أن ترى طفليها ، لكن الأيام مضت دون أن يتخفف من عناده أو قسوته حتى بعد أن تزوج من أخرى، وحاولت هى أن تعوض سوء حظها فى الزواج الأول فتزوجت من رجل آخر ووجدت سعادتها معه ، وأنجبت منه ، وحاول زوجها الجديد إسعادها بتمكينها من رؤية طفليها ، وبحث عن الزوج الأول ليتفاهم معه على ذلك ، ففوجىء بأنه قد هاجر بطفليه وزوجته إلى أمريكا ورفض أقاربه بإصرار أن يبوحوا له بعنوانه فى مهجره .

ومضت الحياة بها وهى سعيدة بزوجها وأطفالها الجدد . . لكن فى القلب جرحا لا يلتئم ، وأملاً غامضاً فى أن تلتقى ذات يوم بطفليها الغائبين ، وتجددت المحاولات مرة أخرى مع أقارب الزوج فصارحها أحدهم بأن زوجها السابق قد أبلغ الطفلين بأن أمهما قد « ماتت » منذ زمن بعيد ، وأنه لا أم لهما إلا زوجته الحالية ، وصدقه الطفلان البريئان وتقبلا واقعهما الجديد ، وتكيفا معه ، وبعد سنوات أخرى تمكنت من معرفة عنوانه فى أمريكا . . وراسلت ابنيها فلم تتلق أى رد منهما ، وعرفت أن زوجها السابق قد اعترف لهما بوجود أمهما على قيد الحياة لكنه

حرم عليهما أى اتصال بها بدعوى أنها قد ألقت بهما إليه . . وتخلت عنهما، لكى تتزوج مرة أخرى ، ولم تيأس الأم من الأمل فى أن تعود العلاقة بينها وبين ابنيها إلى وضعها الطبيعى فراسلتهما على مدرستيهما فى أمريكا . . وواظبت على أن ترسل إليهما بطاقات التهنئة فى الأعياد والمناسبات . . وحرصت على أن تكتب لهما عنوانها واضحاً وترجوهما أن يجيبا على رسائلها بكلمة ، فلم تتلق منهما رسالة واحدة ، وفسر لها أحد أقارب زوجها ذلك بأن الأب قد هدّد من يجيب على رسائلها بأن يقطع صلته به ويتخلى عن مسئوليته تجاهه فرضخ الاثنان للأمر الواقع .

ومضت ١٥ سنة كاملة . . ثم فوجئت ذات يوم برسالة على عنوانها فى القاهرة من ابنها الذى أنهى تعليمه العالى وأصبح الآن شاباً مسئولا عن نفسه يبلغها فيها أنه يريد أن « يعرف » أمه التى كان يظنها قد رحلت عن الحياة وآن الأوان الآن لأن يراها ويعرفها .

وتهللت فرحاً بالرسالة الغالية . . وكتبت إليه تقول له : إنها على استعداد لأن تقابله فى أى مكان يحدده فى أمريكا . . أو أوربا أو مصر وعاد إليها البريد بالبشرى . . فابنها سوف يجيء إلى القاهرة ليزور أهله لأول مرة منذ سفره إلى أمريكا . وسيزورها هو فى بيتها . . وانتظرت زيارته بفارغ الصبر . . والتقت به فوجدت أمامها شابا فى الثالثة والعشرين من عمره ينظر إليها بمشاعر متضاربة من الخجل والدهشة، وحب الاستطلاع ، فلم تدعه لنفسه لحظة وهجمت عليه واحتضنته وأمطرته بقبلاتها ودموعها . . وجرفه سيل المشاعر الذى تدفق عليه فجأة فوجد نفسه بعد قليل يبادلها القبلات والدموع وتلفت وهو فى أحضانها

فوجد فتاة وشاباً صغيرين ينتظران أن تفك أمهما حصارها حوله ليتلقياه بين أحضانهما . . وجذبته الفتاة من ذراعه وقبلته وهى تقول له : أنا أختك ! وشده الشاب من بين يديها وقال له : أنا أخوك ! وراح الثلاثة يتجاذبونه . . وهو ينتقل من واحدة إلى أخرى أو آخر ويضحك فى مرح وسعادة ، واندهاش لطوفان المشاعر العاطفية هذا الذى لم يعتد عليه فى مجتمع المهجر الواقعى الذى يتعامل مع الحياة بحياد وتجرد .

وعاش الشاب أياما حافلة بالسعادة والمرح مع أسرته التى حرم منها كل هذه السنوات الطويلة ، وأصبح نجم الأسرة الجديد الذى تقدمه بفخر للأقارب والأهل والأصدقاء . . وامتلأ برنامجه إلى آخره بالرحلات والزيارات والدعوات إلى بيوت الأهل والمعارف ، وعرفت منه أمه أنه ظل فترة طويلة يتطلع إلى عودة العلاقة الطبيعية بينه وبين أمه ، لكنه لم يكن يستطيع أن يواجه تهديد أبيه بالامتناع عن الإنفاق على تعليمه إذا أقدم على الاتصال بأمه ، فانتظر حتى بلغ سن الرشد وعمل ورأى أن من حقه الآن أن يعرف أمه وأن يتحمل تبعات غضب أبيه آملا أن يتجاوز عن هذا « الخطأ » من جانبه بعد قليل، وغادر الشاب مصر مشحونا بأجمل الذكريات والمشاعر وتوالت الاتصالات والمراسلات بينه وبين أمه وإخوته ، وانتقل للعمل فى إحدى العواصم الأوروبية فأصبحت أمه تزوره كل عام . . ويزور هو أسرته الجديدة فى أجازته السنوية . وفى كل لقاء مع أمه تطلب منه أن يرتب لها اللقاء الذى تتلهف عليه مع ابنتها التى عرفت منه أنها قد تزوجت دون أن تراها ، ويحاول الشاب ذلك مع أخته فتصدمه بالرفض القاطع لأى اتصال بينها وبين أمها . وبعد جهود

مضنية وافقت على أن تلتقى بأمها لقاء واحداً خلال رحلة لها من أمريكا إلى جنيف حيث يعمل الإبن الشاب ، وطارت الأم إلى هناك ورأت ابنتها لأول مرة بعد ١٦ عاما من الغياب ، واندفعت إليها ففوجئت بها تصدّها عنها بجفاء وتصافحها كما يتصافح الغرباء قائلة لها : هاى ! .

وصدمت الأم بجفاء مشاعر ابنتها فلم تتمالك نفسها وسألتها على الفور : لماذا تكرهيننى ؟ وأجابتها الإبنة فى هدوء : أنا لا أكرهك ولا أحبك . . لأنى لا أعرفك ! . وحبست الأم دموعها وسألتها : ولماذا ترفضين أن أراك أو أتصل بك ؟ ففوجئت بابنتها تجيبها : وماذا «سأكسب » من رؤيتك أو اتصالك بى ؟ إننى لن أستفيد شيئا سوى أنى سأخسر مساندة أبى لى وهو لا يريدنى أن أعرفك أو أتصل بك . لقد تخليت عنا ونحن صغيران فى حين احتضننا أبونا وربانا ، لهذا فهو يستحق أن أحترم رغبته فى ألا أعرفك ! وعبثا حاولت الأم أن تقنعها بأنها لم تتخل عنها وعن شقيقها راضية وإنما مضطرة وتحت ضغط قاهر ، وأنها لم تنسهما لحظة واحدة طوال السنوات الماضية وحاولت مراراً أن تتوصل إليهما لتراهما وتهتم بأمرهما لكن الأب حال دون ذلك بكل الوسائل .

وعبثا حاولت أيضا إقناعها بأن عودة العلاقة الطبيعية بينهما كأم وابنتها لا تعنى أبداً تنكرها لأبيها أو جحودها له . . وإنما تعنى فقط تصحيح خطأ دفعت إليه ظروف خاصة وآن الأوان لتصحيحه الآن كما أن العلاقات العائلية لا يصح أن نتعامل معها بمنطق الربح والخسارة وحده ودون أى اعتبار للمشاعر الإنسانية والعاطفية .



لكن الفتاة العنيدة لم تتزحزح عن موقفها وتمسكت بمنطقها المادى هذا ورفضت أن تعطيها عنوانها الذى انتقلت إليه بعد زواجها أو رقم تليفونها ومنعت شقيقها من أن يبوح بهما لأمها واحترم الشقيق رغبة شقيقته فاعتذر لأمه آسفا عن ذلك . وعادت الإبنة إلى أمريكا . . ورجعت الأم إلى مصر وهى تأمل أن تلين الأيام من صلابة عنادها ومنطقها « الأمريكى » الذى تتعامل به معها . . فمضت ثلاث سنوات كاملة دون أن تلين . . أو ترق أو تسمح لشقيقها بأن يعطى أمها عنوانها فى أمريكا ! وفشلت جهود الشقيق معها فأعلن لأمه يأسه من المحاولة معها مرة أخرى ! .

ودمعت عينا الأم الجميلة وهى تسألنى : هل تنصحنى بأن أستمر فى إلحاحى عليها بالخطابات التى أرسلها إليها عن طريق شقيقها لكى تسمح لى بأن أراها وأدافع عن نفسى أمامها . . أم تنصحنى باليأس منها وبالكف عن إرسال الخطابات . . والوسطاء إليها لتغير موقفها منى؟ .

وتفكرت طويلا فى السؤال وأنا أتعجب لهذه القصة الحقيقية التى تتحدى بغرابتها قصص الأفلام الميلودرامية القديمة . . ثم سألت السيدة الجميلة :

- هل تستطيعين تحمل انقطاع العلاقة بينك وبين ابنتك وتكييف حياتك على أساس عدم وجودها فيها لفترة أخرى ؟ فأجابتنى بواقعية : نعم أستطيع فقد تحملت اختفاءها من حياتى ١٩ سنة وأستطيع تحمل هذه الحقيقة رغم آلامها لفترة أخرى بلا معاناة كبيرة .

فقلت لها على الفور : إذن فدعى للزمن ولعوامل أخرى أن تغير من أفكار ومشاعر هذه الفتاة العنيدة تجاهك . فقط أبلغيها عن طريق شقيقها أن هناك فى مكان ما من الأرض أمّاً صدرها مفتوح لها فى أى وقت وأى مرحلة من العمر تحتاج فيها إليها وعلى استعداد لأن تلتقى بها فى أى مكان من خريطة الدنيا . . وسوف تجد لديها دفء مشاعر الأم . . واهتمامها بها وتأييدها المعنوى والمادى لها حين تحتاج إليه أو تفتقده واطلبى من شقيقها أن يذكرها دائما بهذه « الحقيقة » . . وبأن هذه الأم لن « تكسب » شيئا ماديا من اتصالها بها ، لكنها هى التى « ستكسب » وستستفيد لأنها ستجد لدى أمها كل ما تحتاج إليه فتاة وزوجه شابة من رعاية أم تستطيع أن ترجع إليها فى شئونها وتستطيع أن تقدمها لزوجها . . ولأولادها حين تنجب أطفالا ، وسوف يلعب الزمن دوره الخالد فى هذه المشكلة . . كما يؤديه دائما فى كل مشاكل الحياة ، فيهدأ الغضب . . وتلين الأفكار الجامدة وترق القلوب القاسية خاصة حين تقتنع بأن اتصال أمها تليفونيا بها مرة كل أسبوع أو كل شهر ليس « خيانة » لأبيها كما تتصور ولا يتعارض مع الوفاء له وإنما هو أداء لواجب إنسانى هى الخاسرة بالامتناع عنه قبل غيرها .

وسكت قليلاً ثم قلت للأم إن ملاحقتك لها بمشاعرك العاطفية وإلحاحك عليها بها لن يزيدها إلا إعراضا عنك فالنفس قد تزهد أحيانا من يرغبها بإصرار ويتوسل إليها بكل الوسائل ، ويزيد من هذا الاحتمال معها أنه لا مجال للتأثير عليها بالوازع الدينى الذى يذكرها بحق الأم عليها حتى ولو أخطأت فى حقها كما تتصور ، فالواضح أنه ليس لهذا

الوازع أى دور مؤثر فى منطقها « البراجماتى » العملى الذى يقيس الأمور بحساب المكسب والخسارة وحده . إذن فالأفضل هو أن تتعاملى معها بنفس هذا المنطق الذى لا تفهم غيره ،وأن تنقلى إليها الرسالة التى أشرت إليها عن طريق شقيقها ومضمونها أنها سوف « تستفيد » الكثير من ظهور أمها فى حياتها ولن تخسر الكثير فلقد تجاوز الأب عن « خطأ » الإبن الذى أعاد علاقته الإنسانية بأمه ولم يغلق دونه بابه أو حياته . . وتستطيع هى أيضا أن تفعل نفس الشىء وأن تبرره لأبيها بالاعتبارات الإنسانية المعروفة . ومع كل ذلك فإن الأمل فى تصحيح أفكارها وتنبيه مشاعرها الإنسانية تجاه أمها وتجاه أشياء كثيرة فى الحياة لن يتحقق بتأثير هذا المنطق المادى وحده. . وإنما هو يمهد الطريق فقط لتقبلها مبدأ التفكير فى عودة العلاقة مع أمها ، وإنما سيتحقق التغيير بعامل أهم هو أن تعرف هى لأول مرة فى حياتها مشاعر الأم حين تنجب أول أطفالها بعد فترة قصيرة ، ففى اللحظة التى يخفق فيها قلبها لمولودتها الصغيرة وتعرف مشاعر الأمومة ولهفة الأم على ابنها ، وحاجتها الإنسانية والعاطفية إلى أن تلمسها وتقبلها . . وتشتم عبيرها . . سوف تفهم معنى رسالتك إليها . . وتعرف قيمتها وتتفتح مسام قلبها لك ، وتتعامل معك بمنطق آخر لا مجال فيه لحسابات الربح والخسارة فانتظرى إذن هذا التغيير الحتمى الذى سيحدث فى حياتها ومشاعرها إن آجلا أو عاجلا فليس كالأبناء شىء يرقق القلوب وينسف المنطق البراجماتى من جذوره ويكسر الأنوف المتعالية . . ويذكر الإنسان بحقيقة أنه إنسان . . وإن غدا لناظره قريب! .

وراقبت الأم وهى تستمع إلىّ فوجدت أسارير وجهها تنفرج رويداً رويداً مع كلماتى الأخيرة لها كأنها تتخيل معاناة ابنتها فى الولادة ولهفتها على وليدها وتأمل أن تذكرها هذه اللحظات المشحونة بأصدق الانفعالات والمشاعر بأمها التى تتلهف على سماع صوتها وتعلن استعدادها لأن تطير إليها فى أى مكان لا لشىء سوى أن تحتضنها وتقبلها . . وتقدم لها عطاءها الإنسانى الدافق الذى حالت الظروف المأساوية دون أن تقدمه لها فيما مضى من العمر . وأنهيت حديثى إليها وصافحت السيدة مودعا ، ونهضت لألحق بموعد تأخرت عنه فشكرتنى بحرارة . . وغادرت الشقة وأنا أحكم إغلاق معطفى على صدرى اتقاء لبرد باريس القارس فى هذا الوقت من السنة . . وفى خاطرى يتردد السؤال الحائر الذى يعاودنى كثيراً كلما واجهت مشكلة جديدة من مشاكل البشر . . وهو : متى يستريح الإنسان فى هذا العالم الحافل بالمعاناة . . والآلام . . وجفاء المشاعر ؟ .



جاءت إلى مكتبى فى الموعد المحدد مصطحبة معها فتاة فى سن السادسة عشرة بدا من التشابه الواضح بينهما أنها ابنتها . وجلست الأم الجميلة تروى لى قصتها فلاحظت منذ الوهلة الأولى أناقتها البالغة وقوة شخصيتها . قالت لى : إنها تزوجت منذ ثلاثة وعشرين عاما من طبيب شاب تفانى فى إرضائها و إسعادها وأنجبت منه ثلاث بنات صغراهن تجلس الآن أمامى .

وقد عمل فى إحدى الدول العربية منذ خمسة عشر عاما فصاحبته إليها لعدة سنوات ثم ضاقت بالاغتراب والابتعاد عن أهلها ومجتمعها فطلبت أن تعود إلى مصر ورغم حاجته الشديدة إليها بجانبه فقد وافق

بلا معارضة ، وأصبح يعيش معظم شهور العام وحيدا فى مسكنه فى تلك الدولة العربية ، وأثث لها شقة فاخرة فى القاهرة ورضيت عن حياتها وزوجها الحريص دائما على إرضائها وعدم معارضتها فى شىء ، ورأت دائما أنها جديرة بذلك فهى جميلة بيضاء شقراء متسلطة لا تقبل المعارضة . . وإذا غضبت اكفهرت السماء وثارت البراكين . . وقد تعلم زوجها من تجاربه معها أن خير وسيلة للعيش معها فى سلام هى ألا يعارضها فى شىء ، فإذا أرادت العودة لمصر وتركه فى غربته فليكن لها ما أرادت ، وليحتمل هو الحياة وحيدا إلى أن تأتى شهور الصيف ، فتلحق به لبضعة أسابيع تمضى معظمها فى الأسواق والمحال التجارية لشراء ما تريد ، وبلا حساب أو فليعد هو إليها وإلى بناته وأهله فى أجازته السنوية القصيرة ، وإذا عاد كان لها كل ما تريده منه إذا أرادت السفر إلى أوروبا وكان هو يريد أن يقضى بعض الوقت مع أهله وإخوته . . فليتنازل الأهل عن حقهم فيه . . وليسافر معها إلى أى مكان ، وإذا جاء فى أجازة قصيرة فى الشتاء متعبا يريد أن يستريح فى شقته ويلتقط أنفاسه ورأت هى أن تسافر الأسرة إلى أسوان أو الغردقة نهض إلى حقائبه التى لم تفتح بعد . . واستجاب لرغباتها صامتا ، كل ما تريد . . كل ما تطلب بلا مناقشة . . ولا اعتراض ، فمطالبها ومطالب الفتيات المادية أوامر لا تحتمل النقاش وهو دائما الزوج المطيع المتودد . . الراضى بما تمنحه له من نفسها ومشاعرها وإن كان قليلا . ولقد تزوجت كبرى بناته فأدى واجبه الأبوى معها على خير ما يرام ولم يشك من إسراف زوجته أو مغالاتها فى كل شىء وتزوجت الوسطى بعدها بعام فكان الأب المثالى والزوج الذى

تفخر به زوجته فى مجتمعها وأمام أسرتها ، وبعد زواج ابنتيه رأى أنه قد أدى الجزء الأكبر من رسالته فى الحياة وضاق بحياة الوحدة لأكثر من عشر سنوات ، وتمنى أن تعود زوجته للإقامة الدائمة معه فى مقر عمله خاصة وأن البنت الصغرى مازالت فى بداية المرحلة الإعدادية، وأبلغ زوجته أمنيته أو رجاءه فلم تستجب له ، فعرض عليها ان ينهى عمله فى الخارج ويعود للحياة معها ويجتمع الشمل فى بلدهما مرة أخرى فثارت عليه ثورة هائلة . . ولامته على تفكيره فى ذلك وابنته الصغرى مازال المشوار طويلا أمامها . . ولم ينجح فى إقناعها بأن مدخراته تكفى لهذا الغرض ولتحقيق الحياة الكريمة لهم فى مجتمعه إلى جانب أنه سوف يعمل فى بلده وسوف يكسب الكثير بخبرته الطويلة ، فتحطمت رغبته أمام صخرة عنادها وإصرارها . . وغضبها المزلزل . . واستسلم لأقداره وعاد حزينا وحيدا إلى مقر عمله وهدأت العاصفة وعاد للحياة سكونها من جديد .

وتوقفت محدثتى عن الكلام لحظة فتعجلتها متسائلا : ثم ؟ فانكسرت نظراتها الواثقة قليلا وقالت : ثم فى السنوات الثلاث الأخيرة عينت فى المستشفى الذى يعمل به ممرضة فلبينية سمراء دميمة نحيفة كأنها عود أجرد وخصصت لمساعدته فى إجراء العمليات الجراحية . . فتفانت فى خدمته وتعرفت عليها فأثارت إشفاقى بظروفها العائلية السيئة وبانكسارها الدائم، فهى من أسرة شديدة التواضع وكل شقيقاتها يعملن خادمات فى الدول العربية فدعوتها إلى البيت خلال وجودى مع زوجى فى مقر عمله ، وأصبحت فردا من الأسرة وكسبت محبتى

باستعدادها الدائم للقيام بأعمال البيت نيابة عنى ، وكانت تعود من المستشفى إلى بيتى وتقوم بأعمال النظافة والطهى وتساعدنى فى ارتداء ملابسى وكيها وتبدى إعجابها بجمالى ولون بشرتى البيضاء وشعرى الأصفر وثقافتى وتعليمى العالى، وتقول لى دائما إنى جديرة بحب زوجى لأنى سيدة يفخر بها أى زوج . . وأحببتها لذلك ودعوتها لقضاء أجازتها معنا فى مصر واصطحبتها على نفقتى إلى القاهرة فكانت تخجل من الذهاب معنا إلى النادى وتفضل القيام بأعمال خدمة البيت وتشعرنى دائما أنها أقل منى قدرا ،ولا يمكن أن ترقى لمستوى صداقتى ، وانتهت أجازتها وعادت إلى مقر عملها وبعد شهور قدمت استقالتها وعادت إلى بلادها !

فسألت محدثتى : وبعد !

فقالت : وبعد ذلك جاء الطوفان بلا نذير . . فلقد تغير زوجى فجأة من النقيض إلى النقيض وأصبح يضيق بطلباتى ويناقش ويعترض ويقبل ويرفض فخاصمته وهجرته فلم يحاول مصالحتى او استرضائى كما كان يفعل من قبل، وطال خصامنالأول مرة لعدة أسابيع وتوقفت الاتصالات التليفونية اليومية بينى وبينه . . ثم اكتشفت أنه غير موجود فى مقر عمله واتصلت بالمستشفى تليفونيا فعلمت أنه فى أجازة يقضيها فى الخارج ، وتعجبت من أنه لم يأت إلى مصر ليرانى ويرى بناته ويصالحنى كالعادة وانتظرت عودته وأنا أحترق وظللت كل يوم أتصل بشقته الخالية تليفونيا فيظل رنين التليفون متصلا لعدة دقائق بلا مجيب

حتى فكرت فى السفر إلى هناك للبحث عنه ثم طلبته تليفونيا ذات صباح فإذا به يجيب وسألته بلهفة أين كان ولماذا اختفى هذه الفترة دون أن يبلغنا بمكانه فهل تعرف بماذا أجاب على تساؤلاتى الحائرة ؟

لقد أجابنى فى هدوء قاتل بأنه كان فى الفلبين يطلب يد ممرضته السابقة من أهلها رسميا وأنه تزوجها هناك فى القنصلية المصرية وعاد بها زوجة له وأنها تقيم معه الآن فى شقتى التى أثثتها هناك بذوقى واخترت ألوان ستائرها وديكوراتها ! فهل يصدق أحد ذلك ؟

لقد تزوج الطبيب الكبير ابن الأسرة الكبيرة ووالد الفتيات الثلاث وصهر المهندس الشاب ابن الأسرة العريقة والمحاسب الشاب نجل مساعد الوزير الخطير من ممرضة فلبينية جاهلة دميمة نحيفة عجفاء من أسرة متواضعة فقيرة ويرفض أن يطلقها ويرفض أن يعود إلى نفسه وبيته ومستواه ، واستولت عليه هذه الخادمة الفلبينية بانكسارها ونعومتها وتجفيفها لعرقه وتدليكها لأكتافه وهو يجرى العمليات وتنظيفها لحذائه وكيها لملابسه وتظاهرها بالاهتمام بصحته كما كانت تفعل أمامى وكنت أفسره فى حينه بأنه من طبيعة « الخادمات » التى تربت عليها . . لكنى لم أكن أعرف أنه سلاح له هذا الخطر الكبير . . فكيف تفسر هذا التحول العجيب ؟

فبادرتها أنا بسؤال : بل وكيف تفسرينه أنت أولا ؟

فقالت باندفاع : لا تفسير له عندى إلا بأنه قد وقع تحت تأثير السحر الأسود المنتشر بكثرة فى الفلبين . . فلقد كانت تحرص أن تصنع

له كوب الشاى بنفسها . . وتقدمه له أمامى . . وتحرص على أن تضع طبقه على المائدة، ولابد أنها دست له شيئا فى طعامه أو شرابه فسلبت إرادته واستسلم لها وتزوجها . . لقد فتشت بيتى فى القاهرة بعد أن علمت بزواجه منها فوجدت بضع أوراق مخبأة فى ثنايا مقاعد الصالون تحمل حروفا ورموزا غامضة . . لقد سحرته . . ولابد أن تكتب محذرا الزوجات من هذا السحر الفلبينى الأسود . . ففى مصر ما لا يقل عن ثلاثين ألف خادمة فلبينية على الأقل وفى الدول العربية مئات الألوف منهن . . والسحر الأسود معروف ومنتشر فى الفلبين ولابد أن تحترس الزوجات منه وإلا تكررت الكوارث وتعددت ! فسألتها : وماذا فعلت حين عرفت بزواجه ؟ فأجابت بكبرياء : ثرت عليه ثورة هائلة وطلبت الطلاق فرفض فرفعت عليه دعوى للطلاق ودعوى للحصول على نفقة العام الأخير الذى شغل عنا فيه بزوجته الخادمة الفلبينية . . ودعوى للحصول على نفقة لائقة لابنته ومازالت القضايا منظورة أمام المحاكم . . لكن ليس هذا هو المهم . .

الأهم ما هو رأيك فى السحر الفلبينى ؟ فكرت قليلا فى سؤالها ووجدت نفسى أمام الخيار الصعب الذى أواجهه دائما كلما استشارنى أحد بين أن أقول له ما أراه الرأى الصحيح فى مشكلته حتى ولو أغضبه وبين أن أراعى ظروفه النفسية وأحاول إرضاءه ليغادرنى وقد تخفف من بعض همومه ، والحق أنى منذ أن اخترت طريق التعامل مع هموم البشر قد عاهدت نفسى على ألا أخدع أحدا يطلب مشورتى ، وبغض النظر عن رضائه أو عدم رضائه عن رأيى فى مشكلته ، ذلك أننى أعتبر الرأى

أمانة أسأل عنها أمام خالقى وليس أمام من يطلبه منى ، لهذا فإنى أختار دائما طريق مصارحة صاحب المشكلة برأيى معتذرا له فى البداية عن أى اختلاف معه وغاية ما أبذله فى هذا الصدد من جهد هو أنى أضع دائما فى اعتبارى الظروف النفسية التى يعانيها المهموم بأمره فأحاول قدر الإمكان التخفيف من وقع كلماتى عليه . . وكان هذا أيضا هو اختيارى مع هذه السيدة فأجبتها فى هدوء : الحق أنى لا أستطيع أن أحكم على مالا علم لى به ولست أستطيع أن أعفى زوجك من اللوم والمسئولية عن هذا الانتحار الأدبى والاجتماعى الذى ارتكبه فى حق نفسه بزواجه بمن لا يليق به الارتباط بها وبانصرافه عن أسرته وإهماله لشئونها ولكن :

فسألتنى بلهفة . . ولكن ماذا ؟

فقلت بعد تردد : ولكن السحر الأسود الذى تتحدثين عنه قد يكون بريئا من المسئولية عن ارتكاب زوجك لهذه الحماقة لأن هناك سحرا أشد سوادا منتشر أيضا فى بعض بيوتنا وتأثيره أخطر فى هدم العلاقات الزوجية المستقرة وتشريد الأبناء هو سحر النكد الأسود وسحر التسلط والأنانية وقهر شركاء الحياة وفرض رغباتنا عليهم دون اعتبار لما يريدون أو يحبون .

لقد غابت عنك أشياء كثيرة يا سيدتى خلال حياتك الزوجية كما أنك أسأت فهم صمت الزوج وخضوعه لكل رغباتك وخنوعه لك ففسرتيه أنه رضاء بالأمر الواقع وسعادة به ، ولم يدر بخلدك لحظة أنه قد يكون صبرا على المكروه واحتمالا للحياة حرصا على مصلحة الأبناء

وانتظارا للوقت الملائم الذى يتحرر فيه الزوج من معظم مسئوليات الأبناء فيعلن التمرد ، والعصيان .

إنك تعترفين بأن علاقتك به كانت علاقة إملاء للرغبات وفرض للإرادة من جانبك و إذعان وتصبر وتقبل لكل شىء من جانبه . . ولقد رفضت الإقامة معه فى مقر عمله حيث يحتاج إلى قربك وتتزايد حاجته لك مع تقدم العمر ، ورفضت عودته لبلاده واجتماع شملكما فيها وأجبرتيه على الاستمرار فى العمل بالخارج والاغتراب ليوفر لك مطالب الحياة ومستوى المعيشة الذى ترينه ملائما لك ، وطوال رحلة حياتك معه كان المطلوب منه إرضاءك أولا والسهر على راحتك دائما بغض النظر عما يرضيه هو أو يسعده ، ثم وضعت تصاريف الحياة فى طريقه فتاة جعلت مهمتها الاولى إرضاءه هو والسهر على راحته وتجفيف عرقه وتدليك أكتافه والتخفيف عنه وغير ذلك من الأمور التى تعتبرينها أنت من «شئون الخدم » ! وهى ليست كذلك لأنها خيوط رقيقة تجتمع وتتكثف وتوثق روابط الزوجين وتشعر كلا منهما باهتمام الآخر به وبحاجته إليه ، وقد تجمعت هذه الخيوط الرقيقة تحت أنظارك وأنت غير عابئة بها وتحولت إلى حبال متينة تشده إليها فأصبحت الفلبينية الجاهلة الدميمة الصاعدة من قاع المجتمع فى نظره أجمل الجميلات وأفضل الزوجات . . وسقط فى بئر ضعف الإنسان المحروم من التعاطف والمشاركة تجاه من يلمس هذا الوتر الحساس فى نفسه ويعوض حرمانه . . وهكذا أقدم الزوج الصامت على ما لا يتوقعه منه أحد وتزوج منها .

إننى لاأدافع عن تصرفه ولابد أن ينقذ نفسه من هذه الهاوية قبل أن ينجب من زوجته الجديدة وتزداد الأمور تشابكا وتعقيدا لكنى فقط أفسر لك هذا التصرف بأسباب أقرب إلى العقل والواقع من حكاية السحر الأسود التى يصعب التحقق من صحتها فراجعى علاقتك به يا سيدتى وسوف تكتشفين سر الكارثة فيها وليس فى هذا السحر . . وحاولى استعادته و إصلاح الأخطاء بعيدا عن ساحات المحاكم والعناد والكبرياء الذى لا معنى له .

فازدادت محدثتى اكتئابا وهمت بالنهوض وهى تسألنى :

إذن فلن تكتب محذرا من السحر الفلبينى الأسود ؟ فأجبتها مشفقا : بل سأكتب وسأكتب ولكن ليس محذرا من السحر الفلبينى الذى لا أعرف عنه شيئا . . ولكن من السحر الأسود الآخر الذى يعشش فى بيوتنا ويقتل الحب بين الأزواج والزوجات ويهدم البيوت الآمنة . . سحر النكد والتسلط والأنانية والفراق الطويل وغياب الحب والحنان والتعاطف وقهر إرادة شريك الحياة ، وهو سحر يمارسه بعض الأزواج وبعض الزوجات ويحقق نتائج قاتلة فى هدم العلاقات الزوجية . . وبعد أن يتهدم المعبد فوق الرءوس يتساءل الضحايا والجناة فى نفس الوقت عن أسباب ما جرى ويحاولون التماسها فى عوامل خارجية وأوهام بعيدة تماما عن الواقع والحقيقة .

ونهضت أصافحها فصافحتنى بارتباك وخجل . . وصافحتنى ابنتها وهى تبتسم ابتسامة ذات معنى كأنما تقول لى بغير كلام : إنى قد عبرت

عما يمنعها الحياء والحرص على مشاعر أمها من مصارحتها به بلا مواربة .

وتفكرت طويلا فى مغزى ابتسامة ابنتها ونظرتها المعبرة وتعلق أملى على دورها الهام فى إصلاح الأمور بين الأبوين . . وفى تغيير نظرة أمها لما جرى - عسى أن تستطيع تدارك ما غاب عنها قبل أن يفوت الأوان إلى الأبد ! . .



في بريدى نوع من الرسائل أتوقف دائما أمامه مشفقا ومتأملا . إنها رسائل الأزواج الذين بلغوا سن الستين أو تجاوزوها ، وأحيلوا للمعاش ، وخلا عليهم وعلى زوجاتهم البيت بعد زواج الأبناء وانصرافهم إلى حياتهم ، فإذا بجدار من الصمت ينزل بين الزوجين ، وإذا بالحياة بينهما تتحول إلى تجاور فى المكان وغربة فى الروح والقلب! وفى كل تلك الرسائل كان من يشكون من هذه المشكلة أزواج يصورون حياتهم فى سن المعاش أو على حافتها . . ويشكون من أن زوجاتهم قد هجرنهم هجرة داخلية إلى غرفة أخرى . . وإنه لم يعد يجمع بينهم وبين رفيقات العمر حديث يخفف من وحشة الفراغ . . ولا تعاطف يحقق الائتناس ولا صحبة هادئة تبعث الأمان فى النفس .

وكان من بين تلك الرسائل . . رسالة نشرتها بعنوان « صيغة الغائب » . . روى لى فيها قارىء تجاوز الستين أن زوجته تقاطعه تماما منذ ٦ سنوات ولا تتبادل معه كلمة واحدة منذ خلا عليهما بيت الزوجية بعد زواج الأبناء . حتى أنها لا تناديه باسمه أبدا . . وإنما تضع له الطعام على المائدة وتدعوه إليه بغمغمة غامضة ، ولا تؤاكله ولا تشاربه القهوة والشاى ، ولا تنطق باسمه فى حضوره أو فى غيابه . . فإن اضطرت للإشارة إليه فى حديث ضرورى تحدثت عنه بصيغة الغائب وهو «حاضر» أمامها فتقول « هو » فعل كذا أو « هو » عليه أن يفعل كذا . . أما صيغة المخاطب « كأنت وأنتم » فلم تعد تتردد على لسانها رغم محاولاته للتودد إليها وبعث الدفء فى حياتهما الباردة .

ونشرت الرسالة وعلقت عليها بما علقت على مثيلاتها من أن مأساة بعض الأسر الشرقية بصفة عامة هى أن أحد الطرفين قد يختزن خلال علاقته الطويلة بالطرف الآخر ذكريات مريرة عنه وتحفظات عديدة عليه ، حتى إذا تزوج الأبناء وانتهت المسئوليات العائلية التى اقتضت تجاوزه عن بعض آلامه لكى تظل سفينة الحياة طافية ، أحس فجأة بأنه لم يعد مطالبا ببذل أى جهد لتعويم السفينة . . وانطوى على مراراته تجاه الطرف الآخر ، وزهد قربه وكلامه ، وفقد القدرة على مشاركته اهتمامات الحياة اليومية . ولأن المرأة فى مجتمعاتنا الشرقية قد تكون فى كثير من الأحيان هى الطرف « الكظيم » فى معظم سنوات الرحلة . . فإنها بعد زواج الأبناء وانفرادها بنفسها فى بيت الزوجية قد تستسلم لمراراتها القديمة وتعزف عن أى رغبة فى التواصل مع رفيق الرحلة المريرة . . ولولا الخوف

من عدم إحراج الأبناء والبنات المتزوجات لهجرته نهائيا . ودعوت فى تعليقى على رسالة « صيغة الغائب » وعلى مثيلاتها من الرسائل ، الأزواج والزوجات إلى عدم اختزان المرارة فى سنوات الزواج الأولى حتى لا « تطفح » على حياتهم فى سن الهدوء وحشة ووحدة وغربة نفسية .

ودعوت كل الأزواج والزوجات إلى أن يبذروا بذور العطف والحب والمشاركة بينهم فى سنوات الرحلة المبكرة لكى تؤتى ثمارها فى سن الجلال والاحترام إيناسا وتعاطفا متبادلا . ولاحظت كما لاحظ غيرى أن كثيرين منا يعيشون سنوات الشيخوخة فى شقاق زوجى ومعاناة يضاعفان من محنة الطرفين وإحساسهما المرير بانتهاء الدور واقتراب الختام ، فى حين تتركز أحلام الزوجين المحبين فى الغرب فى أن يتمكن الزوج من أن يستقيل من عمله قبل سن المعاش بعام أو عامين لكى يستمتع بالحياة مع زوجته بعد انتهاء المسئوليات العائلية ، ولكى ينفذا « برامجهما » التى حالت هذه المسئوليات دون تنفيذها فى بداية الحياة الزوجية . . فيسافرا فى رحلات خارجية حول العالم . . أو يهجرا المدينة إلى منزل صغير جميل فى الريف عاشا يحلمان بامتلاكه طوال سنوات الكفاح . . ويتحررا من قيود العمل فيذهبا معا إلى المسرح والسينما وحفلات الزواج والمناسبات المختلفة . لهذا نراهم فى شيخوختهم أصحاء متدفقين بالحيوية والإقبال على الحياة وتجرى فى عروقهم دماء الحب والعطف والرغبة فى الحياة . . ونرى الأزواج والزوجات عندنا فى شيخوختهم غالبا متهدمين ممرورين يفتقدون دفء المشاركة .

ونرى رجالهم ونساءهم فى سن الاحترام ، وأيديهم فى أيدى رفيقات الحياة وأذرعهم فى أذرعهن . . فى المسارح . . والحدائق والبواخر والطائرات .

ونرى رجالنا ونساءنا فى نفس السن يعيش كل طرف منهم وراء جدار الصمت والوحدة ويعانون من الأمراض النفسية الجسمية . . ويشكون من الاكتئاب ! .

وحين نشرت رسالة صيغة الغائب تلقيت رسائل كثيرة من أزواج وزوجات يعلقون على الظاهرة ويحللون أسبابها ويحذرون منها .

لكنى توقفت طويلا أمام رسالة منها لزوجة فى منتصف العمر تحكى قصتها مع ما تعتبره حالة مشابهة لحالة صيغة الغائب واستوقفنى فى رسالتها صدق مشاعر كاتبتها وإن بالغت فى تصوير أزمتها .

ولأننى أقول دائما إنه ليس أصدق ممن يروى عن مشاعره ونفسه بأمانة، فلقد اعتبرت هذه الرسالة نموذجا صادقا لمشاعر واحتياجات المرأة فى أزمة منتصف العمر أو مرحلة السن الحرجة وأرى من المفيد أن نقرأها معا :

قرأت رسالة « صيغة الغائب » فى بريد الجمعة . . فشعرت بقلبى يغوص فى أعماقى وأحسست بيد من حديد تضغط على عنقى ، وروحى تنسحب رويدا منى لأننى أيضا أشعر أننى أنزلق إلى هذه الهاوية ! لقد قرأت ردك عليها وأعجبنى كل ما جاء فيه ، ولكن لى رأى بصفتى الطرف الآخر « المرأة » التى لم يسبق أن أتيحت لها فرصة إبداء وجهة نظرها فى

مثل هذه الرسائل . . لقد قرأت لك أكثر من مرة تعليقات تستشهد فيها بالحديث النبوى الشريف الذى يطالب المرأة بألا ترفض رغبة زوجها فيها ولو كانت على « ظهر جمل » . . ودائما أسأل نفسى هل هذا هو الحديث الشريف الوحيد الخاص بالعلاقة الزوجية ؟ لماذا يتناسى الرجال أحاديث الرسول الأخرى التى يقول فيها « استوصوا بالنساء خيرا » و «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » و « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » . . إن هذه هى أحاديث رسولنا الكريم . . وهذا هو ديننا الحنيف ، فإذا أضفنا إلى ذلك نقطة أخرى وهى أن الرجل عندما تمتنع عليه زوجته فإنه يمكنه أن يشكوها لأهلها . . أو يطلقها أو يتزوج عليهالأصبح من حقى أن أتساءل ماذا تفعل المرأة إذا وجدت نفسها فى نفس الموقف ؟

هل رأيت أو سمعت عن امرأة شكت لأبيها أو أخيها من أن زوجها يمتنع عليها ؟

وهل يليق بالمرأة المحترمة أن تشكو زوجها فى هذه النقطة بالذات ؟ وهل يمكنها أن تطلقه بغير أن تعرض نفسها لهتك أسرار حياتها الخاصة؟

إننى أبدأ فى الرد على صاحب الرسالة بأن أحكى له عن نفس الحالة التى يعانى منها هو وأعانى منها أنا الآن وهى حالة الغربة وافتقاد الرفيق الذى يعيش ويتحرك ويتنفس بالقرب منى .

فأنا زوجة تخطيت الأربعين منذ سنوات قليلة وقد تزوجت منذ ربع

قرن وكنت وزوجى زوجين صديقين حميمين وعاشقين . . ورزقنا الله البنين والبنات وعشنا فى سعادة لأكثر من عشرين عاما حتى صار حبنا مضرب الأمثال فى أسرتينا . . وكان زوجى يتيه بى فخرا ، وكنت أكن له من الحب والاحترام والمودة ما يعجز قلمى ولسانى عن وصفه . ومنذ أول يوم من خطبتنا اسمعنى أحلى الكلام وعندما ضمنا عش الزوجية كانت له لمسات ولفتات لا تصورها ألف قصة وقصة .

فقد تعود أن يوقظنى فى الصباح الباكر بلمسة حلوة من يديه يداعب بها أذنى ووجهى ، فإذا رفضت الاستيقاظ لأننى كنت ساهرة طوال الليل بطفلى الرضيع مثلا وعاتبته فى ذلك قال لى : أعمل إيه بتوحشينى . . لا أستطيع أن أصحو من نومى ولا أجدك بقربى فى البيت . لذلك فمهما كنت متعبة وفى مسيس الحاجة للنوم كنت أستيقظ باسمة سعيدة . . وكيف أرفض أن أستيقظ للحب ولشوق حبيبى إلىّ ؟ . . كان الصباح يبدأ هكذا بالسعادة والانشراح . . ثم نظل نتحدث فى أى شىء وكل شىء حتى السابعة والنصف فأذهب للمطبخ لأعد الإفطار ويذهب هو للحمام ليحلق ذقنه فلا يطيق بعدى عنه دقائق ، وأفاجأ به يقبلنى وصابون الحلاقة على وجهه فينطبع الصابون على وجهى ونضحك فى سعادة ونظل نتبادل المداعبات حتى يخرج إلى عمله وأنصرف أنا إلى واجباتى اليومية .

ثم يعود من عمله مرهقا وأكون مرهقة مثله من ضجيج الأولاد طول النهار فما إن تجمعنا جدران غرفتنا حتى يحكى كل منا للآخر ما صادفه فى يومه ، ويحدثنى ووجهه كله لى وذراعاه فى معظم الأحيان تحيطان بى

. . ونذهب فى غفوة الظهيرة ونحن على هذه الحال . . ومضت بنا سنوات العمر هكذا . . وما أكثر ما قابلتنا المشاكل . . والأزمات المادية والمتاعب الصحية كأى بشر فى الحياة لكنها أبدا أبدا لم تغير شيئا منا . كنا أحيانا نتخاصم كأى زوجين ، لكن كنا لا نبيت الليل أبدا متغاضبين، فقد كان يكفى أن أضع ذراعى حوله أو يفعل هو ذلك ونحن نائمان أو نتظاهر بالنوم حتى يلتفت له رفيقه فى حنان ويضمه إليه، ويذوب الخصام ويتبخر الغضب كأنه ما كان. هكذا عشنا طوال سنوات حياتنا معا وفجأة منذ حوالى عامين تغير زوجى بشكل لافت للنظر فأصبح يدخل سريره وظهره لى . . وينام وظهره لى . . وفى معظم الأحيان دون أى كلمة . جف نبع الكلام واللفتات واللمسات الرقيقة وأصبحت تفوته أشياء كثيرة لم يعد يعيرها أى اهتمام كعيد ميلادى أو عيد زواجنا أو أى مناسبة سارة لنا ، فلا تهنئة ولا احتفال ولا هدية . وأصبح لا يلتفت لأى فستان جديد أرتديه . . فلا مجاملة . . ولا إطراء ولا أى شىء . ونسى زوجى أو تناسى أن أمامه أنثى تحبه وتحتاج إلى حنانه ولم أعد أنال منه أى التفاتة إلا اذا أراد هو !

أما أنا ورغباتى ومشاعرى التى كان يراعيها ويحترمها فقد أصبح يهزأ بها ويسخر منها . وإذا عاتبته لجفائه نفى ذلك وقال لى : إننى أتصور أشياء غير حقيقية ثم يستمر فى نفوره وتباعده . . ومن حين لآخر قد يُسمعنى كلمة جارحة يدمى لها قلبى وروحى . . وأبكى وأحزن فلا يعتذر ولا يسأل كما كان يفعل ، وأخاصمه فلا يأبه لى ثم أعاتبه عن كل ذلك فيدعى أنه كان يداعبنى وأسامحه ويعود الحال كما كان وتمضى أيام

قليلة ثم يعود متباعدا و إن طلبت منه شيئا أحتاج له طالبنى بالصبر إلى أن تأتيه نقود ، وعندما تأتى يبدأ فى الصرف فى كل اتجاه وينسى تماما ما طلبته منه وأخجل أن أذكره به . أما يومنا الذى وصفته لك فى البداية فقد أصبح هكذا : فى الصباح الباكر نستيقظ لنصلى كل منا وحده طبعا وبعد أن كانت غرفة نومنا لنا نحن الاثنين فقط عندما كنا زوجين عاشقين أشرك الآن معى فى غرفتنا بل فى فراشنا ألف عين وعين . . الراديو والتليفزيون وعشرات الكتب والمجلات والجرائد . . يفتح الراديو فيعطيه أذنه ويفتح الشباك ويعطيه عينه . . ويعطينى أنا ظهره! . ماذا فى الشارع سوى آثار المطر فماذا يشد انتباهه إليه ولم يمش أحد بعد فيه ونحن مازلنا فى السادسة صباحا . . أرقبه وهو جالس متغافل عنى مشغول بالنظر عبر النافذة إلى لا شىء ، وأكاد أنفجر من الغيظ وأكاد أصرخ فيه وأهبشه بأظافرى ليتنبه لى ويحس بوجودى بجواره. ثم نفطر وهو صامت وأنا صامتة مثله ويذهب لعمله ويعود فى الظهر حاملا كل جرائد ومجلات الدنيا ليفردها على السرير ويقرأ هذه ويتصفح تلك ثم يتثاءب ويعطينى ظهره وينام ، ويصحو بعد الظهر على التليفزيون يجلس صامتا أمامه مستغرقا فى متابعته من أخبار السادسة للتمثيلية لفيلم السهرة . . وينسى أو يتناسى أن بجواره امرأة مهملة ، فى قلبها آهة بل ألف آهه وآهة . . أما فى بيته فلم أعد سيدة وربة بيت بل خادمة نعم خادمة تعمل بلقمتها ، فلا حب ولا اهتمام ولا رعاية ولا هدايا فى المناسبات ولا دعوة للخروج معه ولا أى شىء والدنيا كما تعلم أخذ وعطاء وكلمة « أخذ » تأتى قبل كلمة العطاء . . فإذا كنت لا آخذ إلا

إهمالا وجفاء فما هو المطلوب أو المفروض أن أعطيه؟ . . أيام وليال كثيرة قضيتها ساهرة ودموعى تؤنسنى . . وكم من مرة بكيت فيها وقلت له إننى أشتاق إليه وإنى أحن لحنانه ومداعباته وكلماته الرقيقة وخاصة فى هذه الفترة من عمرى فترة سن اليأس لأن تغيره بدأ معها . ومع أننا توقفنا بإرادتنا عن الإنجاب منذ أكثر من ١٠ سنوات إلا أنه يعايرنى بأنى أصبحت عاقراً . . أضنانى السهر وأتعبنى انتظار ما لا يجىء ، آثرت أن أنام فى حجرة أخرى ولو لبعض الوقت إذ ما الداعى لمشاركته الفراش وهو لا يعطينى من روحه وحبه واهتمامه . . وتوقعت أن ينزعج لابتعادى عنه فلم يهتم ولم يسأل وكأنما استراح إلى ذلك . فتوقفت عن سؤاله عن سبب تغيره بعد أن لمهرنى أكثر من مرة أو سخر منى مدعياً أننى مازلت مراهقة ، وأطارده بعواطفى ! لا يا سيدى لست أنا التى تطاردك بعواطفها فلتبق فى أعمق أعماقى واهنأ أنت بالهدوء مع جرائدك وكتبك وصوت مذياعك الذى يقطر ملالة وسأماً ، ولكن عندما يأتيك الخريف الذى زارنى مبكرا عنك . . عندما تحال للمعاش سوف تبحث أنت أيضا عمن تملأ فراغ حياتك وتؤنس وحدة فراشك تماما كما فعل هذا الذى أرسل لبريد الجمعة ليشكو امرأته له .

إننى أقول لزوجى ولكل زوج : يا سيدى الرجل . . هذه صرخة كل امرأة هذه رسالة لكل الأزواج . . أنت الذى تبدأ . . أنت الذى تزرع . . ولن تجنى سوى ما تزرعه . . إزرع حبا تجن حبا وحنانا وسعادة فى ضعفك وشيخوختك . . اهمل اقس تجافى ولن تنال فى النهاية سوى هذا .

يا أيها الرجل ليست هناك امرأة ترضى بأن تكون مهجورة لأن المرأة التى تعودت أن تتلقى الحب والحنان والأمومة والرقة ، لا ترضى أبدا أن تهجر حبها بعد كل هذا العمر . . فإن فعلت ذلك فإنها تفعله تحت ضغط الهوان الذى تشعر به من إهمال زوجها لها وفتوره ونفوره منها . . وفى هذه الحالة تختار المرأة أن تهجر هى بارادتها لأن فى ذلك بعض العزاء لكرامتها وأنوثتها . . نعم أنوثتها حتى ولو كانت فى خريف العمر . . فابحث أيها الرجل تحت الرماد لعلك تجد الجذوة ما زالت مشتعلة ، وتستطيع أن توقظها مرة أخرى قبل أن تخمد للأبد . . ابدأ فاهتم بزوجتك داعبها بكلمة حلوة . . اطبع على خدها قبلة مبللة بصابون الحلاقة . . تضاحك معها . . أهدها هدية جميلة كقطعة ملابس بلونها المفضل أو زجاجة عطر . . أو حتى كلمة حب فقط . . قلها لها أيها الرجل قبل فوات الأوان . وحتى لا تكون يوما « غائبا » فى وجدان زوجتك اعمل من الآن على أن تكون « الحاضر » دائما فى أحاديثها وفى قلبها وعقلها » .

هذه هى الرسالة . . وتعليقى عليها هو أننا نحتاج لأن نفهم طبيعة كل مرحلة من مراحل العمر لكى نتواءم معها ، ولا شك أن قراءة الرسالة تكشف أنه ليست هناك مشكلة حقيقية تواجه الزوجين ، سوى جهل الزوج بطبيعة المرأة فى مرحلة السن الحرجة التى تحتاج فيها إلى زيادة التعاطف معها وإشعارها أكثر من أى وقت مضى فى عمرها بأنها مازالت فتاة القلب ، كما أن الزوجة أيضا تجهل وبنفس الدرجة أن الرجل فى نفس المرحلة يحتاج لمن يهتم به بنفس القدر ولمن يصبر عليه ويتجاوز

عن بعض لمحات الفتور التى قد تغلب عليه ، إلى أن يستعيد نفسه ويعبر هذه المرحلة . . كذلك ينبغى أن تدرك المرأة أن لكل سن جمالها . . ولكل مرحلة من العمر ما يتناسب معها من طرق التعبير عن المشاعر . . وليس من العدل أن تطالب الزوجة زوجها بأن يظل متأججا بالحب فى كل لحظة وكل دقيقة مهما كانت مشاغله ومتاعب حياته ووساوس أفكاره التى تراوده فى هذه السن بكثرة وتشعره ببعض الأسى على انقضاء العمر واختفاء رفاق الحياة واحدا وراء الآخر .

إنها أزمة فهم . . وليست أزمة حب ، وأزمة رفض للمرونة والمواءمة مع تغيرات العمر لأن الزوجة تجمدت عند مرحلة واحدة من العمر كان الحب خلالها يعبر عن نفسه باللمسات والمداعبات والقبلات المختلطة بصابون الحلاقة . . ومازالت ترفض وتقاوم أن تنتقل إلى المرحلة الأخرى التى يصبح فيها مجرد تواجد الرفيقين فى « الجوار » وبالقرب من الآخر يشيع الاطمئنان فى النفس ويغذى الروح والقلب ويشعرهما بالإيناس والأمان . إن ذلك لا ينفى أبدا ضرورة الاهتمام باللفتات الصغيرة التى تشعر الطرف الآخر بأنه « مركز الدائرة » وأول قائمة اهتماماته وقطب الرحى الذى تدور به حياة شريكه . والزوج مطالب فى ذلك بإشعار زوجته بكل اللفتات الممكنة أنه مازال على الحب مقيما . والزوجة مطالبة بعدم المغالاة فى مطالبها إلى حد استشعار الغيرة من الراديو والتليفزيون والمجلات ونافذة الصباح لأن المغالاة فى الطلب تثير الأسى فى نفس الطالب حين يتلقى غالبا أقل مما يطلب . . وتثير الضجر فى نفس المطلوب منه حين لا يجد نفسه قادرا على تلبية كل المطالب . وبالفهم والصبر والإرادة والرغبة الدائمة فى تجديد الحياة . . تحل المشاكل !

٩

لحظات انكسار !

يؤلمنى انكسار الإنسان وإحساسه المرير بالهوان الذى يدهمه فجأة فى بعض مواقف الحياة ، فيرى نفسه فيها وحيداً . . عاجزاً . . قليل الشأن . . ولأن الإنسان هو أكرم الكائنات على ربه .·. وقد نفخ فيه الله سبحانه وتعالى من روحه واستخلفه فى أرضه ، فلقد أراد له أن يعيش معززاً مكرماً شاعراً بكرامته الإنسانية مهما كان حظه من الثراء أو الأهمية أو الوجاهة الاجتماعية ، لأنه قد استحق هذه « الكرامة » بالميلاد كإنسان، وليس فقط بما يحققه فى حياته من نجاح أو ثراء أو سمعه طيبة . . وعوارض الدنيا إنما تزيد أو تنقص من جدارة الإنسان بالتكريم . . ويبقى له دائماً حد أدنى من الكرامة الإنسانية يستحقه ، وينبغى أن يتوفر له فى كل الظروف . . لأنه أولاً وأخيراً إنسان !

لكن بعض مواقف الحياة قد تسلب الإنسان هذا الإحساس الثمين بالكرامة والجدارة . . وتسلمه لإحساس مؤلم بالهوان والعجز وضآلة الشأن . .

وهذه لحظات انكسار إنسانية توقفت أمامها متأملاً ورثيت لأصحابها على البعد ، ولا أعرف لماذا أريد أن أحدثك عنها . . ربما لكى تعفى الآخرين من هذا الإحساس المرير بالهوان إذا أغرتك ظروفك ذات يوم بذلك . . وربما لكى تحس بقسوتها على الآخرين ، وتتعاطف معهم كما تعاطفت فتؤمن معى ومع الأديب السويسرى العظيم دورينمات أنه « يمكن حقا إنقاذ الإنسان من مخالب الإنسان » . . لو أتيح له فقط أن يعايش لحظات آلام الآخرين ، ويتمثل معاناتهم . . فيزداد رغبة فى أن يخفف عن الآخرين بعض آلامهم .

ولقد « جمعت » هذه اللحظات من قراءاتى لبعض الأعمال الأدبية «ومشاهداتى » لما يجرى من أمور الحياة الواقعية . . فوجدتها شيئا آخر غير لحظات القهر المؤلم الذى يكابده الإنسان فى مواجهته لسلطة عاتية أقوى منه . . لأنها لحظات انكسار إنسان أمام إنسان آخر مثله تداخلت ظروف مختلفة فأشعرته بالعجز والمهانة فى مواجهته .

* * *

فى قصة أمريكية حديثة

كان « فيتوريو » يحلم بأن يعمل ممثلاً مسرحياً فترك بلدته الصغيرة وسافر مع زوجته الشابة إلى المدينة يبحث عن مستقبله فيها وأقام فى غرفة

مفروشة . . وبحث عن فرصة عمل بأحد مسارح المدينة فلم يجد، واضطر للعمل كجارسون فى مطعم ، وواظب على تلقى دروس التمثيل والتردد على مكاتب الوكلاء الفنيين باحثاً عن دور صغير فى أية مسرحية ، وزوجته تشاركه حياته الجافة بدخله القليل . . وتنتظر بصبر أن يحقق نجاحه لكى يوفر لها حياة لائقة بها لكن الفشل يلازمه . . والسنوات تمر بلا أدنى بارقة أمل فى النجاح والأمان .

وتضيق الزوجة الشابة بحياتها الجافة الخالية من كل مباهج الدنيا وتطالب زوجها بالاعتراف بفشله والعودة معها إلى بلدتها الصغيرة ليعمل فى وظيفته السابقة ويوفر لها الحد الأدنى المقبول من الحياة . . والزوج لا يريد أن يتنازل عن أحلامه . . ويأمل أن ينجح حبهما فى الصمود لصعوبات الطريق . . ثم يعود ذات مساء بارد إلى غرفته فلا يجد زوجته فيها ولا يجد ملابسها . . وإنما يجد رسالة منها تبلغه فيها أنها لا تستطيع أن تتحمل المزيد وأنها قد عادت إلى بلدتها وتنتظر منه أن يبدأ إجراءات الطلاق . . وينهار الزوج باكياً وهو يمسك برسالتها وتسوَدّ الدنيا أمام عينيه . . لكنه رغم ذلك يعفى زوجته من اللوم ويسلم لها بأنها قد تحملت معه الحرمان طويلاً ويوافق على طلاقها متألما وشاعراً بالعجز والهوان ، ويواصل الحياة فى المدينة والسعى وراء هدفه الذى لا يحيد عنه . وتتجهم الدنيا فى وجهه أكثر فأكثر بعد هجر زوجته له وكلما لاح له أمل قريب فى أن يبدأ خطوته الأولى على الطريق يتبدد الأمل فجأة قبل أن يتحقق . . ومع ذلك فهو لا ييأس ولا يستسلم، وبعد ثلاث سنوات من هجر زوجته له كان فى المطعم يؤدى عمله ، وهمَّ بالخروج من المطبخ

حاملاً أطباق الطعام إلى أحد الزبائن فلمح على إحدى الموائد زوجته السابقة تجلس مع رجل متوسط العمر وهى ترتدى فستاناً جميلا . . وتضع جاكيت الفرو الثمين بجوارها على المقعد الخالى ، فتسمرت قدماه أمام المشهد . . وأحس بضربات قلبه تتسارع وقطرات العرق تنز من جبهته . . ولمحه زميل له وسأله عما به فأشار إلى ناحية المائدة وقال له : إنها زوجته السابقة التى طالما أحبها لكنها لم تحتمل جفاف الحياة معه وهجرته ، ويبدو أنها قد نعمت الآن بالحياة المريحة التى أرادتها مع هذا الزوج الجديد . . ونظر اليه زميله بإشفاق وعرض عليه أن يعفيه من خدمة مائدة زوجته السابقة التى تقع فى المربع المخصص له ، وأن يقوم بدلاً منه بخدمتها . . وتردد الزوج السابق لحظات ثم استجمع إرادته واعتذر لزميله شاكراً وقائلاً له إنه يفضل أن يواجه الموقف المحرج بدلاً من الهروب منه ، ثم سحب فوطته ووضعها على ذراعه الأيسر كما يفعل الجارسونات وتقدم من المائدة فى خجل وبادر من يجلسان إليها بالتحية المعتادة : مساء الخير يا سيدى . . مساء الخير يا سيدتى . . ماذا تطلبان ؟ .

لحظة الانكسار التى أحسستها فى موقف هذا الزوج السابق ليست فقط لحظة المواجهة المحرجة . . لكنها أيضا اللحظة التى أمسك فيها برسالة زوجته الهاجرة وراح يقرأها وسُحب الحزن والألم تتكثف داخله بلا رحمة . . وهي أيضاً اللحظة التى راح يرقب فيها زوجته السابقة وهى تجلس إلى المائدة مع رجل آخر حقق لها ما عجز هو عن أن يحققه لها من الأمان والحياة المقبولة والمظهر الكريم ، فراح يغالب إحساسه المؤلم

بالعجز والخجل وضآلة الشأن . . قبل أن يقرر مواجهة الموقف بواقعية بدلاً من الهروب منه .

❊ ❊ ❊

هو شاب

كتب لى يروى قصة حياته وكفاحه النبيل فى الحياة لكى يتعلم وسط صعوبات حياته العديدة التى اضطرته لكى يؤمن لنفسه لقمة العيش أن يشتغل فى بعض فترات حياته وهو طالب بالمدرسة الثانوية كبائع سمك جوال يتجول فى الشوارع فى الصباح الباكر منادياً على بضاعته الرخيصة من السمك ويبيعها لربات البيوت فيحقق ربحاً صغيراً ويعود إلى بيته فيحمل كتبه ويتوجه للمدرسة ، وظل على هذا الحال حتى نجح بتفوق فى الثانوية العامة والتحق بكلية الطب واكتشف أن ربحه الزهيد من بيع السمك لا يكفى لمتطلبات الدراسة الباهظة فعمل موزعاً لأنابيب البوتاجاز لدى صاحب توكيل أشفق على ظروفه فاستخدمه واستأمنه على عدد من الأنابيب يطوف بها الشوارع كل صباح ويصعد إلى الشقق ويحصل على رزقه البسيط فيخلع الأوفرول الأزرق الذى يرتديه فوق ملابسه ويتوجه إلى الكلية . . وفى الكلية تلحظ عليه طالبة زميلة له أنه مجهد دائما ومهموم بهموم غامضة فتقترب منه وتعجب بشخصيته الجادة الأمينة وبتفوقه الدراسى رغم ما يبدو عليه من تقشف واضح فى حياته ، ويتعاونان معاً فى الدراسة وتتحدث الفتاة الى أمها عن إعجابها بزميلها الجاد فى الكلية . . ثم يجىء يوم يطوف فيه الشاب بأنابيب البوتاجاز

بشوارع حى جديد لم يكن يدخله من قبل . . فيسمع نداء ربة بيت من إحدى العمارات ويصعد إليها فى الدور الثالث حاملاً الأنبوبة الجديدة وهو يرتدى « أوفرول » عمال التوزيع ويحييها بأدب ويدخل المطبخ ويفك الأنبوبة الفارغة ويركب الأنبوبة الجديدة . . ثم يخرج حاملاً الأنبوبة الفارغة على كتفه ويستدير ليحاسب ربة البيت عن أجره فيجد وراءها فتاته زميلة الكلية تنظر إليه فى دهشة وتلتقى عيناه بعينيها فى لحظة قاسية يشعر فيها بخجل مؤلم فيضطرب ويرتبك ويمد يداً مرتعشة ليتقاضى أجره ويهرول نازلاً الدرج وهو لا يشعر بما حوله ، فما أن يأمن عيون زميلته وأمها حتى تنفرط من عينيه دمعة ساخنة تلخص كل معاناته فى لحظة انكسار مؤلمة لإنسان لا ذنب له فى ظروفه القاسية .

أما لحظة الكرامة والانتصار فقد جاءت بعد ذلك بعدة سنوات فقد تمسكت به الفتاة رغم ظروفه فى البداية لكن أسرتها رفضت ارتباطها به بعد تخرجه بإصرار لعجز إمكاناته المادية . . وضعفت مقاومة الفتاة فاستسلمت وتزوجت رجلاً آخر يملك كل إمكانات الزواج وبحث الطبيب الشاب عن مستقبله فى مكان آخر غير المدينة القاسية فاستقر به المقام فى قرية صغيرة فى أقصى الجنوب افتتح لنفسه عيادة صغيرة فيها واتخذ منها عيادة ومسكناً . . عاش حياته راضياً بين أهل القرية حتى فوجىء ذات يوم وبعد ٦ سنوات من تخرجه بفتاته السابقة تقف أمامه فى العيادة وتسأله هى هذه المرة فى «انكسار » : هل ما زلت ترغبنى ؟ ويعرف أنها قد طلقت من الزوج الثرى بعد عامين من الزواج تحملت فيهما ما لا تطيقه وبعد مراجعة طويلة لحياتها ومشاعرها بحثت عن حبها



الوحيد الذى عرفت من أهله عنوانه الجديد وقررت أن تصحح خطأها القديم وترتبط بمن لم تحب غيره .

ولا تمضى الليلة إلا ويكون الطبيب الشاب قد عقد قرانه عليها وتتحول لحظة الانكسار القديمةإلى لحظة انتصار للحب . . والكرامة الإنسانية . . والشباب .

* * *

فى المقهى . .

وفى واقع الحياة الذى كنت شاهداً عليه بالصدفة منذ سنوات سمعت هذا الحوار يجرى بين شخصين فهمت من ملامحهما أنهما شقيقان ، وكنت قد لاحظت خلال تأملى لهما أن الأكبر منهما يرتدى بدلة جيدة من الصوف وقميصاً حريرياً وحذاء لامعاً جديداً ويضع فى إصبعه خاتماً ذهبياً فى حين يرتدى الأصغر بدلة قديمة . . وحذاؤه متهالك ويشى مظهره برقة الحال بالقياس إلى شقيقه . . ثم فجأة سمعت الأخ الأكبر يتحدث إلى شقيقه بلهجة لائمة وبصوت قوى .

الأخ الأكبر : قلت لى انتظر حتى بداية العام إلى أن أقبض « الحوافز» السنوية وأسدد لك الدين وها قد قارب شهر يناير على الانتهاء ولم تدفع شيئا فلماذا لم تسدد جزءا على الأقل من الدين ولماذا أخلفت وعدك معى؟

- الأخ الأصغر يجيب بصوت متلعثم مضطرب وخافت وهو حانى

الرأس ووجهه يتضرج الاحمرار : كنت سأفعل كما وعدتك . . ولكن . . ولكن . . ولكن .

ـ الأخ الأكبر مقاطعاً بنفس اللهجة : ولكن زوجتك طلبت التليفزيون الملون . . فاستجبت لطلبها على الفور ولم تفكر فى سداد دين أخيك الذى يصدقك كلما طلبت منه قرضاً ووعدته بالسداد فى موعد محدد فتضحى به . . ولا تحرص على الوفاء بوعدك له إرضاء لزوجتك ! .

ـ الأخ الأصغر متألماً وبصوت متحشرج : يعلم الله أن الأمر ليس كذلك . . لكنها أحرجتنى كما تحرجنى كثيراً وتذكرنى بأنى عاجز عن أن أوفر لها الحياة التى تعيشها أختها وصديقاتها فى بيت أزواجهن ، وأن طفلنا « وليد » يتساءل لماذا لا يكون لدينا تليفزيون ملون كابن خالته . . فاحرجت وظننت أن أخى يستطيع الصبر علىّ ثلاثة شهور أخرى حتى أقبض الحوافز ربع السنوية وأسدد له دينى شاكراً له مروءته .

ـ الأخ الأكبر بصوت غاضب : ولماذا لم تستأذننى فى ذلك لتعرف هل أنا مستعد للانتظار أم أن لدىّ ظروفاً لا تسمح به .

ـ الأخ الأصغر : ظننت . . ظننت . . أنك تستطيع الانتظار .

ـ الأخ الأكبر بحدة مكتومة : ولماذا ظننت هذا . . هل لأنى تاجر ميسور ؟ . والتجار أليست لهم أيضاً أعباؤهم والتزاماتهم وديونهم ؟ .

ـ الأخ الأصغر وقد اشتد احمرار وجهه وبدا واضحاً أنه يعانى من آلام شديدة فى معدته وصدره : نعم . . نعم إنى آسف لما سببته لك من

حرج . . وسوف أعيد الجهاز إلى البائع غداً وأسدد لك دينك شاكراً مرءوتك وصبرك عليّ .

ـ الأخ الأكبر تلين ملامح وجهه قليلاً ثم يغرق فى الصمت لحظات أحسَّ خلالها أنه يتردد بين ضيقه بأخيه وبين عاطفته الأخوية نحوه . . وأخيراً يحزم أمره فيقول له بصوت أكثر هدوءاً : لا تُعد الجهاز للبائع وسأنتظر ثلاثة شهور أخرى . . لكن لا تكرر ما فعلت معى مرة أخرى فالنقود ليست مهمة فى حد ذاتها و إنما احترامك لوعودك لى هو الأهم . . هيا اشرب شايك ودعنا ننصرف سأوصلك إلى بيتك .

وينصرف الشقيقان من المقهى والأخ الأصغر مازال واجماً كسير النفس محمر الوجه . . والأخ الأكبر يلحظه خفية وملامحه تشى بأن «الحساب» قد انتهى . . واستيقظت فى قلبه من جديد عاطفةالأخوة التى توارت أثناء الحساب ويريد أن يختم اللقاء ختاماً أفضل . . ولكن هيهات أن يخفف شىء عن الأخ الأصغر إحساسه بالذلة والانكسار تجاه شقيقه فى هذه اللحظات الثقيلة ،وهيهات أن أنسى أنا منظرهما رغم مرور السنين وأنا أتابعهما من خلف زجاج المقهى . . والشقيق الأكبر يركب سيارته فى ثقة واطمئنان . . والأخ الأصغر يجلس إلى جواره منكمشاً متضائلا . . مثقلاً بالحرج والألم والإحساس بالعجز والهوان .

* * *

القاهرة بعد منتصف الليل بساعتين ذات مساء بارد منذ (٢٥ عاماً) . . أسير أنا وبعض أصدقائى فى شارع شريف فيلفت نظرنا وجود سيارة

نجدة تقف أمام إحدى العمارات وشرطى ريفى شاب يقف بجوارها ومعه رجل فى الأربعين من العمر يبدو من مظهره أنه من أبناء الطبقة المتوسطة وأنه ربما يكون مهندساً أو طبيباً أو مديراً عاماً بإحدى المصالح الحكومية . . والرجل يتحدث مع الشرطى الشاب وهو يبكى ويقول له : فى بيتى ؟ . . وفى فراشى ؟ . . ويرتدى بيجامتى ؟ . . وأبنائى على بعد خطوات فى غرفتهم المجاورة . . لماذا أستحق هذا يا ربى ؟ . . ولماذا عُدت من سفرى فجأة الليلة ؟ . لماذا يا ربى ؟ . . ثم ينفجر فى البكاء المؤلم ويضع رأسه على سقف السيارة كأنما يعجز عن حملها فوق رقبته . . وتخدش الكلمات أسماعنا فنتبادل النظرات المعبرة فيما بيننا ونفهم الموقف دون أن نسأل عن تفاصيله ، وندرك أن ضابط الشرطة ومساعديه قد صعدوا إلى إحدى شقق هذه العمارة التى جرت فيها الواقعة لضبط طرفيها بعد أن أغلق عليهما هذا الزوج العائد فجأة الباب من الخارج وهرول باكياً إلى طلب شرطة النجدة ، بينما وقف الزوج مع الشرطى سائق سيارة النجدة ربما امتثالاً لأمر الضابط . . فراح يبثه وجيعته بلا حرج ، متنازلا عن كل الاعتبارات والفوارق الاجتماعية وفوارق السن التى تفصل بينهما . . والجندى الريفى الشاب يسمع اليه فى صمت وهو يمصمص شفتيه رثاء له وعطفاً .

ولسنوات طويلة ينحفر هذا المشهد المؤلم فى مخيلتى فأكاد أسمع صوت الرجل العائد الى بيته فجأة ليجد فى انتظاره هذه الكارثة يرن فى أذنى وهو يرثى نفسه وعجزه وإحساسه المر بالهوان بكلماته المتلعثمة المتقطعة لذلك الجندى الشاب الذى ربما لم يكن ليقربه منه ذات يوم أو

يبوح له بشىء من خصوصيات حياته . . لو لم يكن فى لحظة الانكسار المريرة هذه .

* * *

فى رائعة نجيب محفوظ الثلاثية

وفى جزئها الأوسط قصر الشوق استغرق الطالب الشاب كمال عبد الجواد فى حب عايدة شقيقة صديقه حسين شداد حباً عذرياً عفاً صامتاً ملَك عليه كل حواسه حتى رفع فتاته فى مخيلته إلى مصاف الملائكة الذين لا يعرفون صغائر البشر ، فتزلزل كيانه حين أفسد صديق له اسمه حسن علاقته البريئة بها بوشاية كاذبة . . فاختفت الفتاة من مجلس أصدقاء شقيقها وكابد كمال العذاب ألواناً . . وترصدها ذات يوم عند خروجها من فيلا أسرتها وحدثها بأمره مدافعاً عن نفسه يائساً من أى أمل فى منافسة صديقه حسن ابن المستشار فى الفوز بقلب الفتاة التى تتطلع للزواج منه ، فيعرف منها أنها قد علمت ببراءته منذ فترة ، ومع ذلك لم تكلف نفسها عناء إعلان العفو عنه ، ويتأكد له ما كان يشك فيه وهى أنها إنما حرمته صداقتها امتثالاً لرغبة صديقه حسن فيختنق صدره بالإحساس بعجزه وهوانه عليها وهزيمته فى المقارنة بينه وبين حسن من كل الوجوه حتى فى الشكل . . فقد عرّضت ذات مرة باسمة برأسه الضخم وأنفه الكبير فغرست فى قلبه خنجراً دامياً بغير أن تشعر . . واسترجع كل ذلك فى لقائه الأخير معها وهو يرجوها ذليلاً منكسراً أن تسمح له فقط بأن يحبها دون أن يطالبها بأى مقابل من جانبها لهذا الحب ويقول لها متألماً :

ـ لا تذكِّرينى بها لا أحب سماعه فإنى فى غنى عن ذلك . . لن أنسى رأسى لأنى أحمله ليل نهار ولا أنفى فأنى أراه مرات كل يوم لكن عندى شيئا لا نظير له عند الآخرين . حبى لا نظير له . . إنى فخور به ويجب أن تكونى فخورة به أيضاً ولو زهدت فيه ! .

ولا تمضى أيام على هذا الاستجداء المؤلم حتى يعلن له صديقه حسين خطبة عايدة الى حسن . . ويشعر بالنار تلسع أحشاءه . . فيجد نفسه أمام هذا الخبر « كما يجد إنسان نفسه تحت الترام وخفق قلبه خفقة قاسية كسقطة طيارة منطلقة فى فراغ هوائى » .

* * *

وما أكثر لحظات الانكسار فى حياة الإنسان . . وما أكثر مراراتها ولعلى ـ إذا أذنت لى بذلك ـ أحدثك ذات يوم عن نماذج أخرى منها ! .



١٠
مجمع الأحزان!

تعددت الأسباب والهم واحد . قلتها لنفسى وأنا أتأمل وجوه ضيوفى الذين اجتمعوا بالصدفة ذلك المساء فى مكتبى . فلقد كان مساء حافلاً بالعمل منذ بدايته ، وفى نهايته بدأ الزوار يتوافدون ، بعضهم بموعد سابق ، وبعضهم على غير انتظار . وعندما بدأ توافدهم كان يغادر مكتبى « أكثم » ذلك الشاب الذى امتحنته الأقدار بفقد أبويه وزوجته وطفلته فى كارثة انهيار عمارة الموت بمصر الجديدة خلال الزلزال ، والذى أمضى ثلاثة أيام فى قبر مظلم تحت الأنقاض إلى أن تم إنقاذه فلم يبق له فى الحياة سوى شقيقته الصيدلانية التى نجت أيضاً من نفس الانهيار. وتلاقى القادمون مع المغادرين فتصافحوا وتعارفوا ، ثم خرج أكثم وشقيقته ، واستقر الوافدون فى مقاعدهم .. مدير بإحدى شركات

الطيران العربية بالقاهرة مع أحد أقاربه . . كاتب ومترجم له مؤلفات ومترجمات عديدة . . فنان كوميدى كبير ومعروف جاء يدعونى لمشاهدة مسرحيته الجديدة . . رجل أعمال ناجح يملك شركة سياحية فى سن الشباب و إلى جواره شقيقه وشريكه الأكثر شباباً .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى أستقبل فيها مدير شركة الطيران فلقد زارنى قبل ذلك بأسبوعين ، وكان مكتبى مزدحماً يومها بالزوار فانتحيت به جانباً ، وأصخت السمع له ، فإذا به يروى لى فى دقائق مأساة تحتاج إلى دهر لكى يبرأ من جراحها ، فهو أب لفتاتين كبراهما فى السابعة عشرة من عمرها وصغراهما فى الخامسة عشرة ، وزوج سعيد فى حياته وناجح فى عمله ، ومحبوب من زملائه وأصدقائه ، ثم اشتكت الإبنة الصغرى من بعض الألم فى جنبها الأيمن فعرضها على الأطباء ، وانتهى رأى كبيرهم إلى ضرورة إجراء جراحة عاجلة لها لاستئصال الزائدة الدودية ، وتم تحديد الموعد ، وحجز المستشفى الخاص المجهز بأحدث التجهيزات الطبية ، وذهب الأب والأم والإبنتان إليه متفائلين ولم لا . . والمسألة لا تعدو زيارة أو رحلة كالرحلات العائلية التى تجمع بين أفراد الأسرة المتحابة من حين إلى آخر والجراحة بسيطة والجراح شهير . . والمستشفى على أحدث طراز ، ودخلت الإبنة الصغرى غرفة العمليات باسمة تلوح لأبيها وأمها وشقيقتها الوحيدة وأغلقت غرفة العمليات وأضىء الضوء الأحمر على بابها وبعد نصف ساعة خرج الجراح ومساعدوه مهنئين بنجاح العملية البسيطة . . ثم خرج الممرضون يدفعون سرير المريضة التى مازالت تحت تأثير البنج إلى غرفتها الأنيقة

المزينة بالورود . وجلس الأب والأم والإبنة حول فراشها يتبادلون الأحاديث فى انتظار أن تفيق الإبنة الجميلة من تأثير البنج ، لكن الوقت يمضى وهى لا تفيق . . بل يزرق لونها وتنسحب من وجهها دماء الحياة وتفزع الأسرة ويفزع الجميع ويهرولون لنقلها إلى العناية المركزة . . وتعلن حالة الطوارىء فى المستشفى ويهرول الأطباء من كل أنحائه إلى غرفة العناية . فلا تمضى دقائق حتى تلفظ الإبنة الجميلة آخر أنفاسها . وتتحول الرحلة القصيرة إلى رحلة أبدية لا عودة منها . . وتفجع الأسرة الصغيرة فى ابنتها الوادعة . . وتهتز أركانها من الجذور !

استمعت لقصته ذاهلاً . . وأحسست وهج النار فى رأسى وتحسست أذنى أتلمس احمرارهما بتأثير ارتفاع ضغط الدم العصبى الذى أعانى منه وحذرنى الأطباء من المجهود الانفعالى بسببه . . ثم مددت يدى بتلقائية إلى كوب الماء وابتلعت حبة مهدئة وبدأت مواساة الأب بالكلمات التى لا أملك سواها فى مثل هذا الموقف المؤلم ، وسألته عما أستطيع أن أفعل من أجله ، فقدم لى رسالة يريد أن ينشرها فى بريد الأهرام يرثى فيها ابنته الحبيبة ويمتثل لقضاء الله وقدرهْ ، ويطالب الجهات المختصة ببحث أسباب وفاتها . . وقرأت الرسالة فازداد صداعى ، ووعدته بنشرها على الفور وعدت لمواساته بكل ما أملك من مفردات قاموس المواساة والتهوين ، وودعته حتى باب مكتبى داعياً له بالصبر والإيمان . . وعدت لضيوفى الذين لم يسمعوا ما دار بينى وبينه وقد اعتلّ مزاجى واكتأب روحى .

ونشرت الرسالة وأحدثت أثراً مؤلماً بين القراء . . ورد عليها نقيب

الأطباء طالباً بيانات القصة كلها للتحقيق فيها ، وشارك قراء كثيرون فى كتابة رسائل المشاركة والعزاء للأب الحزين .

ثم جاءنى ذلك المساء شاكراً ومودعاً قبل أن يقوم مع زوجته وابنته التى أصبحت وحيدة بأداء العمرة ليقضوا يوم ذكرى الأربعين للإبنة الفقيدة فى رحاب الكعبة ، وعند الروضة الشريفة بين قبر الرسول الكريم ومنبره . ودهشت حين دخل مكتبى ومعه أحد أقاربه وصديقى الكاتب المترجم الذى لم أكن أعرف أن له به صلة . . وعرفت من صديقى الأديب أنه تعرف عليه بعد المأساة حين قرأ نعيه لابنته فى بريد الأهرام فكتب له رسالة مواساة مؤثرة كدأبه مع كل مكلوم منذ عامين حين فقد هو نفسه ابنته الشابة الوحيدة ، وأحاطته قلوب الأصدقاء والمعارف وأشخاص لا يعرفهم ، وانهالت عليه رسائل وبرقيات عزائهم له من كل صوب ، فعرف كما قال لى وقتها قيمة الكلمة الطيبة التى يتبرع بها إنسان لمواساة إنسان آخر لا يعرفه ، وعاهد نفسه أن يواسى كل حزين على غير معرفة منذ ذلك الحين .

وتحدثنا قليلاً عن تطورات قصة ابنته الراحلة وما أثارته من اهتمام لدى الدوائر المختصة ثم شكا لى الأب من أن حزنه على ابنته يتنامى فى أعماقه مع مرور الوقت ويفسد عليه حياته . . على عكس ما كان يتصور من أنه سوف يهدأ بعد حين . . وطمأنته إلى أن لهيب الحزن لابد أن يهدأ بزحف الأيام ، وطالبته بالصبر والإيمان إلى أن يلعب الزمن دوره الخالد فى ترطيب الجراح . . وطالبته قبل كل شىء بأن يسلم معى بأن إرادة الله فوق كل إرادة . . وأن ابنته الغالية إنما رحلت إلى جوار ربها أولاً وأخيراً ،

لأن موعد رحيلها المكتوب فى اللوح المسطور من قبل أن تولد قد آذن بالحلول ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « إذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون » . . أما الأسباب . . فليست سوى أسباب تبرر إصابة الأقدار وانتهاء الآجال ، وتذكرت خلال حديثى إليه بيت شعر غريب لا أذكر من قائله ولا أين قرأته يقول :

والناس ينحون على الطبيب

وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

ورويت له بيت الشعر هذا الذى يصور بصدق مأساته بكلمات قليلة، وهى أن هناك خطأً ما قد أدى إلى وفاة ابنته الغالية . . لكن هذا الخطأ نفسه هو « إصابة الأقدار» التى تترجم حلول الأجل . . وإلا فلماذا يدخل الآلاف كل يوم حجرة العمليات وتجرى لهم جراحات بسيطة أو خطيرة ويعودون للحياة من جديد ، فإذا كان ثمة خطأ ، فلابد من عقاب المسئولين عنه . . لكن ذلك لم يكن ليغير من القدر شيئاً ، ولابد أن نسلم بإرادة الله وقضائه وقدره . . خيره وشره ، وشاركنى صديقى الأديب فى المواساة فروى قصته المحزنة من جديد مع ابنته وكيف خمد أوار حزنه عليها شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت أحزانه عليها لا تعوقه عن الحركة ولا تحول بينه وبين الاستمتاع بالحياة . . وتدخل رجل الأعمال مشاركاً فى المهمة النبيلة فإذا به يروى للأب الحزين أن ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً مريض بالسكر ، وتعانى الأسرة كلها معه الكثير حين تهاجمه

نوبة برد فيستسلم للرقاد بسبب ضعف مقاومته لكل الأمراض أو حين يضيق بحقنة الأنسولين فى الصباح ، أو بقيود الطعام التى تفرض عليه الحرمان من معظم ما تهفو إليه نفوس الصغار من ألوان الحلوى الشهية ، أو حين يسأل أبويه باحتجاج مؤلم للنفس : لماذا قدر لى أن أعيش مع هذه القيود وهذا الحرمان طوال العمر وحدى ؟ .. فيحاران ولا يعرفان كيف يخففان عنه أو يساعداه على تقبل أقداره لكن الأسرة رغم كل ذلك راضية بما اختارته لها الأقدار .. وتلتمس أسباب العزاء فى أشياء كثيرة أخرى فى حياتها ، وتسلم بما أراده لها الله .. وتبتهج بما أسبغه عليها من نعم أخرى ، وتوقف رجل الأعمال الناجح عن حديثه قليلاً ثم أشار إلى شقيقه الجالس إلى جواره قائلاً : وهذا شقيقى الأصغر لقد عرف هو أيضا مرارة الثكل لابنه الطفل ذى الأربع سنوات فى حادث مؤلم منذ فترة قصيرة ، لكنه لا يحب أن يتحدث عن ذلك .. وقد توافق مع أقداره وتقبل ظروفه ووجد عزاءه فى العمل .. وفى الأسباب الأخرى التى تزخر بها حياته ، وانتبهت مشاعرى بشدة لما قال وتأملت الشقيق الشاب الذى قدرت عمره حين استقبلته بأنه لا يزيد عن ثلاثين عاماً ولاحظت مسحة الأسى الخفيفة فى وجهه فتصورتها من كدر العمل ، ووجدته يغض البصر حانياً رأسه ليتجنب نظرات الإشفاق التى تركزت عليه وقدرت مشاعره ، وأردت أن أصرف الاهتمام عنه فحولت مجرى الحديث إلى ناحية أخرى وقلت : ولماذا نذهب بعيدا .. لقد دخلتم مكتبى على غير موعد فوجدتم عندى الشاب الذى عاش ثلاثة أيام تحت أنقاض عمارة الموت فى مصر الجديدة وفقد أمه وزوجته وطفلته تحت

بصره وسمعه ، خلال فترة القبر القاسية التى عاشها ، وفقد أباه فى نفس حادث الانهيار ولكن بعيداً عن بصره ، ولم يبق له من الدنيا سوى شقيقته الصيدلانية « الشابة » وقد صافحتموهما جميعاً عند دخولكم وخاصة أكثم فهو مأساة تتحرك على الأقدام بكل المعايير . . ومع ذلك فلقد بدآ يتوافقان مع ظروفهما . . وتقبلا منذ البداية ما جرت به المقادير ويتقدم كل منهما بخطوات حثيثة فى طريق الشفاء النفسى من المحنة المرعبة التى عاشاها ، ولا سبيل أمامهما سوى ذلك . . إذ هذا أو الجنون والاكتئاب المزمن والاختلال النفسى والعقلى، وهذا ما ينبغى أن يفعله كل إنسان مهما كان نصيبه من الأحزان . . لأنه لا مفر من « الاستمرار » فى الحياة وتقبل كل ما تقذفنا به أمواجها . . والتكيف معها لأن « التوقف » أمام الأحزان بغير أى محاولة للتجلد أمامها ، والتخفف منها لن يورثنا إلا الجنون أو المرض ، أو العجز النفسى والضحى عن احتمال الحياة واستكمال المشوار . . والشاعر الأمريكى يقول :

استمر . . استمر

واصل الطريق سواء أكان مفروشاً بالورود أو الأشواك

استمر فسوف تجد حلاً لكل الصعاب

لكنك لن تجده إذا توقفت !

إذن فلابد من الحركة . . ولابد من الاستمرار والتشاغل عن الأحزان . . و « الحل » الوحيد الذى « يجده » الإنسان مع تصاريف القدر هو الرضا بها والامتثال لها و إعانة النفس على احتمالها . . وتخفيف لهيبها

عليه، بالثقة بالله والنفس ، ومحاولة نسيان التجارب المؤلمة والمشاركة فى مباراة الحياة لكى تشغله عن أحزانه ، وتحدثت طويلاً فى هذا الاتجاه والتقت عيناى فجأة بعينى صديقى الفنان الكوميدى الذى يتابعنى باهتمام، فتنبهت فجأة إلى أنه هو نفسه خير مثال على تقبل الأقدار والرضا بها ، فأشرت إليه قائلاً : وهذا صديقى الضاحك دائماً الذى يضحك الثكالى كل ليلة فى مسرحه ، هل خلت حياته هو أيضاً من الأحزان ؟ إن قصة حياته كلها رحلة من الآلام والشدائد فلقد واجه أقسى الظروف الاجتماعية ليتعلم ويصنع نجاحه واسمه ، وشاركته رفيقة حياته الصابرة المخلصة رحلة الكفاح وتحملت كل تبعاتها ، فما إن بدأ يقطف أولى ثمار النجاح والشهرة . . حتى سقط مريضاً شبه عاجز عن الحركة ، وعانى آلام المرض والخوف على أسرته وأولاده مما يحمله لها المستقبل المجهول إلى أن استطاع أن يجرى جراحة خطرة لتغيير بعض شرايين قلبه ، وسهرت على خدمته فى فراش مرضه زوجته المخلصة ، فما أن أذن الله له بالشفاء والحركة حتى سقطت زوجته، ورحلت عنه وهى صحيحة الجسم لم تشك ذات يوم مرضاً ، وواجه الحياة مع أبنائه وحيداً عليلاً . . وأشرف على تربية أولاده وتحمل مسئولية زواج ابنتيه وهو أرمل، وهو لا يعرف عن شئون الفتيات والزواج شيئاً . ولم يتوقف يوماً عن العمل والكفاح وإضحاك الآخرين ، والتقط الصديق الفنان خيط الحديث منى وواصله وروى قصصاً مؤلمة كثيرة عن معاناته الأولى مع مرضه وتربية أبنائه وحيداً ، وانتهى وانتهينا جميعا إلى أنه لا تخلو حياة إنسان من أحزان ، وأن المهم دائماً هو أن نعرف كيف نتعامل مع أحزاننا

وكيف نصبر عليها ونستعين عليها بالصلاة والإيمان بالله ، ونتصادق معها بحيث لا تعوق حركتنا ولا تعمى أبصارنا عما فى جوانب حياتنا الأخرى من أسباب للبهجة أو العزاء والتعويض .

وطالت الجلسة الغريبة ونظرت لساعتى فوجدتها تقترب من الواحدة صباحاً ، وأحس ضيوفى بأن الوقت قد تأخر بالجميع ، فنهضوا للانصراف ، ونهضت معهم مودعاً ، وعدت إلى بيتى مرهقاً بعناء العمل طوال اليوم فقرأت قليلاً ثم استسلمت للنوم مجهداً ، وصحوت قبل السابعة صباحاً ، فتناولت إفطارى . . وصنعت قهوتى ودخلت إلى مكتبى لأبدأ رحلة يوم جديد من القراءة والكتابة ، ومضت ساعات استغرقت خلالها فى العمل إلى أن أفقت على صوت زوجتى تحيينى تحية الصباح . . وتتحدث معى بعض الوقت ، ثم غابت قليلاً وعدت لأوراقى فعادت مرة أخرى بفنجان من القهوة وضعته أمامى ثم سألتنى باهتمام . . ماذا بك ؟ ورفعت رأسى مندهشا وسألتها عما تقصد فأجابتنى : تبدو حزيناً . . هل ساءك شىء فى العمل أو فى الأهل ؟ . . ونفيت ذلك مؤكداً لها أنى على خير ما يرام ، وقد صحوت مبكراً وتناولت إفطارى واستفدت من ساعات الصباح فى كتابة بعض الأعمال المتأخرة والقراءة . . وأنهيت حديثى بأن كل شىء على ما يرام والحمد لله . . فسكتت قليلاً وهى تسألنى : هل أنت متأكد ؟ . . وأجبتها بإصرار : بكل التأكيد . . فغادرتنى غير مطمئنة . . وعدت لأوراقى بضع دقائق ثم توقفت من جديد وسألت نفسى . . هل أنا حقاً حزين ؟ قد أكون واجماً بعض الشىء . . أو أشعر بعدم القابلية للابتهاج بسهولة

لضغط العمل . . أو انعدام الترفيه . . أو الانحصار فى دائرة العمل والأسرة الضيقة معظم الأيام . . لكن الوجوم أيضاً له أسبابه المباشرة . . فما هى هذه الأسباب ؟ وراجعت ذاكرتى عسى أن أجد تفسيراً له فلم أعثر على سبب مباشر ثم تذكرت فجأة « مجمع الأحزان » الذى انعقد فجأة ليلة أمس لمدة ثلاث ساعات فى مكتبى ، والمجمع الآخر الدائم الذى ينعقد كثيراً فى مكتبى بالأهرام كلما استقبلت قراء بريد الأهرام وبريد الجمعة المهمومين بكل أحزان الحياة الصغيرة والكبيرة . . وعرفت أو خيل إلىّ أنى قد عرفت السبب . . لقد كانت جرعة الليلة الماضية زائدة عن الحد وثقيلة بعض الشىء . . ففهمت سر وجوم الصباح واسترحت !



١١

نطح الصخور

اسمح لى أولا أن أناديك : زميلى العزيز ، فأنا تجمعنى بك زمالة جامعية ، رغم أننا لسنا خريجى سنة واحدة وإنما تخرجت بعدك بعدة سنوات فى نفس الكلية . . ونفس القسم الذى تخرجت منه .

ولعل هذا ما دعانى إلى طلب مقابلتك منذ ثلاث سنوات لأتحدث إليك عن مشكلتى . . وأستمع إلى رأيك وألتمس المشورة عندك . . ولن أذكرك الآن بقصتى أو مشكلتى لأنها انتهت ، وإنما أكتب لك هذه الرسالة لأبلغك أننى قد استمعت إلى نصحيتك ونفذت كل ما طلبته منى حرفياً وكانت النتيجة . . أنه لا فائدة فى زوجى العزيز !

زميلى العزيز . . رحمة بالزوجات المخدوعات مثلى ، لماذا تطلب منا دائما احتمال الهوان من أجل الأولاد . . وأين نحن كزوجات وأين حقنا فى

الحياة . . ولماذا لا يهمك فى ردودك ببريد الجمعة وبجريدة الأهرام سوى مصلحة الأولاد ؟ .

بل لماذا تطلبون ـ أنتم الرجال ـ من كل زوجة أن تحتمل نزوات زوجها حتى يسير مركب الحياة . . وحتى لا تحرم أولادها من الاستقرار العائلى ؟ . وأين هو الاستقرار فى حياة كلها منازعات وخلافات ؟ ولماذا يكون مطلوبا منا نحن الأمهات دائماً أن نضحى ونضحى ؟ . وما هى نتيجة تضحياتنا ؟ .

إننى أذكر كلماتك لى فى مكتبك منذ ثلاث سنوات ولا تزال ترن فى أذنى فى كل لحظة من لحظات حياتى : اليأس إحدى الراحتين ! .

ولحظتها سألتك باكية : وما هى الراحة الأولى هل هى الموت ؟ . فأجبتنى بأنها . . بلوغ الأمل ! .

ليست هناك فائدة الآن من أن أذكرك بحياتى أو مأساتى . . فما أنا إلا زوجة خانها زوجها لا مرة واحدة وإنما عدة مرات . . ومنذ العام الأول لزواجنا وفى كل مرة كنت أثور وأهيج . . ثم يعود نادماً مستغفراً باكياً بين يدى راجياً الصفح والغفران وتعود حياتنا إلى طبيعتها لفترة . . ثم ما يلبث أن يبدأ نزوة جديدة ، وكانت النزوة الأخيرة هى التى حضرت إلى مكتبك وحكيتها لك وهى قصة طويلة استغرقت ثلاث سنوات عاشها فى علاقة مع امرأة بدا وكأنه قد تزوجها ثم تبين لى أنها زوجة لرجل أجنبى يأتى إليها من بلده مرة كل عدة شهور ، وجئت إليك ونصحتنى

بالصبر إلى أن يثوب إلى رشده وبألا أنطح الصخر بالصدام المستمر معه من أجل أولادى . . وحتما سوف تنتهى هذه النزوة وسيعود .

وقد حدث ما توقعته وعاد إلىَ نادماً فعلاً بعد ثلاث سنوات ضاعت من عمرى فى المعاناة . . ومضت حياتنا هادئة لفترة . . ثم فجأة جاءت النهاية التى لم تتوقعها أنت ولم أتوقعها أنا أيضا . . لقد تزوج يا سيدى هذه المرة زواجاً شرعياً ! نعم تزوج ومن فتاة فى عمر ابنته ! .

وهكذا جاءت « جائزة » صبرى واحتمالى له بعد كل هذه السنين فهل هذه هى النهاية التى تعد بها الزوجات الصابرات ؟ . ألم يكن من الأفضل لى أن أنفصل عنه فى بداية الزواج وأعيش حياتى بعيدة عنه ؟ .

إننى لست حزينة عليه الآن فهو لا يستحق منى دمعة واحدة لكنى حزينة حزينة على عمرى . . وحزينة على كل لحظة صدقت فيها دموع التماسيح وأكاذيب المخادعين ولن أحضر للقائك هذه المرة مع أننى أتمناه حتى لا تؤثر على بكلماتك الطيبة . . المريحة . . ووعودك المتفائلة للمهمومين والحائرين بجنة الصابرين المضحين من أجل سعادة أبنائهم، وإنما سأجاهد بكل ما أستطيع من قوة ليكون انفصالى عنه رسميا ونهائيا حتى ولو حصلت على الانفصال فى آخر يوم من عمرى . . وهذا طبعا ضد كل آرائك . . وضد ما تقوله لنا كثيراً : لا تخربن بيوتكن ولا تشردن أطفالكن من أجل زوج خائن ، إذا كان الزوج لا يستحق التضحية من أجله فأطفالكن يستحقونها وبقدر التضحية والصبر تكون جوائز السماء .

وأنا لا أريد هذه الجوائز الآن . . وإنما أريد الانفصال عن زوجى الخائن . . لم أعد أحتمل سماع صوته . . ولم أصبر على نزواته بسبب احتياجى إليه ماديا . . فأنا أشغل وظيفة محترمة ذات دخل عال ولى شقتى الجميلة التى لا ينقصها شىء . . وإنما احتملته فقط لأننا تزوجنا بعد قصة حب قتلها هو بخياناته المستمرة لى واحتملته من أجل أولادى . . ومن أجل الاستقرار الذى كنت أحلم به . . ومن أجل « نهاية » حلمت بأن تكون أجمل من البداية . . إنه يتصور فى غروره أننى لازلت أحبه وأفتقده والحقيقة . . أنى أحتقره . .

والسلام ! .

قرأت هذه الرسالة فقفزت على الفور صورة صاحبتها إلى مخيلتى إنها سيدة لعلها فى الثانية أو الثالثة والأربعين من العمر . . رشيقة . . أنيقة . . جميلة تعمل عملاً مرموقا . . وتسافر بحكم عملها إلى مدن وعواصم عديدة . . وقد استقبلتها فى مكتبى وروت لى نفس القصة المألوفة عن الحب الذى تقتله خيانة الزوج ونزواته المتكررة . . وموقف الاختيار الذى تجد الزوجة المحبة المخلصة نفسها أمامه بعد سنوات من زواج الحب والإنجاب . . هل تثور لكرامتها وتهدم المعبد فوق رءوس أطفالها الصغار . . وتنفصل عن زوجها الذى أحبته وتزوجته عن حب واختيار وكان الأمل أن يغرد طائر الحب فى عشها طوال عشر سنوات ، فإذا بالزوج تفتر عاطفته تجاهها بعد فترة قصيرة من الزواج وينحرف وراء أهوائه فيقع فى نزوة بعد أخرى ، وبعد كل نزوة يعود إليها نادماً وباكياً بين يديها فيغلبها الحب القديم على أمرها أو الأمل فى إصلاحه والخوف

على الأبناء فتصفح عنه . . وتتواصل الحياة بينهما من جديد ، وربما تعود إلى سابق لمساتها العاطفية حتى تصبح الخيانة مجرد ذكرى وتطمئن الزوجة إلى أن السحابة التى حجبت لفترة شمس الحب الدافئة قد عبرت سماءها بسلام . . فلا تمضى أعوام وأحياناً شهور حتى تترامى إلى أسماعها من جديد أنباء نزوة أخرى تلمس علاماتها المألوفة فى علاقتها به ، . . فلقد حل الفتور العاطفى من جديد فى علاقته بها . . وكثر غيابه عن البيت . . وكثرت أعذاره للابتعاد عنها وعن أسرته ونشطت « أسفاره » فجأة وتعددت مهام عمله التى تقتضى ابتعاده عن البيت والأسرة كأنما قد عين فجأة فى منصب السكرتير العام للأمم المتحدة ، وأصبح مسئولاً عن سلام العالم واستقرار أحواله .

وتستغرق المهمة « الدولية الجديدة » بضع سنوات أو شهور حسب الظروف .

ثم تتكرر العودة النادمة . . والصفح والأمل فى أن تكون النزوة الأخيرة . . آخر النزوات . . ثم تتكرر القصة بتفاصيلها إلى ما لا نهاية .

والزوجة التى تواجه هذه المحنة يكون الاختيار أمامها دائما بين ثلاثة أساليب لا رابع لها للتعامل معها : إما أن تطلب الانفصال عن زوجها وتحصل عليه ثأرا لكرامتها وحبها الجريح دون النظر لأى اعتبار آخر ومضحية باستقرار أطفالها وسعادتهم التى ستتأثر حتما بانفصال الأبوين وتمزقهم بينهما .

وإما أن « تصارع » ظروفها . . وتصر على استعادة زوجها وإصلاحه

عن طريق الصدام والمواجهة . . والمطاردة . . والهجوم على الأخرى لردعها عن الاستمرار فى علاقتها بزوجها وهو ما تفعله معظم الزوجات اللاتى يواجهن هذه المحنة فتتحول حياتها إلى جحيم . . وتصبح مشكلتها مع زوجها . . فضيحة علنية أبدية فى مجتمع أسرتها وأسرة زوجها . . وبلا أمل كبير فى نجاح هذا الأسلوب فى ردع زوجها عن ضعفه وطبيعته العابثة . . وبنتيجة واحدة مؤكدة هى معاناة الزوجة النفسية والصحية وقد ينتهى الأمر بطلاقها على غير رغبتها وتعرض أبنائها للخطر .

وإما أن تيأس من تغير أحوال زوجها بعد أكثر من تجربة إذا تأكدت من أنه لا شفاء له من ضعفه وعبثه ونزواته فتنفض يدها من أى محاولة لمواجهته . . وتنصرف إلى رعاية أطفالها نائية بنفسها وصحتها وأعصابها عن « نطح الصخر » مفضلة احترامها لنفسها . . وتقديم نموذج الأم المضحية التى لا ترد على عبث زوجها الماجن . . بعبث مماثل ولا بتحويل قصتها معه إلى فضيحة عائلية تتلذذ بعض الألسن بترديد أحداث تطوراتها كل يوم . . مسلمة فى كل ذلك أمر زوجها إلى ربه . . وآملة فى جوائز السماء عن تضحيتها بسعادتها الشخصية طلبا لسعادة الأبناء الذين يشقيهم دائماً انفصال الأبوين مهما كان الأب عابثاً أو ماجناً .

وقد تكون الجائزة هى أن تنزل الهداية من السماء على الزوج بعد فترة طويلة أو قصيرة فيندم على العبث والمغامرة ويزداد تقديراً لجوهر زوجته الأصيل الذى رجح الأمل فيه على كل الشواهد وفضل سعادة الأبناء على

الثأر للكرامة فيسكن إلى جوارها بقية العمر نادماً على ما كان . . وساعياً بكل السبل لتعويضها عن الأيام الضائعة من عمر الوفاء، وقد تكون «جائزتها» أن يعرف لها أبناؤها حجم تضحيتها لهم فيعوضونها بنجاحهم فى الحياة ووفائهم لها عن بعض ما عانته مع أبيهم الجاحد من أجلهم .

وحين زارتنى كاتبة الرسالة وروت لى قصتها عرضت عليها هذه الأساليب الثلاثة . . وقلت لها : إن لكل منها ثمناً واجب السداد وعائداً لا مفر منه . . فالتى تختار سعادتها الشخصية على حساب كل الاعتبارات الأخرى أملا فى أن تبدأ حياتها من جديد مع آخر تجد معه ما حرمت منه من وفاء وأمان مع زوجها السابق لابد أن تكون على استعداد لأن تتحمل أيضاً ضريبة ذلك من معاناة أطفالها فى حياتهم ومن تمزقهم بين أبويهم ، وربما أيضا من لومهم لها حين يكبرون ويجىء وقت الحساب ، ويسألونها لماذا لم تتحملى من أجلنا لكى نعيش حياة أفضل مما عشنا ممزقين بين بيتك وبيت أبينا وبيوت الأهل . ولماذا لم تفكرى فى اليوم الذى سوف يتقدم فيه خاطب لأختنا فتتمنى ككل فتاة لو أنه قد جاء إليها وهى تعيش فى أسرة مستقرة بين أبوين طبيعيين مما يرفع من أسهمها عند خطيبها ويزيده ثقة فى جدارة أسرتها بالمصاهرة وبقيمها العائلية ؟ . أو لماذا يا أمى لم تفكرى فى اليوم الذى سيتقدم فيه شاب منا إلى أسرة فتاته فيضطر لأن يعتذر عن ظروفه العائلية الممزقة . . ويجد نفسه مطالباً بأن يرفع عن نفسه هاجس الشك الذى يهجس لكثيرين بأن من نشأ فى أسرة ممزقة أو لأب أو لأم سهل عليهما الطلاق . . كان هو أيضا أكثر جرأة

على الإقدام عليه وكلها « ضرائب » لابد أن توضع فى الحسبان عند الاختيار .

ومن تختار نطح الصخر جرياً وراء الأمل الخادع فى ردع الزوج العابث عن مغامراته ونزواته عن طريق الصدام والمواجهة ، لابد أن تكون على استعداد أيضا لأن تدفع الثمن الغالى من سلام بيتها وصحتها ونفسيتها وأرقها واضطراب نومها فضلاً عن تحول قصتها مع زوجها إلى «فضيحة عائلية » مستمرة قد تؤثر سلبيا على عمل الزوج ، وقد تنال كذلك من احترام الآخرين للزوجة رغم نفورهم من تصرف الزوج وتعاطفهم معها .

وهذا ما عنيته حين نصحت كاتبة الرسالة بأن تكف عن نطح الصخر ، وبأن تختار إذا كان لها أن تختار الطريق الثالث وهو أن تنفض يدها من زوجها وتعيش حياتها لأبنائها مادامت غير مستعدة نفسياً لمخاطرة الانفصال وبدء حياة جديدة مع آخر ولا لدفع ثمنها الغالى من سعادة أطفالها .

فهل ترانى أخطأت حين نصحتها بذلك ؟ .

إننى أقول دائما للزوجات اللاتى يستشرننى حين يعتبن على تفضيلى دائما استبعاد خيار الانفصال أننى لا ألزم أحداً برأيى لكننى أستشار . . وما دمت قد استشرت فلابد لى أن أعبر عما أؤمن به من مبادىء وأفكار ولمن يستشيرنى كل الحق فى أن يقتنع أو لا يقتنع بهما كما يشاء ، فلست ضد مبدأ الطلاق على إطلاقه لأن هناك فعلاً حالات لا علاج لها إلا الطلاق رغم كوارثه وآلامه ، لكنه لابد دائما أن تضع الزوجة التى تفكر فى

الطلاق مصلحة أبنائها دائما فى الاعتبار وألا تبنى كل حساباتها على أساس اعتباراتها الشخصية وحدها ، فالآباء والأمهات ليسوا مسئولين فقط عن إعالة الأبناء وتربيتهم وتعليمهم وإنما أيضاً عن سعادتهم الشخصية ، فإذا كان الطلاق لن يخدم هدف إسعادهم ، فمن الظلم لهم أن نضطرهم إلى دفع ثمن سوء اختيارنا نحن أو تقلبات أهوائنا دون أن نراجع أنفسنا مرات ومرات قبل الإقدام على الطلاق .

ولست أمانع لحظة واحدة فى أن تختار الزوجة الطلاق وتصر عليه إذا اكتشفت عبث زوجها مبكراً وقبل إنجاب الأطفال ، أما وبعد أن جاءت بهم إلى الحياة ، فلا بد أن تضع مصلحتهم فى اعتبارها الأول فى كل ما يتعلق بقراراتها المصيرية . . وحين تسألنى زوجة ولماذا لم يضع أبوهم مصلحتهم فى اعتباره وهو يخون زوجته أو يعبث مع الأخريات أو يتزوج غير أمهم ؟ أجيبها دائماً بأن الأب إذا كان أنانياً ولم يطلب سوى سعادته . . فإن ذلك يلقى على الأم مسئولية مضاعفة ولا يعفيها من مسئوليتها تجاههم . . فليس من العدل أن يتخلى الاثنان معا عن الأبناء . . ذلك أن حاجة الأبناء إلى الأم تزداد كلما كان الأب ذاتيا أو عابثاً أو ماجنا لأنها وحدها التى تستطيع أن تعوضهم عن ضعف إحساسه بالمسئولية عنهم .

كما لا أمانع أيضا فى الطلاق إذا استحالت الحياة نهائيا بين الزوجين . . وكان الأبناء قد كبروا وتشكلت شخصياتهم ونجوا من نسبة كبيرة من الآثار النفسية الضارة للانفصال على الأطفال الصغار الذين يتعذر عليهم فهم أو قبول أى سبب مهما كان قويا لحرمانهم من حقهم فى الحياة بين أبويهم معاً .

والمشكلة هى أن من يستسهل التفكير فى الطلاق يحاول دائما إقناع نفسه بمنطقية الفكرة وعدالتها بدعوى واحدة لا تتغير هى أن الاستقرار الأسرى ليس قائما بالفعل فى الأسرة ، وأنه من الأفضل أن ينفصل الزوجان حتى لا ينشأ الأطفال فى بيت تسوده الخلافات والشجار والنزاعات الزوجية التى تجرى أمامهم . وهى دعوى مضللة للأسف لأنه إذا كان الوضع الأمثل دائما هو أن يسود السلام حياة الأسرة وألا يشهد الأطفال أبداً نزاعات الأبوين ومشاجراتهم الصاخبة إلا أنه قد ثبت فى دراسات علم النفس الحديثة وبما لا يدع مجالا للشك أن نشأة الأطفال تحت مظلة بيت واحد مع أبوين غير متوافقين أفضل نسبيا من تمزقهم بين أبوين منفصلين أو بين أبوين تزوج كل منهما غير الآخر .

إنه اختيار بين أهون الضررين . . أما أن يستسهل الأب أو الأم الطلاق عند أول أزمة وبلا اعتبار لآثاره الضارة على الأبناء بدعوى أن ذلك « أفضل » لهم من تأثرهم بالمنازعات الزوجية فليس أمراً صحيحاً ولا عادلاً ، ولا يعدو أن يكون نوعاً من خداع النفس لتقليل إحساسها بالذنب .

ولم يزد ما قلته فى السطور السابقة على ما قلته للسيدة كاتبة الرسالة حين استشارتنى فى أمرها . وربما أضيف إليه الآن أن مشكلتنا هى أننا قد نستطيع أن نغير من أنفسنا فنتوقف عن سلوك يغضب منا الآخرين ، لكننا لا نستطيع للأسف أن نغير الآخرين كثيراً أو نجبرهم على أن يغيروا من أنفسهم بما يرضينا ويسعدنا ما لم يبدأ التغيير ذاتيا ومن داخلهم .

واستمرار محاولتنا لأن نغير الآخرين بما يرضينا هو بالضبط ما عنيته بالكلام عن نطح الصخور الذى يوهن الرءوس ولا يغير من حالها شيئا .

وقد استجابت كاتبة الرسالة مشكورة لما نصحتها به من عدم الاستمرار فى نطح ظروفها وتوقفت عن صدامها اليومى مع زوجها العابث . . ومعاناتها النفسية والانفعالية كل يوم رحمة بصحتها وتمسكاً بمصلحة أطفالها وتفضيلاً « لراحة اليأس » وكانت الراحة الوحيدة المتاحة لها وقتها فاسستنفدت قصة زوجها مع المرأة المتزوجة أغراضها . . وانتهت . . وفاز الأطفال بثلاث سنوات أخرى من الحياة العائلية بين أبوين طبيعيين ورجع الزوج كالعادة عن نزوته نادماً وباكياً . . وصفحت عنه الزوجة وعاشت معه عاما فى سلام . . لعلها خلاله كانت ترانى مصيبا فيما نصحتها به . فإذا بزوجها العابث يقوم بأخطر مغامراته ونزواته ويتزوج بفتاة فى سن ابنته ! .

فما ذنبى إذن فى مثل هذا الزوج الذى لا يهده الزمن ؟ .

يا سيدتى افعلى بحياتك ما تشائين . . فأنت وحدك التى ستتحملين تبعة الاختيار. . وأطفالك معك .

أما أنا فلن أغير من أفكارى ومبادئى وسأظل أنصح الأزواج والزوجات بالاحتمال إلى آخر قطرة فى قدرتهم عليه . . قبل أن يقدموا على خيار الطلاق الكريه من أجل أطفالهم ومن أجل معان وقيم أخرى عديدة جديرة بكل الاعتبار . . وشكراً



متى بدأت هذه القصة . . وكيف أصبحت طرفاً فيها من حيث لا أدرى ؟ .

لا أعرف على وجه التحديد فكل ما أعرفه هو أن بعض قراء بريد الجمعة بالأهرام يؤثروننى ـ فضلا منهم وكرما ـ بثقتهم ويطلبون منى أحياناً أن أتدخل شخصيا فى بعض مشاكلهم الشخصية ، لا بالرأى والمشورة كما أفعل فى بريد الجمعة ، وإنما أيضاً بالاتصال الشخصى والمساعى الحميدة بينهم .

ومع أن ظروف عملى وضيق وقتى لا يسمحان لى بأن أضيف إلى أعبائى هذا العبء الجديد إلا أنى أضعف فى بعض الحالات فأخجل من

أن أبخل على أصحابها بجهدى المحدود فى الإسهام فى حل مشاكلهم .

وكانت هذه « الحالة » هى إحدى الحالات التى لم أتردد كثيراً فى الاستجابة لمن طلب منى التدخل الشخصى فيها . . ولم أندم على تدخلى فيها رغم تطوراتها الدرامية الغريبة . . وإن كنت قد تعجبت ولا أزال أتعجب لها حتى الآن .

ففى أواخر العام الماضى اتصلت بى فتاة ورجتنى بإلحاح واستعطاف أن أتوسط لدى أبيها لكى يقبل زواجها من فتى القلب الذى تحبه منذ أحد عشر عاما والذى يحبها ولا يزال يأمل فيها رغم رفض أبيها له عدة مرات وطرده له من بيته فى آخر مرة تقدم فيها لخطبتها ، فاستوقفنى «عمر » الحب الذى تحمله لفتاها وسألتها مندهشاً : وكم عمرك يا آنستى ؟ فأجابتنى ببساطة أربع وعشرون سنة ! .

أربع وعشرون سنة . . إذن فقد بدأ حبها له وهى صبية فى الثالثة عشرة من عمرها فكيف بدأ هذا « الحب الطفولى » الغريب وكيف استمر وصمد لتغيرات الشخصية من مرحلة إلى أخرى من العمر ؟ . وسألتها عن ذلك فأجابتنى بأن فتى القلب يسكن « أمامها » وأن نافذة غرفة نومها تطل على نافذة غرفته وأنه شاب يكبرها بأربعة أعوام ، يقيم مع أمه بعد زواج أشقائه واستقلالهم بحياتهم ، ومن النافذة بدأت الإشارات فى سن المراهقة ثم التعارف ثم الارتباط العاطفى ، فبدأت القصة المألوفة وتواصلت مع السنين وازدادت عمقاً حتى تخرجت من كليتها . . وبدأ الخطاب يطرقون بابها ، ففوجىء الأبوان بوحيدتهما ترفض الجميع . .

وتصارحهما برغبتها فى فتى القلب الذى يسكن فى الجوار . . من ؟ . . فلان ؟ . . إنه ولد ضائع . . لم يكمل تعليمه العالى، ولا يملك شيئاً ولن يستطيع أن يوفر لك الحياة التى تعيشينها فى بيت أبيك ، ولن تكون لك شقة مناسبة كبنات أعمامك وأخوالك ، ولن ،يكون له مركز أزواجهن ولن . . ولن . . ولن ، فأنسى هذا الموضوع تماماً . . فلن نقبل به أبداً ولو قدم إليك قلبه على صينية من ذهب . . فالحب وحده لا يكفى لكى تقوم البيوت وإنما لابد من أشياء اخرى جوهرية . ومع علم الفتى برفض أبويها له فقد تقدم لأبيها طالباً يدها فرفضه بجفاء . . ولم ييأس الفتى فعاد بعد شهور وتقدم للأب مرة أخرى مؤكداً له أن أحواله المادية قد تحسنت وأنه يعمل فى شركة فى الصباح وفى أخرى فى المساء . . وسوف يكرس عمره وحياته لتوفير الحياة الكريمة لابنته . . فرفضه مرة أخرى وبجفاء أشد ، فحدثه الفتى عن « الحب » وحقوقه والتزاماته . . فكاد الأب وهو كما عرفت إنسان عنيف قوى الجسم يشغل مركزاً كبيراً فى إحدى الهيئات ، كاد يضربه وسحبه من قميصه وساقه أمامه إلى الباب الخارجى وهو يتوعده بالأذى إن رجع مرة أخرى .

وطلبت منى الفتاة بعد كل ذلك أن أتصل بأبيها وأحادثه فى هذا الأمر الذى فشل فيه كل الأقارب لأنه من المواظبين على قراءة بريد الجمعة وسوف يتقبل كلامى أكثر من أى إنسان آخر . . واستشعرت الحرج الذى تعرضنى له هذه الفتاة برجائها . . واستثقلته .

فمع اعتزازى بما يبديه نحوى بعض القراء من ثقة وود إلا أنى

أستشعر دائما حرجاً بالغاً فى أن أرجو أحداً فى شأن من شئونه الخاصة أعلم مسبقاً أنه قد اتخذ فيه موقفاً قاطعاً لا رجعة فيه ، إذ ما أسهل أن يرفض رجائى ويخيب مسعاى مردداً الديباجة المألوفة من أنه كان يتمنى ألا يخذلنى فيما رجوته فيه تقديراً لمسعاى الحميد لكنه كذا . . وكذا ، ثم يواجهنى بالرفض والاعتذار . وشرحت للفتاة مخاوفى . . فبكت طويلاً ورجتنى ألا أخذلها وأن أبذل جهدى مع أبيها . . لأن هذه المحاولة التى سأقوم بها ستكون السهم الأخير لها فى قصتها وبعده لا تعرف ماذا ستفعل فى أمرها .

ففكرت فى الأمر قليلاً وطلبت منها أن تدعو فتاها لمقابلتى . . فإذا جاء وتحدثت إليه واستشعرت جديته وجدارته بالوفاء بوعوده لأبيها . . فسوف أتجاوز حرجى الشخصى وأتصل بأبيها وأبذل معه كل جهدى لإقناعه بقبول هذا الفتـى .

وجاءنى الفتى بعد يومين فوجدته شاباً . . هادئاً خجولاً وتحدث إلى طويلاً عن رغبته فى الارتباط بمن أحبها ، وعزمه على أن يعرق ويكدح ليوفر لها الحياة الكريمة بعد الزواج . . فتسلل الإشفاق إلى قلبى وأنا أسمع حديثه عن فتاته ووجدتنى أسأله رغما عنى :

ـ أتحبها إلى هذا الحد ؟ .

فأجابنى بصدق : وأكثر من هذا الحد . . فهى عمرى كله منذ وعيت للدنيا .

وأطمأن ضميرى إلى جدية الفتى فغالبت ترددى وٱتصلت بالأب

وقلت له إننى أسمح لنفسى بالتدخل فى شئونه الشخصية استجابة لرجاء شخص عزيز عليه هو ابنته الوحيدة ثم حدثته فى أمرها فتلقى حديثى بسماحة وحدثنى طويلاً عن رغبته فى الاطمئنان إلى حسن اختيار ابنته الوحيدة ثم شرح لى أسباب اعتراضه على الفتى وكلها من وجهة نظره أسباب موضوعية مقنعة . وحين قاطعته متسائلاً : ولكن ماذا إذا لم يقتنع أبناونا بأسبابنا الموضوعية لرفضنا اختياراتهم . . هل نرغمهم على ما لا يقبلون . . أم نتمسك بالرفض للنهاية إلى أن نفأجأ بأنهم قد شقوا عصا الطاعة علينا . . وخرجوا على إرادتنا؟ .

فأجابنى بثقة بأن الأمر لن يصل إلى هذا الحد مع ابنته لأنها مهذبة ومطيعة ومتدينة . . ولأنه لا يثق فى ثبات مشاعرها تجاه هذا الفتى فقد استشعر من كلامها أن هذا الفتى هو مجرد خيار مطروح أمامها من بين خيارات أخرى . . وبالتالى فلا معنى لأن تختار أسوأها وتعزف عن الاختيارات الممتازة الأخرى ! .

وأحسست على الفور بأن الأب ليس على علم كاف بأبعاد القصة وقدَّرت أن « الأم » لابد أن تقوم بدور هام فى إقناع الأب بأن « الفتى » ليس اقتراحاً عابراً فى حياة ابنته كالخطاب الآخرين وإنما هو قصة حبها التى استغرقت نصف عمرها ، ولن تتنازل عنها بهذه البساطة . واتصلت بى الفتاة تسألنى عما انتهى إليه مسعاى فأبلغتها بفشلى فى إقناع أبيها ونصحتها بأن تركز كل جهدها على أمها لأنها كامرأة أقدر على تفهم حقيقة مشاعرها ، وعلى إقناع الأب بما غاب عنه تقديره من ظروف القصة كلها ، فأجابتنى قانطة بأن أمها لن تؤدى للأسف هذا الدور

لأنها أكثر تصميماً من أبيها على رفض الفتى لنفس الأسباب التى أبداها الأب ، ولأنها تنكر عليها هذا الحب وترفض الاعتراف به .

فرفعت يدى يائساً ورجوت الفتاة أن تصبر فترة أخرى ثم تعيد الضغط على أمها وأبيها لإقناعهما بفتاها مؤكداً لها أن الأهل يسلِّمون دائما برغبة الأبناء فى النهاية حين يستشعرون وبعد مقاومة طويلة صدق تمسكهم بمن يحبون ، لأنهم لا يستهدفون أولاً وأخيراً سوى سعادة أبنائهم كما يتصورونها .

ووضعت سماعة التليفون وانصرفت إلى أعمالى . . ونسيت الفتى والفتاة وسط مشاغل الحياة وعشرات القصص المشابهة التى يرويها لى قراء البريد . . شىء واحد فقط رنَّ فى أذنى فى مكالمة الفتاة الأخيرة لى . . وتذكرته ممتعضا بعدها لعدة أيام هو ما قالته لى من أنها لو خُيِّرت بين هذا الفتى وأبويها فسوف تختاره لأن أبويها يظلمانها برفضهما زواجه منها ! .

وأذكر أننى قد عاتبتها على هذه العبارة القاسية وذكَّرتها بأن أبويها لا يعارضان فى زواجها إلا طلباً لمصلحتها كما يتصورانها ، فإذا كان ذلك سوف يشقيها فعليها أن تقنعهما بأن سعادتها فى هذا الزواج وليست فى أى شىء آخر ، وبغير أن تضع نفسها أبدا فى موقف الاختيار بين أبويها وفتاها أو بين أى شىء آخر فى الحياة ، لأنه اختيار خاطىء من الأصل ، ولا يجوز أن يكون مجالاً للمناقشة أو التفكير .

ومضت شهور بعد ذلك ثم فوجئت منذ أسابيع بشخص يلح فى طلب مقابلتى مؤكداً أنها مسألة حياة أو موت بالنسبة له ، وأننى على

علم بتفاصيلها ، فحددت له موعداً وجاء فى موعده ، فدخل إلى مكتبى رجل عملاق متين البنيان كالمصارعين يعطيك الإحساس بأنه رجل قوى لا يهتز أمام شدائد الحياة . . فما إن جلس واطمأن إلى أن باب المكتب قد أغلق حتى فوجئت بهذا « الجبل » ينهار أمامى فجأة بلا مقدمات ، وينخرط فى بكاء مرير مؤلم أثار انزعاجى وحيرتى . . ومددت إليه يدى بعلبة المناديل فمد إليها يدا مرتعشة وراح يجفف دموعه . . ويحاول أن يتمالك نفسه بصعوبة حتى استطاع الكلام أخيراً فقال لى بصوت متهدج : ألا تذكرنى إننى الأب الذى توسطت لديه منذ حوالى سنة ليقبل زواج ابنته من جارها .

وتذكرته على الفور وسألته عما أستطيع أن أقدمه له فإذا به ينخرط مرة أخرى فى البكاء ويقول لى من بين شهقاته المؤلمة : إن ابنته قد تسللت من البيت إلى جهة غير معلومة منذ أيام . . وأن « الفتى » قد اختفى فى نفس التوقيت أيضا من بيته . . وأنه بحث عنها وعنه فى كل مكان طوال الأيام الماضية فلم يعثر لهما على أثر . . ولم يجد لدى أهل الفتى أو أصدقائه أى معلومات عنهما . . وأنه لم ينم هو وزوجته ولا تتوقف دموعهما منذ وقعت هذه الكارثة . وصدمت بما سمعت واسترجعت على الفور «العبارة القاسية » التى لُمت ابنته عليها فى المكالمة الأخيرة ، وأدركت أنها قد وضعتها للأسف موضع التنفيذ واختارت فتاها مضحية بأبيها وأمها . . وبكل شىء ! . وشعرت بالأسف للأب الحزين . . وكتمت لومى له لأنه دفع الأمور فى هذا الاتجاه الخاطىء . بأصراره القاطع على عدم الاستجابة لرغبة ابنته ، إشفاقاً عليه مما يعانيه من إحساس مؤلم بالهوان

على ابنته . . واستمعت مشفقاً إلى كلماته الباكية وهو يقول لى : باعتنى ابنتى وباعت أمها بعد أربعة وعشرين عاماً قدمنا لها فيها كل شىء ، ولم نحرمها من أى شىء فباعتنا وباعت الأسرة من أجل هذا الولد ، ووضعتنى فى موقف محرج أمام أهلى الذين يسألون عنها ولا أعرف كيف أجيبهم ولا كيف أواجه الناس . . وابنتى الوحيدة التى ربيتها ودللتها وأطعمتها بيدى قد هجرتنى بلا كلمة وداع ! .

وواسيت الأب بكل ما استطعت من جهد . . وسألته عما أستطيع أن أقدمه له فى هذا الموقف المؤلم ؟ . . فرجانى أن أوجه نداء لابنته فى بابى الأسبوعى بريد الجمعة بالأهرام . . أناشدها فيه العودة لأسرتها وأؤكد لها أن أهلها قد سلموا برغبتها . . ولن يعترضوا على شىء مما حدث ما دامت هذه رغبتها . . فسألته محاذراً : هل يعنى ذلك أنك توافق على زواجها من فتاها ؟ .

فأجابني بمرارة : أوافق أو لا أوافق . . ماذا سيغير ذلك من الأمر . . لقد تزوجا يا سيدى سراً منذ شهور وعقد عليها هذا الولد قرانه بعد آخر مقابلة معى اعتذرت له فيها وقد علمت ذلك منذ يومين فقط من أصدقائه الذين طفت عليهم جميعاً أسأل عنه وعنها فعرفت أنه بعد أن يئس من موافقتى عليه ، اتفق مع ابنتى على الزواج سراً لكى يضعانا أمام الأمر الواقع ، وخرجت ابنتى ذات يوم منذ ٦ شهور كأنها فى زيارة عادية وتوجهت معه إلى المأذون فعقد قرانهما وشهد على العقد اثنان من أصدقائه . . وعادت ابنتى الوحيدة التى كنت أتصور أننى أعرف كل دخائلها وكل شىء عنها إلى البيت وكأنها لم تفعل شيئاً يستحق أن يُروى

. . وعاشت بيننا ستة شهور كاملة وهى متزوجة هذا الولد دون أن نعرف شيئا ، والذى يثير جنونى أنها طوال هذه الشهور الستة لم تغادر البيت إلا معى أو مع أمها أو معنا معاً مما زاد من ثقتنا فيها واطمئناننا إلى أنها قد نسيت هذا الموضوع نهائيا . . ثم استأذنت أمها منذ أسبوع فى الخروج لمدة ساعة لزيارة صديقة لها وخرجت ومضى اليوم دون أن تعود . . فبدأنا نبحث عنها فى كل مكان والقلق يقتلنا فإذا بأحد أصدقاء الولد يريحنى من بعض العذاب ويقول لى : إنها قد هربت مع زوجها إلى مكان لا يعلمه لكى يضعانا أمام الأمر الواقع . . ولن يظهرا إلا حين يحصلان على الأمان منى ومن أسرتى ! .

وسكت الرجل قليلا ثم قال لى : إنها تثق فيك وتقرأ لك بانتظام . . فاكتب لها أننى قد تنازلت عن كل معارضة ولن أحاسبها على شىء فعلته رغم آلامى التى لا يتحملها بشر ، وأريدها أن تعود لكى نستكمل الشكل الاجتماعى الضرورى للزواج أمام أهلى وأهل زوجتى الذين لا يعلمون شيئاً مما حدث . . ولا أريدهم أن يعلموا . وتفكرت فيما يقول قليلاً ثم قلت له : أتعطينى العهد بألا تؤذيها أو تؤذى هذا الفتى إذا استجابا لندائى ورجعا ؟ فأجابنى بالإيجاب . . ومع أننى كنت قد اطمأننت إلى صدقه لما رأيته من انهياره أمام الكارثة إلا أننى استشعرت مسئوليتى الأدبية بل « والجنائية » أيضا عن هذه الفتاة إذا استجابت لندائى ورجعت ثم تعرضت بعد عودتها لأذى من أبيها أو أسرته أو تعرض الفتى لعدوان منه . . ففتحت أحد أدراج مكتبى وأخرجت منه مصحفاً كريماً . . ووضعته أمام محدثى فى هدوء وقلت له : عفواً لكنها

مسألة حماية أرواح ومسئولية ثقيلة أتحملها أمام الله وأمام ابنتك وفتاها وأسرته . . فهل تقسم لى على هذا المصحف الشريف بأنك لن تتعرض لابنتك أو لفتاها بأى أذى إذا استجابا لندائى ولن تقف فى طريقهما بعد العودة ؟ . فمد يده فى استسلام ووضعها على المصحف وأقسم « بعهد الله » وبكتابه الكريم ألا يؤذى ابنته ولا فتاها وألا يقف فى طريقهما إذا رجعا .

واطمأننت إلى ذلك وكتبت نداء حاراً إلى هذه الفتاة الهاربة فى بريد الجمعة أقسمت لها فيه « بعهد الله » وذمة نبيه وذمتى أننى أضمن لها ولفتاها سلامتها وألا يعترض أحد طريقهما وطلبت منها العودة رحمة بأبيها الذى يبكى كالأطفال وأمها المريضة المنهارة . . لكى تستكمل أسرتها الشكل الاجتماعى الضرورى لإعلان الزواج ، بل وطلبت منها أن تتصل بى تليفونياً فى مساء نفس اليوم وأن تلجأ هى وزوجها إلى بيتى لكى يشعرا بالأمان . . وليتم اللقاء بينهما وبين أبيها وأمها فى وجودى فلا تخشى شيئاً مما تخشاه ، وقلت لها إننى سأترك فى سويتش الاهرام رقم تليفون بيتى وعنوانى لكى تحصل عليهما منه .

وصدر الأهرام يوم الجمعة . . وبدأ الأب يتصل بى منذ الصباح الباكر كل بضع دقائق يسألنى بلهفة تمزق القلب . هل اتصلت بك؟ .

إلى أن جاء المساء . . وجاءنى صوتها محاذراً خائفاً وعاتبتها عما فعلت بأبيها وأمها . . فلم تزد على أن قالت لى إنها آسفة لما فعلت لكنه لم يكن أمامها خيار سواه بعد أن سدا أمامها كل الأبواب الأخرى . . فقلت

لها : إن أوان الحساب قد فات وإن المطلوب الآن هو عودتها إلى أسرتها لكى يتم إعلان الزواج قبل أن يكتشف الأهل اختفاءها وتنتشر الفضيحة ويزداد حرج أبيها وأمها ،وإحساسهما بالقهر وأكدت لها أن أباها قد سحب كل اعتراضاته على فتاها وسوف يقدم لها كل ما تريد .

فسألتنى فى شك : وهل أنت واثق من أنه لن يؤذينى ولن يؤذى زوجى إذا رجعنا .

فقلت لها متألماً : لو رأيت أباك وهو يبكى لما تشككت لحظة فى نيته تجاهك . إنه يفتقدك يا ابنتى . . حتى ولو كان غاضباً منك . . وأنتم لا تعرفون حقيقة مشاعر الآباء والأمهات تجاه أبنائهم، فنحن قد نغضب منهم أو عليهم لكننا أبداً لا نطيق أن نؤذيهم . . أو يؤذيهم أحد . . إنهم أبناؤنا مهما فعلوا ومهما أخطأوا . . وغاية ما نستطيعه تجاههم هو أن نحجب عنهم إذا خرجوا علينا بعض مساعدتنا لهم ، لكننا أبداً لا نستطيع إيذاءهم . فرجعت الفتاة تسألنى فى خوف : إننى أصدقك . . وأثق فى وعودك لكنى أخشى إذا رجعت وهدأت العاصفة وتم احتواء الفضيحة قبل انتشارها أن يعود أبى وأمى إلى موقفهما المتصلب منى ومن زوجى ويرغمانى على ما لا أريد . . فهل تضمن لى ألا يؤذيانى وألا يفرقا بينى وبين زوجى إذا رجعنا ؟ . وأكدت لها أننى أضمن لها ذلك على مسئوليتى واستمهلتها لحظات وهى معى على التليفون . . وطلبت الأب فى تليفون آخر وقلت له إن ابنته معى على التليفون وإنها آسفة لما اضطرت إليه وتريد العودة لأبيها وأمها اللذين تفتقدهما بشدة لكنها

لاتزال متخوفة من أن يصيبها أو يصيب فتاها أذى منكما أو أن تضغطا عليها لتفعل ما لا تريد .

فقاطعنى الأب باكياً بأنه يريد أن يرى ابنته ويتحدث إليها وهو كفيل بأن يزيل عنها كل مخاوفها فعدت إلى الفتاة وقلت لها إن أباها معى على التليفون الآخر وأريدها أن تسمع صوته وتأكيداته لها بألا تخشى شيئا ثم وضعت السماعتين فوق بعضهما وطلبت من الأب أن يكلم ابنته فسمعت صوته وهو يصرخ باكياً ومناشداً ابنته أن تعود إلى أحضانه ولها الأمان وكل ما تريد . . ثم يستسلم مرة أخرى للبكاء ! . وأمسكت السماعة وقلت لابنته :

ـ هل سمعت صوت أبيك وهو يبكى حزناً عليك .

فأجابتنى واجمة : نعم . . وسأعود لكنى أريدك أن تأتى معه لتأخذنى من بيت أحد أصدقاء زوجى . . وهذا هو شرطى الوحيد أن تأتى مع أمى وأبى . . وأن تشهد على وعودهما لى . . وألا تتركنا إلا بعد الاتفاق على كل شىء . . وأجبتها إلى رغبتها فأعطتنى العنوان الذى تقيم فيه واتصلت بالأب وأبلغته بأنى أعرف أين تختفى ابنته لكنها تطلب أن أرافقك أنت وزوجتك إليها . . فتهلل لما أبلغته به وشكرنى طويلا ثم التقينا فى وسط المدينة وتوجهنا إلى العنوان . . ودخلنا مسكن الصديق وجلسنا فى الصالون والأب واجم حزين والأم صامتة مكتئبة ، وبعد لحظات أشار لى الصديق وقادنى الى إحدى غرف المسكن الداخلية فوجدت فيها الفتاة الصغيرة ولم أكن قد التقيت بها من قبل ومعها زوجها

الشاب الذى زرانى منذ حوالى سنة ، ومن جديد طالبتنى الفتاة بأن أضمن لها سلامتها فأكدت مسئوليتى عنها ودعوتها للدخول على والديها فى الصالون فنهضت معى ودخلنا الصالون فاقتربت من أبيها خائفة مترددة . . خجلة فما إن رآها حتى نهض مجهشاً بالبكاء وهو يفتح لها ذراعيه ويحتويها فى صدره . . وتشنجت ذراعاه حولها حتى كادا يسقطان معا على الأريكة من عنف الانفعال . . ثم جلس فى مكانه وهى فى حضنه لا يريد أن يفك ذراعيه حولها ناسياً أنها لم تصافح أمها بعد ، وظل يعتصر ابنته بذراعيه فى حضنه ويبكى ولا يتكلم حتى انهمرت الدموع من أعين الموجودين جميعاً . وأخيراً أطلق سراح ابنته فاحتضنت أمها وجلست إلى جوار أبيها مطأطئة الرأس صامتة .

وتحدث الأب الى ابنته فطمأنها إلى أنه لن يقف فى طريقها بعد ذلك وأنه قد سامحها من قلبه فيما فعلت رغم عتابه عليها ورغم ما عرضته له من محنة وآلام وإحساس مرير بالهوان .

وحاولت بقدر الإمكان التخفيف عنه . . وطلب الأب أن تعود ابنته معه إلى البيت لتظهر أمام الجيران والأهل الذين يتساءلون عن سر غيابها ثم يستكمل باقى الخطوات الضرورية لإعلان الزواج خلال أيام معدودة ووافقت الإبنة على العودة معه وترك زوجها بعد تردد قصير .

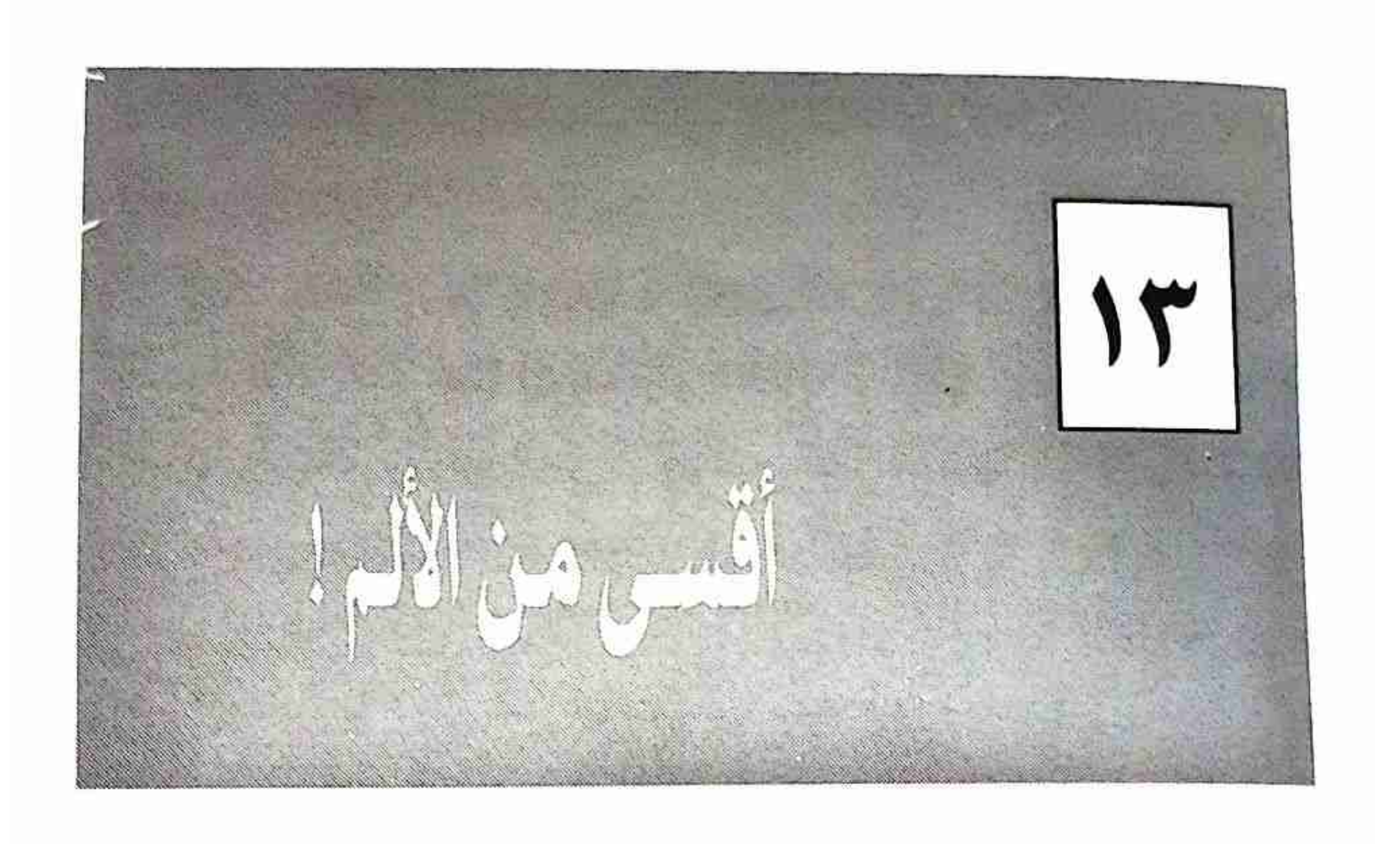
ورجعت الأسرة بابنتها إلى بيتها . . وبعد ثلاثة أيام اتصل بى الأب يدعونى لحضور « شبكة » ابنته فى بيته بناء على طلبها . . فذهبت وحضرت حفل الشبكة ورأيت الفتاة سعيدة تتفجر مرحا وحيوية وسط الأهل والأقارب الذين يهنئونها « بخطبتها » المفاجئة ويعاتبونها على عدم

إبلاغهم بهذا الأمر إلا قبل موعد الشبكة بيومين ، وانتهى حفل الشبكة بسلام وغادرته سعيداً بما رأيت وإن كان الأب قد قال لى وهو يوصلنى إلى المصعد . . إنه يضحك ويبتسم أمام الجميع حفاظا على الشكل الاجتماعى وتكتما للفضيحة . . لكن قلبه ينزف دماً لما فعلته به وبأمها ابنته سامحها الله فربت على كتفه مهوناً وانصرفت .

وبعد أسبوع آخر دُعيت لحضور حفل « الزفاف » فى أحد الفنادق وعلمت أنه قد سبقه فى نفس اليوم حفل محدود فى بيت الأسرة لعقد قران « صورى » أمام الأهل وذهبت إلى حفل الزفاف . . وهنأت الفتاة والفتى ورأيتهما يرقصان طوال الحفل طرباً وفرحاً وسعادة ورأيت الأب والأم يجلسان فى ركن شبه منعزل من الصالة يبتسمان إذا التقت عيونهما بأحد . . ويستسلمان للكآبة والأحزان إذا نظر كل منهما للآخر أو أمنا العيون . . فصافحتهما مواسيا لا مهنئاً . . وجلست بينهما صامتاً لبعض الوقت ثم غادرت الحفل موزع المشاعر بين الابتهاج بسعادة الفتاة والفتى التى مكنتنى الظروف الغريبة من الإسهام فى تحقيقها ، والاكتئاب لمشهد الأبوين اللذين يعانيان إحساساً مؤلماً ومريراً بأن كل ما قدماه من حب وعطف وحنان لابنتهما طوال أربعة وعشرين عاما لم يشفع لهما عندها فى شىء عند الاختيار ، ومع ذلك فهما مطالبان بقبول الأمر الواقع والتسليم به والابتهاج له أمام الآخرين والاستمرار فى رعايتها وغمرها بالحب والعطف والمساعدة بعد الزواج رغم إقحامها عليهما شخصاً يرفضانه ولا يطيقان رؤيته .

سامح الله الأبناء الذين لا يعرفون كم هو مرير وقاس إحساس آبائهم وأمهاتهم بهوانهم عليهم حين يخرجون على طاعتهم ويفضلون عليهم غيرهم .

وسامح الله الآباء والأمهات الذين يضعون أبناءهم بقصر النظر . . والعناد . . أمام هذا الاختيار البشع ! .



١٣
أقسى من الألم!

فى قصة أمريكية قصيرة قالت الزوجة لزوجها المشغول عنها بعمله وطموحه حين سألها لماذا تنفقين وقتاً طويلاً كل مساء فى كتابة «مذكراتك» فأجابته : حين تعجز الزوجة عن الكلام مع زوجها فإنها «تتكلم » مع الورق ! وقد عجزت عن الكلام معك منذ فترة طويلة وافتقدت اهتمامك وعطفك ومشاركتك لى فى مشاعرى وعواطفى .. فبدأت « أتكلم » مع الورق ، وسأستمر فى ذلك تجنبا للوحدة النفسية .. والجنون ! .

وانتهت القصة فى النهاية بوقوع الزوجة فى حب أول فارس طرق باب قلبها الذى هيأه الزوج لاستقبال أول غازٍ جديد .. بانصرافه عن زوجته .. وتوقفه عن تلبية احتياجاتها العاطفية والنفسية ، ولا غرابة فى ذلك .

فالأرض العطشى تتلهف دائماً على قطرة الماء التى تخفف من جفافها . . وتحيى مواتها .

لكن هذه الزوجة الشابة لم تكتب مذكراتها كما فعلت الزوجة فى القصة الأمريكية تجنبا للوحدة أو الجنون ، وإنما كان ذلك دفاعاً عن حياتها وتمسكاً بزوجها الذى لم يكتف بانصرافه عنها . . وإنما هَمَّ أيضاً بأن يدمر حياتهما معاً . فكتبت فى أوراقها « تحليلاً » محايداً للموقف الذى تواجهه بكل احتمالاته ونتائجه الإيجابية والسلبية وأطلعت زوجها على « مذكراتها » على أمل أن يتأثر بما كتبته فيها ويعود إلى رشده . . فلم يتغير شىء فى موقفه . . وأرسلت إلىّ « مذكراتها » طالبة منى قراءتها . . ومحاولة التأثير على زوجها إذا اقتنعت بما كتبته فيها .

إنها سيدة فى الثالثة والثلاثين من عمرها تعلمت تعليماً متوسطاً والتقى بها زوجها المهندس الشاب الذى يكبرها بتسع سنوات وأعجب بها فتقدم لخطبتها . وتم الزواج فى بيت والدته . فهو أصغر إخوته . . ولم يبق لأمه سواه لكى يعيش معها ، كما أن إمكاناته المادية لا تمكنه من الحصول على شقة مستقلة . . وبدأت حياتها الزوجية معه سعيدة ، وأنجبت له طفلتين جميلتين وتحملت متاعب الحياة بصبر وحكمة مع أم عنيدة مسيطرة تصر على أن تكون لها الصدارة والأولوية فى كل شىء فى حياة الأسرة ، وعلى فرض إرادتها على الجميع . . ومع ذلك لم تضق بها كثيراً واعتبرتها أماً ثانية لها وهى التى افتقدت الاستقرار فى طفولتها بعد انفصال أبويها ، وتنقلت بين بيتيهما طوال حياتها . . لكنه هو الذى لم يتحمل عناء الحياة فى بيت تسيطر عليه أمه وتفرض فيه إرادتها عليه وعلى

زوجته ، وضاق بمشاكلها اليومية المستمرة معه وقرر أن يجد حلاً لحياته معها ، فماذا كان الحل السعيد الذى توصل إليه ؟ . لقد عاد إلى زوجته الشابة ذات مساء وصارحها بأنه سيغادر جحيم بيت أمه . . ويتزوج ! يا إلهى . . كيف . . وماذا عنى وعن الطفلتين ؟ . وكيف يكون الزواج الجديد حلاً لمشاكلنا مع أمك ؟ . فأجابها بأنه من الأفضل أن تستمر هى والطفلتان فى الحياة مع أمه . . وأن يتزوج هو زميلة قديمة له فى الجامعة فرقت بينهما الأيام . . ثم عادت فجمعتهما معاً منذ فترة خاصة ، وأنها تملك شقة مناسبة فى حى راق وتقبل به زوجا على زوجته وطفلتيه . وبذلك يستطيع أن يزورها أى زوجته وأم طفلتيه وهو أهدأ أعصاباً وأكثر قدرة على الاحتمال! . وظنته زوجته فى البداية يمزح معها مزاحاً ثقيلاً . . لكنها صعقت حين تبينت جديته وإصراره على تنفيذ مشروعه فحاولت إثناءه عن هذه الخطوة الحمقاء بكل وسيلة ممكنة وبكت كثيراً . . وتوسلت إليه أكثر وبلغ بها الحال أن هددته بأنه إذا فعل فإنها لن تحافظ على إخلاصها له وسوف تنحرف وتفتح أبوابها المغلقة فى وجوه الجميع ولمن يروق لها منهم ! . فلم تهتز شعرة واحدة فى رأسه لتهديدها . . ربما لثقته فى أنه تهديد أجوف لا تسمح طبيعتها المتدينة بتنفيذه . . وربما تظاهراً بالاستهانة بتهديدها لإقناعها بأنه لن يحول شىء دون استمراره فى مشروعه الجديد . .

واسودت الحياة فى وجه الزوجة الشابة . . وكما فعلت تلك الزوجة الأخرى فى القصة الأمريكية القصيرة فتحت دفترها الصغير وراحت تبثه كل مساء لواعجها وخواطرها الحزينة . ولم تكتف بتسجيل مشاعرها



وانفعالاتها الغاضبة وإنما اتبعت منهجا موضوعياً غريباً على الموقف الذى تواجهه الزوجة عادة بالانفعال والصخب وليس بالتفكير الهادىء المرتب كما فعلت هذه الزوجة . والألم الزائد على حد الاحتمال يقهر فيما يبدو انفعال الإنسان فى بعض الأحيان ويضطره للتعامل مع الموقف بحياد شبيه بحياد الباحثين أملاً فى التماس أى وسيلة للتخلص من المحنة . . فراحت تحلل شخصية زوجها وشخصيتها وتضع مميزات وعيوب كل منهما فى الميزان وفى « جداول » متقابلة كما يفعل الباحثون فكتبت عن زوجها مثلاً تقول :

مميزاته :

١ ـ رجل ناضج عقلانى « مفكر » ! .

٢ ـ عنده ضمير رغم شكوكى فيه حالياً ! .

٣ ـ رحيم بأى إنسان فى عمله .

٤ ـ مجامل جداً مع الآخرين .

٥ ـ جامعى مثقف جداً .

أما عيوبه : فقد أحصتها على الوجه التالى :

١ ـ غير مرح ويفتقد الابتسامة .

٢ ـ لا يستطيع إسعاد نفسه ولا من حوله .

٣ ـ غير دبلوماسى فى بيته ! .

٤ ـ غير عاطفى وشرس فى غضبه .

٥ ـ لا يصلى !

وبنفس هذه الروح المحايدة كتبت عن نفسها فقالت :

مميزاتها :

١ ـ تفضل أن تكون ربة بيت لا موظفة .

٢ ـ تحب أسرتها وطفلتيها .

٣ ـ تعرف ربها وضميرها حى وصاحبة مبادىء .

أما عيوبها : كما رصدتها بنفسها فهى كالتالى :

١ ـ عصبية . . وغير منظمة فى حياتها .

٢ ـ حساسة جداً وعاطفية .

٣ ـ ساذجة وأقل كلمة ترضيها .

٤ ـ فرطت فى حقوقها وتهاونت فى كرامتها منذ سنوات .

٥ ـ تعليمها متوسط وليست جامعية .

ومع التجاوز عن أن بعض ما سجلته فى خانة العيوب يعد من المزايا الأخلاقية على طريقة بعض الفنانات فى الأحاديث الإذاعية حين يحصين « عيوبهن » فإذا بهن جميعاً ساذجات وطيبات وحسنات النية إلى حد العبط ، فإن ما رصدته من عيوب العصبية وعدم التنظيم ونقص التعليم يكفى لإعجابى بموضوعيتها وصدقها . وبنفس هذا المنهج انتقلت

لمناقشات أسباب تفكير زوجها في الزواج من آخرى وهجر البيت فرسمت جدولاً كبيراً من خانتين الأولى للأسباب والثانية للحلول المقترحة لكل سبب تفاديا للخراب فقالت فى خانة الأسباب :

١ ـ الشقة : والحل المقترح هو تجديدها تجديداً شاملاً ودهنها وتغيير ألوان الحائط بما يوحى بتغيير الجو والمكان ! أو التفاوض مع والدته لترك الشقة مقابل خلو رجل معقول والانتقال إلى شقة أخرى .

٢ ـ الوالدة : والحل المقترح هو أن يحاول زوجها الاقتراب منها أكثر وترضيتها بزيادة مساهمته فى مصروف البيت وبعض الهدايا البسيطة التى يكسب بها مودتها . . مع استخدام الدبلوماسية فى التعامل معها ! .

٣ ـ الطفلتان : والحل هو أن يحاول الزوج أن يكسب مشاعرهما بنزهةأسبوعية تعيد الابتسامة إليهما وتغرس إحساس الأمان فى نفسيهما .

٤ ـ الزوجة : والحل المقترح هو أن يحاول الزوج إصلاح ما لا يعجبه ىى شخصيتها وهى مستعدة لكل ما يطلبه منها فى هذا الصدد ، وأن يحاول من جانبه أيضاً أن يكسب مشاعرها رغم أنها « تحبه والله العظيم » وذلك بكلمة حلوة . . وفسحة بسيطة من حين لآخر تعوضها عن جفاف حياتها وحرمانها من حنان الأب فى طفولتها وصباها بسبب ظروفها العائلية السابقة . . وأيضاً لتعويض حرمانها من مباهج الحياة والنزهات حتى فى شهر العسل بسبب تسلط الأم وتدخلها المستمر فى حياتهما ! .

وكعادة الباحثين رفضت الزوجة ان تنهى بحثها الاجتماعى عن

المشكلة بغير تسجيل « النتائج المتوقعة » لرفض هذه الحلول والمضى فى الاتجاه الآخر الذى يفكر فيه الزوج ، فسجلت فى خانة النتائج السلبية هذه الحقائق المتوقعة :

١ ـ البنات أى الطفلتان : ستعانيان من الحرمان لانشغال الأب عنهما بزوجته الجديدة واختفائه معظم الوقت من حياتهما وسينعكس ذلك على شخصيتهما فى حالة انطواء وعدم ثقة فى النفس وفى كل الناس بعد انهيار المثل الأعلى للأب الذى تخلى عنهما، وسيترك الحرمان آثاره النفسية الضارة عليهما حين تصلان إلى مرحلة الشباب ، وربما يؤدى بهما ذلك إلى النفور من الزواج . . أو الانحراف ! . وفى طفولة الزوجة نفسها من الحرمان وآثاره المريرة ما يرجح عندها هذه النتائج السلبية ! .

٢ ـ الزوجة : ستضيع فى الحياة . . وستزداد حياتها تعاسة وقسوة . . وقد ينتهى بها الأمر إما إلى الجنون أو الانحراف ! . أما لو استمع الزوج إلى نداء الحكمة والعقل والحب وتخلى عن مشروعه الأنانى . . فستكون النتائج هكذا :

الزوجة : ستزداد حيوية وشباباً وجمالاً وسيعود إليها بريق عينيها ورقة صوتها وحنان قلبها وابتسامتها ، وتعود لممارسة حياتها مع زوجها كأنها ولدت من جديد .

الزوج : سيستعيد ابتسامته بعد تحسن الأحوال بينه وبين والدته وتجديد الشقة . . وسيتفرغ أكثر لعمله ومستقبله .

الطفلتان : ستستعيدان اطمئنانهما وثقتهما فى المستقبل بإذن الله .

ثم عشر صفحات كاملة بعد ذلك فى شرح وتأكيد وتأصيل هذه النتائج « العلمية » المؤكدة لالتزام الزوج بالنهج القويم ! .

وانتهيت من قراءة مذكرات الزوجة المدعمة بالجداول والمؤشرات البيانية وقلبى يزداد عطفاً وإعجاباً بكفاحها النبيل للحفاظ على زوجها واستقرار أسرتها الصغيرة .

وتعجبت كيف قرأ الزوج هذه المذكرات الأليمة ولم يرق قلبه لزوجته .. ولم يدرك عمق الألم الذى تحسه والذى دفعها لأن تتعامل مع مشكلتها الخاصة بهذه الروح الحيادية كما لو كانت مشكلة إنسانة أخرى سواها . وكيف لم يستشعر عمق تعاستها وهى تتجاوز عن آلامها لتجهد عقلها ومشاعرها فى اقتراح الحلول والتماس كل الوسائل للخروج من محنتها بما يحقق للزوج ما ينشده منها ويصرف تفكيره عن هجر الزوجة والطفلتين .

إنه موقف مؤلم بكل ما تحمله الكلمة من معان .. وغصة فى القلب لا يدرك عمقها إلا أصحاب القلوب والمشاعر الرقيقة ، فأقسى من الألم هو أن تضطر للتجاوز عنه مرغماً لتناقش مع صانع الألم بصبر وهدوء وحياد كيفية الخروج من المحنة التى وضعك فيها ، كأن تناقش من غدر بك مثلا فى أسباب غدره .. وكيفية العدول عنه بدلاً من أن تنشب أظافرك فى عنقه عقاباً له على خيانة الحب والثقة . وما أكثر ما تضطرنا ظروف الحياة لأن نتجاوز أحيانا عن الألم لنبحث مع صانعيه أسبابه .. وظروفه .. وإمكانات التراجع عنه كما لو كنا نتناقش حول مشكلة

صديق يهمنا أمره . . ولسنا نتحدث عن آلامنا الشخصية وتعاستنا الخاصة .

وهكذا فعلت هذه الزوجة فأفرغت على الورق كل مشاعرها ومخاوفها وتلهفها على الوصول إلى حل يحفظ لها زوجها وحياتها فكانت هذه المذكرات الصادقة الفريدة .

ولقد احترت ماذا أستطيع أن أفعل مع مثل هذا الزوج . . وكيف أستطيع إقناعه بالعدول عن فكرته الطائشة ، وأخيراً استجمعت إرادتى واتصلت به فى رقم التليفون الذى كتبته لى الزوجة ودعوته لتناول فنجان من القهوة فى مكتبى على غير معرفة . . فجاءنى متردداً ومتوجساً .

واستقبلته بحفاوة . . وتركته يلتقط أنفاسه بضع لحظات ثم مددت له يدى بمذكرات زوجته . . وقلت له أعرف أنك قد قرأت هذه المذكرات من قبل . . ولم تغير شيئاً من خطتك ، لكنى أريدك إكراماً لى أن تقرأها مرة أخرى أمامى الآن وسأتناقش معك مناقشة قصيرة بعد ذلك فأمسك بالمذكرات وراح يقرأها فى صمت وتشاغلت عنه بإنهاء بعض أوراقى حتى انتهى منها ورفع رأسه إلى محرجاً ومنتظراً تعليقى عليها فقلت له باختصار : لا تنتظر منى حديثاً طويلاً عن هذا الموضوع فكل ما أريد أن أقوله لك هو أن مكتبى هذا يشهد زيارات كثيرة لرجال كبار بعضهم من المشاهير وأصحاب المناصب الرفيعة والثراء العريض، ولكنهم من أصحاب الهموم والمشاكل الذين يبحثون عن سعادتهم ، وأؤكد لك أن بعضهم إن لم يكن معظمهم مستعدون لأن يتنازلوا عن كل

ما حققوه فى حياتهم من نجاح وثراء أو شهرة مقابل أن يفوزوا من الحياة بزوجة محبة ومخلصة تقاتل للدفاع عنهم والتمسك بهم كما تفعل الآن زوجتك . . فلماذا تركل هذه الثروة الكبيرة بقدميك جرياً وراء « أخرى » لا تعرف هل ستحمل لك بعض هذه المشاعر المخلصة أم لا ؟ . وهل ستحرص عليك كل هذا الحرص كما تفعل زوجتك الآن أم أنها ستطردك من حياتها وشقتها عند أول خلاف وبلا ندم . . إنك ياصديقى تضحى بالموجود وهو ثمين وغال عند من يفهمون ويقدرون جرياً وراء المفقود وهو سراب غير مضمون ولا مؤكد . . فكيف تبيع حب زوجتك وطفلتيك . . بشقة مستقلة مع أخرى كانت زميلة لك فى الجامعة وفرقت بينكما الأيام خمسة عشر عاماً طويلة لا تعرف ماذا تغير خلالها فى شخصيتها ولست تضمن سعادتك معها . . ؟ . . وكل ذلك لأنك تضيق بمتاعب الحياة فى شقة والدتك . . وتعجز عن الصبر على ظروف حياتك التى قد تتغير إلى الأفضل بعد عام أو عامين أو فى أى مرحلة من العمر . . ثم إنك تعاقب زوجتك وطفلتيك . . على جريمة لم يرتكبنها وهى عناد أمك وتسلطها وتدخلها فى حياتك . . وعلى ظروف لم يصنعنها وهى عجزك عن توفير شقة مستقلة لهن بعيداً عن سيطرة والدتك . . إنك بذلك تظلم زوجتك وطفلتيك ومن يظلم الأبرياء . . لابد أن يظلمه الآخرون ذات يوم فالعدل مع الآخرين هو وسيلتنا الوحيدة لاتقاء ظلم الآخرين لنا وهو أيضاً دعاؤنا إلى الله بألا يختبرنا بما لا طاقة لنا على احتماله ، فلماذا ترشح نفسك لشدائد الحياة وانتقام السماء بهذا التفكير الأنانى ؟! .

وانتهيت من حديثى إليه معتذراً عن قسوة عبارتى الأخيرة فأطرق

برأسه مفكراً لفترة . . ثم رفعه أخيراً وقال لى مكتبئاً :

ـ يبدو أن الحق معك . . سأعود إلى زوجتى . . وسأحاول احتمال متاعب الحياة مع أمى حتى النهاية . . شكراً لك .

وشكرته على ما قاله بحرارة . . وودعته حتى باب مكتبى باحترام وعدت إلى مقعدى مبتهجاً . . وهممت بأن أتصل بالزوجة لأبشرها بنجاح مسعاى مع زوجها . . لكنى تذكرت ضعف الإنسان وتطلعه المحموم إلى ما يحقق له راحته وسعادته حتى ولو كان ذلك على حساب سعادة الآخرين ، وتذكرت قوة الإغراء الأخرى التى تمثلها تلك الزميلة القديمة والشقة المستقلة . . والأمل فى التخلص من متاعب الحياة بلا عناء . . فتراجع ابتهاجى شيئا فشيئاً . . وعدلت عن الاتصال بالزوجة مفضلاً ألا أسبق الأحداث بالتفاؤل ، وفكرت قليلا فيما يمكن أن يفعله هذا الزوج بعد انصرافه من مكتبى . . فوجدت نفسى أزفر كأنما أغلق ملفاً مفتوحاً . . لكى أقرأ غيره وأقول :

ـ أفلح إن صدق ! .

ورددتها لنفسى مرة أخرى : نعم أفلح إن صدق وقاوم وغلّب نداء الواجب الإنسانى . . والعدل والرحمة والإيثار على نداء الأنانية . . وحب الذات والحلم الدائم بما يحقق للإنسان راحته ولو على حساب الآخرين ! .

ولم أسمع بعدها شيئاً عنه أو عن زوجته فلعله يكون قد اجتاز امتحان الأنانية بنجاح . . ولعل زوجته تكون قد تخلصت من آلامها وتعاستها فاستغنت بذلك عن كتابة المذكرات !



ما هى أغرب رسالة تلقيتها من قراء بريد الجمعة ؟ هذا هو السؤال الذى أسمعه كثيراً فى كل ندوة أشارك فيها وفى كل حوار إذاعى أو تليفزيونى أو صحفى يجريه معى أحد ، ومع أن السؤال منطقى ومتوقع إلا أن ذاكرتى تخذلنى غالباً كلما سمعته وتغيب عنى كل الغرائب والعجائب التى شهدتها خلال اثنى عشر عاماً منذ بدأت أكتب بابى الأسبوعى فى الأهرام « بريد الجمعة » فأعتذر للسائل بضعف الذاكرة وربما أجبته أيضا بأننى من كثرة ما عايشت من غرائب الهموم والمشاكل لم أعد أستغرب لشىء أو أتعجب له ، لكنى ربما أتوقف أمام بعض الرسائل معترفاً لها بأنها قد نجحت فى اختراق « حصانتى » ضد التعجب والاستغراب .

وإذا أردت الآن أن أحكى لك عن إحداها فسوف أرجع إلى بدايتها التى حركت كاتب الرسالة ودفعته لأن يروى لى قصته « المضادة » .

اما البداية فقد كانت قصة حقيقية من غرائب الحياة حقاً نشرتها الصحف منذ سنوات عن الزوج الذى كان يعيش وحيداً مع زوجته فى حى حدائق القبة بالقاهرة . ولم ينجبا أطفالاً ، فامتزجت روحاهما وتشابكت خيوط حياتهما حتى تعذر على أحدهما أن يتخيل نفسه يعيش بعيداً عن الآخر ، ثم ماتت الزوجة فجأة وبلا مرض سابق ولم يحتمل الزوج الحزين فكرة اختفاء زوجته من حياته أو ابتعادها عنه فأصيب باكتئاب حاد شل قدرته على التفكير والتصرف الصحيح . . ثم هداه تفكيره لأن يتكتم خبر وفاتها ثم يدفنها سراً فى حديقة بيته ليطمئن إلى قرب جثمانها منه .

ونفذ ما أراده وعاش أيامه حزيناً لا يغادر بيته إلا إلى عمله . . وافتقد الأهل والأشقاء الزوجة التى لم تعد تزورهم كما كانت تفعل ولا يجدونها فى بيتها حين يزورونها ويعتذر عنها الزوج دائما بأنها مسافرة . . مع أنها لم يسبق لها أن سافرت إلى مكان بغير زوجها . . وتصاعدت الشكوك فى نفوس الأشقاء مع ما يلاحظونه على الزوج من أحوال مريبة . . فهو حزين حتى الموت وبلا سبب واضح ، وقد فقد الكثير من وزنه خلال أيام قليلة وفقد شهيته للطعام وإقباله على الحياة ، ولا يكاد يغادر البيت كأنما يحتمى بجدرانه من خطر مجهول . . ولم يصبر أحد أشقاء الزوجة على شكوكه فأبلغ الشرطة بارتيابه فى اختفاء شقيقته وشكه فى أن زوجها قد قتلها على الرغم مما يعرفه من أن شقيقته كانت دائماً على وفاق تام مع

زوجها . وألقت الشرطة القبض على الزوج وكشفت تحرياتها عن وفاة الزوجة ودفنها فى الحديقة ، وواجهته النيابة بالاتهام بأنه قد قتل زوجته وإلا فلماذا لم يبلغ عن وفاتها . . ولماذا يدفنها فى حديقة بيته ؟ ولم يحتمل الزوج الاتهام الظالم واعترف بالحقيقة وهو أن زوجته قد ماتت ميتة طبيعية لكنه دفنها فى الحديقة تنفيذاً لوصية كل منهما للآخر إذا سبق الأجل إليه حتى لا تنتهى عشرتهما بالموت ! .

وأكد تقرير الطبيب الشرعى صحة أقوال الزوج فسحبت النيابة اتهامها له بقتل زوجته واكتفت بأن حررت له مخالفة أو جنحة دفن فى غير الأماكن المخصصة لذلك ، ولم يخف وكيل النيابة الذى حقق فى القضية تعاطفه مع الزوج بل ورثاءه له ونصحه بالتماس العلاج النفسى ليخفف عنه آثار الاكتئاب الشديد الذى يعانى منه بعد فقده لشريكة العمر . ولا أعرف هل استجاب له الزوج أم لا ، لكن القصة أثارت حين نشرتها الصحف منذ سنوات اهتمام القراء . . وتعليقات عديدة عن وفاء الزوج وإخلاصه لزوجته التى كره أن يبتعد عنه جثمانها . . وضرب بها كثيرون المثل على أن الرومانسية لم تختف بعد من حياة البشر ولا الحب الصادق أيضا ولا الوفاء ، . . لكن قارئاً مجهولاً قرأ القصة فى الصحف واهتم بها كما فعل الآخرون فكان تأثيرها عليه مختلفاً تمام الاختلاف . . وكتب إلىّ رسالة يقول لى فيها :

لقد دفعتنى قصة هذا الزوج مع زوجته الصالحة لأن أروى لك قصتى وأهديها للأزواج السعداء الذين أنعم الله عليهم بالزوجة الصالحة حتى يحافظوا عليها ويعرفوا لها فضلها ، فقد ماتت زوجتى أنا أيضا منذ فترة

غير مأسوف عليها بعد حياة زوجية تعيسة ! فلم أصل على جثمانها وفاء لنذر نذرته على نفسى ألا أفعل ذلك حين يوافيها الأجل ، بل رحت أردد هذا الدعاء منذ خروج روحها حتى دفنها وهو : اللهم ضيق عليها قبرها . . اللهم احشرها فى زمرة امرأة أبى لهب حمالة الحطب !

كما أننى كثيراً ما أزور قبرها وأناجيها بهذا « الدعاء » الذى يريحنى وأراها تستحقه بجدارة ، لقد حرمتنى - لا غفر الله لها - من ثلاث وأهدتنى ثلاثا . حرمتنى من المودة والرحمة والسكن وأهدتنى : الكراهية والنفور والبرود . وقد ترتب على ذلك التالى :

حرمانى من حقوقى الشرعية كزوج منذ ليلة الزفاف حتى يوم وفاتها ! إنها كانت عونا للدهر على ولم تكن عونا لى على الدهر !

إنى لم أجد عندها الصدر الحنون بل كان صدرها شوكا وقنفذا !

إنها أنكرت خيرى ولم تعترف لى بجميل قط طوال عشرتنا معا .

إنها كانت تمطرنى دائما بوابل من قذائف لسانها وكان لسانها أحد من السيف وأشد مرارة من الحنظل كما كانت تستخدم أحيانا قبضة يدها كعامل مساعد للسان !

وكنت معها الزوج الأعزب رغم أنى كنت أعيش معها تحت سقف واحد ونتقاسم معا فراشا واحدا ، لكن جسدها كان محرما على وجسدى محرما عليها فلا ملاطفة ولا كلمة طيبة ولم أر وجهها أبدا بل رأيت دائما فى الفراش قفاها حتى يوم الرحيل !

وأعترف أنى لم أتمالك نفسى من الضحك فى البداية حين قرأت هذه

الرسالة لأول وهلة . . ذلك لغرابة الصورة التى يرسمها كاتبها لزوج يسير فى وداع زوجته فلا يستمطر عليها الرحمات . . وإنما يستنزل عليها اللعنات ويدعو لها ربه أن يضيق الله عليها قبرها ، ثم يزور قبرها بعد ذلك ليردد أمامه نفس الدعاء البشع . . نعم ضحكت فى البداية وكدت لا أصدق وقائعها لكنى رأيت من ناحية أخرى أنه يتعذر على خيال أى مؤلف كوميدى أن ينسج مثل هذه الصورة من غرائب الحياة . وأحسست بوهج الصدق فى كلمات الرسالة الممرورة ، فاضطررت لتصديقها راغما ونشرتها بعنوان الدعاء ، واستبشعت تصرف الزوج ونفرت منه ورددت عليه ردا قاسيا سألته فيه : ولماذا قبل على نفسه الاستمرار فى عشرتها وهى تحرمه من نفسها وتنكر عليه كل فضل ، ولا تعينه على الدهر ، وتستخدم اللسان وقبضة اليد الثقيلة فى التفاهم معه . ولماذا لم يسرحها بإحسان ويتزوج غيرها وهو الذى لم ينجب منها كما فهمت من رسالته ، وليس هناك ما يدعوه لاحتمال عِشرة حياة بشعة إلى هذا الحد ؟ والهجر فى الفراش من أول الأسباب الشرعية التى تبيح للزوج استخدامه كرخصة من رخص الطلاق حماية لنفسه من الفتنة ، بل وحتى لو كان قد أنجب منها فما الذى دعاه لاحتمال الحياة معها واختزان كل هذا الحقد والكراهية تجاهها حتى إذا ماتت عبر عنه بهذه الطريقة اللاإنسانية ؟ وتذكرت حين نشرت الرسالة المسرحية الإنجليزية التى يروى فيها كاتبها عن زوج مات فبكته أرملته الشابة طويلا وبحرارة ولوعة حتى احتقنت عيناها من البكاء . . وواظبت بعد رحيله على زيارة قبره تحمل إليه كل يوم الورود ، وتنساب دموعها فى صمت حزين إلى

أن رآها ضابط شاب جاء إلى المقابر مهموما بتنفيذ مهمة دفن عدد من الجنود الذين قتلوا فى الحرب العالمية الثانية ، ودار بينهما حوار طويل عرف خلاله سبب حزنها وعرفت هى سبب همه وأنه قد فقد جثة أحد الجنود خلال عملية النقل مما سوف يعرضه للمحاكمة العسكرية ، وبعد تطورات وأحداث أخرى دار بينهما حديث طويل فعرضت عليه الأرملة الحزينة فجأة اقتراحا يمكن أن يخلصه من المسئولية عن فقد جثة الجندى وهو أن يستخرج من قبر زوجها جثمانه ويسلمه كأنه جثة الجندى المفقودة ، ويقوم بمراسم الدفن له مع باقى الجنود ، ولم يتحمس الضابط الشاب للاقتراح لسبب هام هو أن الجندى القتيل كان مبتور الساق وجثمان زوجها لن يفيد فى حبك الخدعة وإنقاذه من المسئولية ، وأطرقت الأرملة برأسها لبعض الوقت ثم غالبت ترددها طويلا قبل أن تعرض عليه أن يكسر ساق زوجها الراحل لتنجح الحيلة وينجو من المحاكمة ، وأكدت له أنها تفعل ذلك لأنها قد تعاطفت معه وبدأت تحبه لأنه قد أخرجها من أحزانها . . وجدد أملها فى الحياة ، وقبل الضابط الشاب اقتراحها شاكرا ، ونفذ ما أشارت عليه واستخرج جثمان زوجها من صندوقه ليلا وبتر ساقه ، وأعاد الصندوق إلى مكانه وسلم الجثمان فى الصباح التالى ونفذ المهمة المكلف بها على خير وجه واستراح .

وانتظرت الأرملة الشابة بعد ذلك أن يزداد ارتباطا بها فيعرض عليها الزواج ، لكن الضابط الشاب ابتعد عنها ورفض الارتباط بها قائلا لها فى

صراحة قاسية : إنه لا أمان لامرأة قد فعلت بزوجها الراحل ما فعلته حتى . . ولو كان ذلك بدافع الحب !

ونزل ستار المسرحية على الزوجة وهى تبكى بحرقة أمام قبر زوجها لا تدرى هل تبكى غدر الضابط الشاب بها . . أم تبكى وفاءها لشريك حياتها الذى لم يصمد طويلا أمام أول اختبار .

ورغم بشاعة الفكرة وخياليتها ، فإن الزوج كاتب رسالة « الدعاء » قد فعل ما هو أبشع منها . . إذ لم يكتف بكسر « ساقها » بعد وفاتها كما فعلت الأرملة فى المسرحية وإنما مزق جثمانها كله قطعة قطعة بكلماته القاسية . . ودعائه الظالم عليها حتى ولو كانت تستحقه .

لهذا لم أعجب لحظة واحدة حين لم أتلق عقب نشر رسالته رسالة واحدة من أرملة أو مطلقة تعرض فيها الزواج من كاتبها . كما يحدث معى كثيرا عقب نشر كل رسالة لأرمل حزين ينعى زوجته أو لمطلق يشكو وحدته وسوء حظه فى تجربة زواجه السابق ، وإنما انهالت على رسائل القارئات والقراء تعلق على الرسالة وتنتقد كاتبها انتقادات لاذعة، عملا بمبدأ « اذكروا محاسن موتاكم » !

نعم لم أعجب لإحجام القارئات عن التفكير فى الزواج من مثل هذا الأرمل حتى ولو كانت زوجته تستحق كل ما وصفها به فى رسالته أو حتى لو كانت معاناته معها صادقة . . إذ لا أمان حقا لأرمل يكسر ساق زوجته بعد رحيلها حتى ولو فعل ذلك بدافع الحب لغيرها . . فما بالك إذا لم يكن له من دافع لذلك سوى اجترار الحقد والمرارة على راحلة

أصبحت بين يدى خالقها ولم يعد يجوز له إلا أن يطلب لها الرحمة أو يترك حسابها عما جنته عليه لخالقها .

وفى المقابل فكم من زوجة تمنت أن يكون زوجها فى وفاء الأرمل الحزين الذى كاد يعرض نفسه لدخول السجن بإقدامه على دفن زوجته فى حديقة بيته لكى يضع على قبرها كل يوم وردة وكم من أرملة أو مطلقة تمنت لو جمعت الأقدار بينها وبين هذا الأرمل الحزين لتنسيه آلامه وتجدد رغبته فى الحياة وأن تقترن به فيمسح بوفائه لها أحزان تجربتها السابقة .

بل كم من زوج وزوجة احترموا هذا الأرمل على البعد والتمسوا له العذر فيما خالف فيه القانون وتمنوا لو أعفته السلطات المختصة من العقاب تقديراً لظروفه ، وأظنها قد فعلت ذلك فعلاً ، ولم يتجاوز عقابه أخف درجاته وهو الغرامة المالية أو الحبس مع إيقاف التنفيذ . وكم من زوج وزوجة على الناحية الأخرى قد سخطوا على الأرمل الذى يدعو على زوجته بعد أن ضحكوا كثيرا فى البداية لغرابة موقفه وتصويره الساخر لعشرته مع زوجته الراحلة .

إننا قد نضحك أحياناً للأشياء . . لكن ذلك لا يعنى أبداً موافقتنا عليها أو إقرارنا لها . . وقد نبكى أيضا للأشياء . . لكن ذلك لا يعنى أبداً إنكارنا لعدالتها .

وهكذا فعل قراء بريد الجمعة مع كاتب رسالة « الدعاء » ومع بطل قصة الوفاء النادرة الأخرى فى نهاية القرن العشرين .

وما أكثر الغرائب التى قرأتها ولمستها فى رسائل قراء بريد الجمعة وما أعجب ذاكرتى « الخائنة » التى تخذلنى فى كل مرة حين يسألنى أحد عن غرائبها وعجائبها ! .

١٥

لكنها أبدا .. لم تحبه !

كانت صغيرة متفتحة للحياة .. تحلم بالحب والعش الجميل الهادىء مع فتى الأحلام . ورآها هو مرارا فى النادى .. فخفق قلبه بشدة .. وتقدم منها ذات مرة يعرفها بنفسه .. ويسألها عن عنوان أسرتها فدهشت كثيرا .. وارتبكت قليلا ، ثم تمالكت نفسها .. وأعطته العنوان !

لماذا أعطته العنوان ؟ .. هل أعجبها كشاب وتمنته زوجاً لها ؟ لم تستطع أن تجزم بذلك لنفسها . أما هو فقد اعتبر إجابتها لطلبه تجاوبا مبدئيا .. وسعد به كثيرا .. وطار إلى أمه يزف إليها الخبر . أخيرا ابتسمت له الفتاة الجميلة الوديعة المهذبة التى يراها كثيرا فى النادى

وصرحت له بعنوانها . لم يبق إلا السؤال عن أسرتها ثم يسكن القلب إلى من اختاره .

وجاءت التحريات كلها فى صالحها . . فالأب مهندس استشارى جاد فى حياته ومعروف بحسن الخلق . . والأم ربة بيت فاضلة ترعى أولادها ولا تكاد تغادر بيتها إلا فى المناسبات . أما أميرة الأحلام فطالبة جامعية متزنة ووادعة وسمعتها طيبة . وتقدم المهندس الشاب مع أسرته إلى أبيها يطلب يدها . . ورحب به الأب مبدئيا . . وسأل ابنته فترددت . . ألا يعجبك ؟ لا أعرف . ألديك اعتراض عليه ؟ لست متأكدة . إذن فلنرجىء الأمر كله إلى أن تحددى موقفك . . وتم إبلاغ الشاب بالرفض ، فصدم لكنه لم ييأس ولم تيأس أمه من محاولة إقناعها . . فلقد أعجبتها أيضاً شخصية الفتاة وهدوؤها ورزانتها وتمنتها زوجة لابنها .

وتكررت الزيارة وتكرر التهرب من الموافقة . . وسألت الأم ابنتها . . لماذا ترفضينه؟ إنه شاب وسيم وناجح ومهذب تنطق عيناه بحبك فلا تجد الفتاة إجابة مقنعة . . هل تحبين أحدا غيره ؟ . . لم أعرف الحب بعد . . إذن لماذا لا تقبلين به وتعطين لنفسك الفرصة لحبه ؟ سأجرب ، وارتاحت الأم أخيراً. وتمت الخطبة وسعد المهندس الشاب بفتاته سعادة طاغية . . وقبل يدها بامتنان فى حفل الخطبة . . وبدأ الاستعداد للزواج . . وغمرها بحبه وعطفه وكرمه . . وفى غمار استعداداتها للزفاف سألت نفسها . . هل أحبته ؟ فجاءها الجواب كالصدمة !

إذن لماذا ارتبطت به ؟ لماذا تسيرين معه كالمنوَّمة فى طريق لا تريدين

السير فيه إلى نهايته . قالت تحاول تفسير موقفها لنفسها بأنها تحس أنها قد تورطت فى ارتباط لم تشعر بالحب فيه . . ولم تستطع التراجع عنه .

وكالسائرين نياماً مضت فى الطريق إلى نهايته . . وطار الشاب فرحاً بزوجته الملائكية الجميلة ، وعاهدت هى نفسها رغم جفاف منابع الحب فى قلبها ألا يلمسها إنسان سواه . . ليس حباً له وإنما احتراماً لنفسها . وأنجبت طفلين جميلين سعدت بهما واكتملت بهما أركان عش الأسرة الصغيرة . وبعد سنوات توقفت فى منتصف الطريق تسأل نفسها : هل أحبت زوجها ؟ وجاءها الجواب مرة أخرى كالصفعة . هل تريدين استكمال المشوار معه ؟ لا . هل تريدين الطلاق ؟ لا أقدر على مواجهة أهلى ونفسى والمجتمع به ؟ إذن ما المخرج من هذه الورطة؟ وتردد الجواب فى سمعها قاسيا ، فأنكرته فى البداية وهزت رأسها بعنف لتطرده منها . . لكنه بقى يدوى بإصرار فى أذنيها ؟ المخرج هو أن يأتى الحل من السماء ! أن يحين أجل زوجها فجأة . . ويحمَّ عليه القضاء . . فتتحرر من قيده . . وتبرىء نفسها أمام ضميرها من أى إحساس بالذنب تجاهه . . ثم تبدأ حياتها من جديد ؟

إلى هذا الحد كرهته ؟ . . لم تكرهه وهذه هى الحقيقة العجيبة ، لكنها أبداً لم تحبه ولم توقظ لمساته عملاق الحب النائم فى قلبها . لم يكن بشعاً فى معاملته لها . . بل كان محباً رقيقاً يتفانى فى حبها وإرضائها ولا يفوت فرصة بغير أن ينتهزها لتقبيل يدها بل وأحيانا قدمها . . ليعبر لها عن امتنانه لها ولا يدع مناسبة بغير أن يفخر فى مجتمعه الصغير بهذه الزوجة المثالية . . التى يقول للجميع إنه يخاف أحيانا عليها من الوقوف فى

النافذة خشية أن ينبت لها فجأة جناحان فتحلق بهما كالملائكة فى الفضاء السحيق . . ولا تعود إلى عشها الجميل !

لماذا إذن لم تحاول أن تغير من مشاعرها نحوه ؟ لقد حاولت أو هكذا قالت . . لكن مشاعرها لم تتغير تجاهه . . وأبدا لم تتولد شرارة حبه فى قلبها . حاولت أن تتشاغل عن جفاف الحب فى قلبها بكل ما هو مفيد لشخصيتها وأسرتها . . فأكملت دراستها العليا وعملت وحصلت على الماجستير . . وانشغلت بابنها وابنتها وأنشأت معهما علاقة حميمة مثالية ونسيت حكاية الحب فى حياتها . . لكنه لم ينسها . فلقد اندلعت شرارة الحب التى انتظرتها طوال خمسة عشر عاما فجأة . . ولكن فى الاتجاه البعيد !

فقد أحبت زميلا لها فى العمل . . وأحبها . . واندفعا معا بعد مقاومة يائسة إلى المياه العميقة !

خيانة ؟ نعم . . لكنها حاولت أن تدافع عن نفسها بأن ضميرها مستيقظ دوما وأنها عاهدته ألا يلمسها أحد سوى زوجها الذى لا تحبه لكن الخيانة بالقلب . . خيانة أيضا وإثم كبير . . فلماذا ؟ وتجيب على صوت ضميرها قائلة : رباه ما حيلتى . . وأنا لم أحس بنفسى صادقة إلا معه . . ولم أتصرف بفطرتى وروحى البدائية إلاَّ معه ، إننى معه لا أختار كلامى . . وأفكر معه ويفكر معى وإذا طرحت أمامنا مشكلة عرف كل منا بغير كلام ماذا سيكون رأى الآخر فيها . . إنه حب وحشى غير قابل للترويض . عرفت معه كيف تمر ساعات العمل فى لمح

البصر . وتذوقت فيه لأول مرة أغانى الحب والحنين التى كنت أسخر منها . . وصرخت لنفسى وأنا على حافة الأربعين من العمر : يا إلهى إننى أحب . . فأعنِّى على أمرى !

وفكرت طويلاً . . وقررت أن تطلب الطلاق من زوجها لأنها لا تحتمل خيانة القلب لمن مازالت تحمل اسمه . . وطلبت الطلاق . . ففوجئت « بكونصلتو » من الأطباء يجتمع حول فراشها . . وكلام يقال فى هيئة الحكماء . . عن الأعصاب المتعبة. . . وحاجتها إلى الراحة من العمل ومسئولية البيت لفترة مناسبة . . ثم أنواع عديدة من المهدئات .

وضاقت بكل شىء فقالت لزوجها : لا أحبك ولم أحبك يوما واحدا منذ عرفتك . . فأجابها بعطف : إنها أزمة تمر بها معظم الزوجات فى منتصف العمر . . وسوف تمضى بسلام إن شاء الله .

وقالت له : طول عمرى أتمنى موتك لأتخلص من حياتى معك . فأجابها « بفهم » هذا لأن ضميرك حى يرفض الحلول الأخرى التى لا يرضاها لك ! أخيرا قالت له بصراحة قاسية : أحب رجلا غيرك . . ولم أحب فى حياتى سواه ولن أحب غيره إلى نهاية العمر ، صحيح أننى لا أسمح لنفسى بأكثر من الحب الصامت ، لكنه خيانة لا أتحملها أيضا ، فحررنى من قيدى لأريح ضميرى من أثقاله وسوف أتحمل تبعات الانفصال والحرمان من أولادى ثمنا لهذا الحب الطاغى ، فأجابها « بصبر » بأنها أزمة عابرة سوف تتغلب عليها وتبرأ منها . . وأنه يثق فى أن ضميرها وأخلاقها سوف يساعدانها على اجتيازها بأمان !

ويئست من فكرة الطلاق . . ومن حل مشكلتها . . ونهضت من فراشها بعد أسابيع وعادت إلى عملها . . وواصلت حياتها تتفرج على الحياة من حولها فى فتور وتنام بالأقراص المنومة . . وتتعامل مع الجميع برفق ولكن بلا حماس . . ولا إقبال ، وقالت كأنما تجيب على سؤال لم يوجهه لها أحد : أعرفتم الآن من أين تنبت فكرة أكياس البلاستيك التى عبأت بعض الزوجات أزواجهن فيها بعد قتلهم .

قد يعتبرنى البعض إنسانة خاطئة شريرة ناقصة التربية لكنى أقولها بشجاعة أننى غير ذلك تماما . . فأنا سيدة طيبة وجميلة وضميرى يزن الكرة الأرضية كلها . ولست أريد سوى أن تسعدنى الحياة كما أسعدت أنا طوال السنوات الماضية زوجى وأولادى وأسرتى . . أريد من يسعدنى كما أسعدت أنا غيرى ولا سعادة لى إلا مع من أحببت وكان لسوء حظى شخصا آخر غير زوجى . . وفى غمار أزمتها كتبت إلى تعلق على رسالة نشرتها فى بريد الجمعة بالأهرام لزوجة تواجه موقفا مشابها فروت لى قصتها ، ثم قالت : قرأت ردك على الزوجة التى تشكو لك من تعاستها مع زوجها الذى تكرهه منذ عرفته ، ويظنها زوجها كما يفعل زوجى ملاكا مثالياً ، لكنها خائفة من أن تتخلص من حياتها التعسة إشفاقاً على نفسها من كلمة « مطلقة » وخوفا من المجهول ، وقد نصحتها يا سيدى بأن تراجع نفسها لمدة عام آخر لا تنجب خلاله فإن ظلت مشاعرها ثابتة على كراهيته طلبت الطلاق وتمسكت به حتى تناله ، ثم بدأت حياة جديدة لكيلا تظلم معها زوجها الذى تحمل له كل هذه الكراهية بلا ذنب جناه وحتى لا تخونه بقلبها وفكرها كما قد تفعل فى أية لحظة .

أما أنا فإنى أقول لها عن تجربة شخصية إن من « واجبها » أن تحصل على الطلاق منه الآن وليس بعد عام آخر بغير أن تخشى لقب المطلقة أو تفزع منه . . لأن مشاعرها لن تتغير حيال زوجها لسبب جوهرى هو أنهما لا يتراسلان على نفس الموجة كما هو الحال معى وزوجى ، وأريدها أن تفعل ذلك الآن بلا تردد حتى لا تتعذب كما أتعذب أنا الآن . . فهى ليست ملاكا . . ولا أنا أيضا ملاك من السماء . . وإنما كل منا امرأة لها مطالبها فإن لم تتحقق لها فى أول فرصة زواج . . فلماذا لا تجرب مرة أخرى . . وربما مرة ثالثة ؟ إن عمر الأرض سبعة عشر مليار سنة شمسية وقد مضى من عمرها الكثير ولم يبق إلا القليل . . فكيف نضن على أنفسنا بالسعادة فى هذا الوقت القصير الباقى من عمرها وعمرنا ؟

ووقّعت رسالتها فى نهايتها بهذا التوقيع : صديقتك الملاك المثالى ! وقرأت الرسالة وتوقفت طويلا أمام بعض عباراتها . . وأمام حرارة كلماتها بغض النظر عن اتفاقى أو اختلافى مع صاحبتها المثقفة فى الرأى . . ثم أودعت الرسالة ملف الرسائل الممنوعة من النشر فى بريد الجمعة ليس لتفاهة المشكلة فالحق أنها مشكلة حقيقية وإنما خوفا من الوقوع فى مصيدة « تجميل الخطأ » أو تبريره . . أو التماس الأعذار له بما يغرى الآخرين بالإقدام عليه مدفوعين بإحساس الارتياح الآثم الذى يحس به المرء أحيانا حين يعرف أنه ليس وحده من يرتكب نفس الخطأ . . وأن هناك من هم مثله فى نفس السفينة . . ، بل ويجدون أيضا فى أنفسهم الشجاعة لتبرير ما فعلوا أو للدفاع عنه بمنطق قد يبدو خلابا أو مقنعا فيستهوى بعض المترددين ويدفعهم إلى نفس الطريق !

نعم . . حجبت الرسالة عن النشر واحتفظت بها فى ملف الرسائل الممنوعة الذى يحوى الكثير والكثير من غرائب الحياة . . وعجائب النفس البشرية التى لم يكشف العلم بعد كل أسرارها .

أما القضية التى تثيرها الرسالة فلقد حسمتها منذ زمن طويل بعد تفكير عميق وتوصلت إلى رأى محدد فيها أصارح به كل من تلجأ إلىّ فى مشكلة مشابهة ، وهى أن الناس ينقسمون أمام طلب السعادة الشخصية إلى موقفين : الأول هو موقف من لا يستطيع أن يستشعر السعادة الحقيقية إذا ترتب عليها إشقاء أعزائه أو تعاستهم ، فيضحى بسعادته الشخصية لحساب سعادة أبنائه ويحتفظ بمشاعره فى مكان من القلب . . ويتعزى بها عما يعانيه فى حياته الخاصة ثم يمضى فى الحياة حاملا صليبه على كتفه إلى أن يصل أبناؤه إلى بر الأمان ، أو ترق له الحياة فتهبه السعادة ذات يوم بغير إشقاء الآخرين .

أما الثانى فهو موقف من لا يحتملون التضحية بسعادتهم الشخصية لحساب أحد ولو كانوا أبناءهم . . ويؤمنون بمنطق الممثلة جولييت التى أحبت الأديب الفرنسى العظيم فيكتور هيجو ووهبت له حياتها وهو زوج لأخرى وأب لأبناء كثيرين وكتبت له ذات مرة :

« لو كان للإنسان أن يشترى سعادته بحياته لأنفقت حياتى منذ زمن طويل ! »

وهؤلاء يطلبون سعادتهم الشخصية مهما ترتب على نيلها من تبعات يدفع أعزاؤهم ثمنها . ولسنا هنا بصدد محاسبتهم على ذلك ، لكنى

أطالب دائما كل زوجة تروى لى قصة مشابهة بأن تحاول دائما تغليب سعادة الأبناء خاصة إذا كانوا صغارا على سعادتها الشخصية ، فإن لم تطق صبرا على ذلك فإنى أرى أن انفصالها عن زوجها وتحمل كل تبعاته أكرم لها من الاستمرار فى الخطأ دون محاولة للتوقف عنه . . أو الخروج من دائرته .

اختيار صعب ؟ نعم . . لكن لابد من حسمه والانحياز لأحد الموقفين بوضوح وتحمل تبعات كل اختيار .

أما بطلة القصة المثقفة التى تتحدث عما بقى من عمر الأرض . . وعمر السعادة فقد ذكرتنى نصيحتها للزوجة الأخرى بأن تنفصل عن زوجها وألا تخشى مواجهة التجربة أو الخوف من كلمة مطلقة ، بقصة الحمامة والثعلب والطائر المعروف باسم مالك الحزين التى جاءت فى «كليلة ودمنة » . . فلقد اعتاد الثعلب أن ينتظر حتى تبيض الحمامة فى عشها بأعلى الشجرة ثم يأتى إليها ويطلب منها أن تلقى إليه بيضها وإلا صعد إليها وقتلها فتلقى إليه بيضها باكية إلى أن شكت لمالك الحزين حالها ، فطلب منها إذا جاءها الثعلب فى المرة القادمة وتوعدها نفس الوعيد أن تطلب منه أن يصعد إلى الشجرة لينال ما يريد ، لأنه لا يستطيع ارتقاء جذع الشجرة ، وجاء الثعلب وتوعدها فأجابته بما علمها مالك الحزين ، وفهم الثعلب أن هناك من نصحها وسألها عنه ، وتوجه إلى مالك الحزين وأبدى له إعجابه بحكمته وسأله أين تجعل رأسك إذا جاءتك الريح من شمالك فأجابه : أجعله عن يمينى فطرب للإجابة الذكية وسأله وأين تجعله إذا جاءتك من يمينك فأجاب : أجعله عن

شمالى فتأوه إعجابا بهذه الفطنة ثم سأله وأين تجعله إذا جاءتك من كل ناحية . . فأجابه : أجعله تحت جناحى . . وطلب منه الثعلب أن يريه كيف يفعل ليتعلم منه حسن التصرف فأدخل مالك الحزين رأسه تحت جناحيه ، وانقض عليه الثعلب فى لحظة وتمكن منه ثم قال له قبل أن يلتهمه :

يا عدو نفسه . . ترى الرأى لغيرك . . وتعلّمه الحيلة . . وتعجز عن ذلك لنفسك؟ !

وهكذا نفعل جميعا . . فى بعض الأحيان !



سألتنى المذيعة الشابة : هل تتأثر بمآسى بريد الجمعة التى تكتبها كما نتأثر بها نحن.. وهل تبكى مع سطور بعضها .. كما نبكى نحن مع كثير منها ؟ فأجبت : من لا يتأثر .. لا يؤثر ! فإذا كانت بعض رسائل بريد الجمعة تؤثر فى قرائه وتستدر دموعهم .. فلابد أنها قد أثرت فى قبل أن تؤثر فيهم .. ولو لم تفعل ذلك لما أهاجت مشاعرى ودفعتنى لأن أكتبها وأعرضها على القراء وأشركهم مع صاحبها فى أشجانه وآلامه، بل إنى لاحظت من خبرة السنين فى التعامل مع هموم الآخرين ، أن ما أتوقف عنده متأملا ومتأسيا وأحيانا دامعا فى قصص هؤلاء المهمومين ، يكون هو نفسه ما أسمع من القراء فيما بعد أنهم قد بكوا عنده أو تألموا له، فكأننى بذلك قد اكتسبت خبرة التنبؤ بمواطن البكاء فى رسائل من

أنشر قصصهم ببريد الجمعة ، لكنها خبرة بدائية لا تعتمد على أجهزة حديثة ولا تكنولوجيا متقدمة ، وإنما تعتمد فقط على الغدد الدمعية وعلى ضيق الصدر أو انفراجه تأثرا بما أقرأ .

فإن كان للخبرة دور فى ذلك . . فهو دور نسبى يقلل من المعاناة أحيانا بسبب الاعتياد وعامل التكرار لكنه لا يحول دونها .

عادت المذيعة الشابة تسألنى : لكن لماذا تؤثر فينا معظم رسائل بريد الجمعة . . وتستدر دموعنا أكثر مما تفعل أحيانا بعض الأفلام الميلودرامية فى كثير من الأحيان . . هل عندك تفسير لذلك ؟

فأجبت : نعم . . لأن النائحة الثكلى ليست كالمستأجرة ! ففى الأفلام والقصص نقرأ تجارب إنسانية وفنية قيمة تؤثر فينا . . وقد تستدر أحيانا دموعنا . . لكن عقلنا يعى طوال الوقت أننا نقرأ أعمالا فنية مؤلفة، أما فى أبواب المبريد بصفة عامة فنحن نقرأ قصصا نعرف أن أصحابها أشخاص حقيقيون يعيشون بيننا وينزفون آلامهم على الورق أمامنا . وحيث أنه « لا يعرف الشوق إلا من يكابده » فإن كلماتهم تلقى صدى أعمق لدينا ، لأنهم « ينوحون » بالأصالة عن أنفسهم وليس بالوكالة عن أحد آخر كما تفعل النائحة المستأجرة !

رجعت المذيعة الشابة تسأل : ما هى أكثر المواقف الإنسانية التى تأثرت بها أنت شخصيا فى رسائل بريد الجمعة خلال السنوات الماضية ؟

فكرت قليلا ثم قلت : تمس قلبى المواقف الإنسانية البسيطة أكثر مما تؤثر فى المواقف الميلودرامية الصاخبة . وتبكينى عبرة الرجل الصامتة

. . أكثر مما يؤثر فى عويله، وتهزنى الدموع الحبيسة فى عينى المرأة وهى تقاوم النزول أكثر مما تهزنى دموعها المدرارة كفيضان النهر . . ويؤلمنى إحساس الإنسان بالقهر والعجز أمام أقدار لا حيلة له فيها ولا طاقة له بها أكثر مما تؤلمنى بعض فواجع القدر نفسها . ويرق قلبى لمن يشكو لى همومه الإنسانية كوحدته أو افتقاده للأهل والرفيق . . أو مرضه . . أو تعاسته الخاصة أو انقطاع صلة رحمه أو غدر الأحباء به أو جحود الأبناء له ، أكثر مما يرق لمن يشكو لى هموماً تجارية أو مالية أو هموما تتعلق بالنزاعات بين الأفراد أو الطموح لتحقيق حياة أرقى . وتدمع عينى فى بعض مواقف السرور كما تدمع فى مواقف الألم . . ومازلت حتى الآن وقد بلغت من العمر ما بلغته أختنق أحيانا بدمع حبيس كلما شاهدت زفة فرح لعروسين من البسطاء كل ما حولهما بسيط . . ورخيص . . وبائس فأتردد بين الابتهاج بهما . . والرثاء لهما ويتغلب الرثاء فى الغالب فأكتئب لهما بدلا من أن أبتهج ! وهذه طبيعة « اكتئابية » يبدو أننى قد اكتسبتها من طول معاصرة الهموم والتعامل معها .

قالت المذيعة الشابة : ما هى أكثر الرسائل التى أثرت فيك خلال السنوات الماضية؟

أجبت : كل الرسائل الحزينة . . وكل الرسائل التى تشكو من تصاريف القدر وفقد الأعزاء . . وانهزام الإنسان أمام المرض . . وانهزام الحب أمام الظروف المادية . . أو الغدر وانعدام الوفاء . . لكن بعض مواقفها أثرت فى أكثر من غيرها ، فإذا استرجعت ذاكرتى وجدتنى أتوقف أمام مواقف مثيرة للتأمل لا تتكرر كثيرا فى الحياة . . وحين تقع

تترك فى نفوسنا أثراً مبهما كالحزن البنفسجى الشفيف . . مثل موقف الشاب المكافح الذى كان يدرس بكلية طب الاسكندرية ويواجه ظروفا اجتماعية قاسية . . ولا يجد قوت يومه ولا تكاليف دراسته فعمل فى أعمال عديدة بعيدا عن منطقة كليته ليوفر لنفسه الحد الأدنى من نفقات الحياة ، وقد عمل فى البداية كبائع سمك فترة ، فكان يخرج فى الفجر ويشترى السمك من الصيادين ويطوف به الشوارع ليبيعه ويكسب قروشا قليلة ثم يعود إلى بيته ويغير ملابسه ويذهب إلى كليته ، ثم أعجبت به زميلة له لاحظت عليه إرهاقه الدائم وجديته واستقامته فاقتربت منه . . واقترب منها . وأتاحت له الظروف أن يعمل عاملا لتوزيع البوتاجاز ، فكان يبدأ يومه بالذهاب إلى المستودع ويحمل على عربة يد صغيرة٢٠ أنبوبة بوتاجاز يطوف بها الشوارع فى الصباح الباكر، ويحمل الأنابيب الممتلئة على ظهره إلى الشقق وينهى عمله قبل العاشرة صباحاً ، فيغير ملابسه ويذهب إلى الكلية . واستمر يمارس هذا العمل عامين تعمقت خلالهما المشاعر بينه وبين زميلته ، إلى أن مرض زميل له فأضاف صاحب المستودع إليه مهمة التوزيع فى منطقة الزميل المريض ، وأدى عمله فى سلام ، ثم طلب منه ذات يوم بواب إحدى العمارات بالمنطقة الجديدة أن يحمل أنبوبه إلى إحدى شقق العمارة ففعل . . ودخل إلى المطبخ وقام بتركيب الأنبوبة واختبارها ثم حمل الأنبوبة الفارغة على ظهره وغادر المطبخ إلى باب الشقة ، واستدار ليتقاضى أجره ففوجىء بزميلته تقف وراء ربة البيت تتأمله صامتة ومذهولة ، فتجمد فى موقفه لحظات ثم أحنى رأسه خجلا وتسلم أجره . . وهرول على السلم وهو فى

قمة الحرج والألم . ورغم أن الفتاة حاولت بعد ذلك أن تقنعه بأنها معجبة به وبكفاحه . . إلا أن واقعه الاجتماعى قد حال بينه وبين الارتباط بها بعد التخرج فقد رفضته أسرتها . . ولم تكافح فتاته طويلا لإقناع أهلها به ، واستسلمت بعد مقاومة قصيرة لرغبة الأسرة فى أن تتزوج من عريس مناسب اجتماعيا وماديا . . وتزوجته فلم تسعد به . . ولم تستقر معه أكثر من ثلاثة أعوام ذاقت خلالها أهوالا من التعاسة والمرارة وعادت الى بيت أسرتها مطلقة حزينة تحس بأنها قد أخطأت فى حق نفسها وحق شريك أحلامها السابق حين لم تتمسك به إلى النهاية ، وبعد فترة من التفكير ومراجعة النفس قررت أن تصلح خطأها، وبحثت عن الفتى المكافح القديم وركبت القطار إليه فى أقصى الصعيد حيث هاجر إلى هناك هاربا من تعاسته . ورفع الطبيب الشاب رأسه وهو جالس إلى مكتبه فى عيادته البسيطة فوجدها أمامه فجأة . . تنظر إليه فى خجل . . وتوجس . . وتنتظر كلمته . . فى مصيرها . . هل يعفو عنها . ويستكمل معها القصة الناقصة أم يستسلم للمرارة القديمة ويرفضها ؟ فلم تمض ساعتان حتى كان المأذون يعقد قرانهما فى شقة صاحب البيت الذى تقع فيه العيادة ، وكان صاحب البيت الشهم يحتفل بزواجهما ويتصل بأهلها فى الاسكندرية ليبلغهم الخبر . ورغم أن القصة قد انتهت نهاية سعيدة ، فلقد تأثرت بأحد مواقفها أبلغ التأثر ، وهو اللحظة التى التقت فيها عين طالب الطب المكافح وهو يرتدى ملابس العمال ويحمل أنبوبة البوتاجاز على ظهره . . بعينى فتاة القلب الذاهلة التى تنظر إليه فى دهشة . . وانزعاج ! وقد تأثرت بها لأنها «لحظة

انكسار » إنسان أمام واقعه الأليم أحس فيها بالحرج والألم . . والعجز . . والهوان ، ولا شيء يمس قلبي كما يمسه انكسار الإنسان الذى كرمه ربه ورفعه فوق كل الكائنات ، أمام ظروف أقوى منه . . أو واقع يخجل منه . . كما تأثرت أيضا باللحظة التى رفع فيها هذا الطبيب الشاب رأسه فى عيادته على بعد ٦٠٠ كيلو متر من المدينة التى شهدت هزيمة حبه ، فرأى أمامه فتاة القلب التى لم ينسها لحظة واحدة خلال السنوات الماضية . . تنظر إليه متوجسة من أن يكون رد فعله للقائها مخيبا للآمال. إنها لحظة انكسار أخرى لكنها تختلف عن الأولى لأن صاحبتها تحسه بدافع الندم على ما فات . وليس بدافع العجز أمام الظروف القاهرة .

باختصار قلت للمذيعة الشابة . . . كل ما يشعر الإنسان بالهوان والعجز وضآلة الشأن . . والمرارة . . يؤلمنى ويثير مواجعى .

قالت المذيعة الشابة : هل يرتبط التأثير عندك بالمواقف الحزينة أو المؤلمة فقط ؟

أجبت : ليس دائما . . فهناك بعض المواقف « البهيجة » التى تثير من الألم أحيانا أكثر مما تثيره بعض المواقف الحزينة ، بل إن هناك من البشر من قد يبكينى فرحهم بأكثر أحيانا مما قد يبكينى حزنهم ، وهؤلاء هم الأشخاص الذين نستطيع أن نقول عنهم : إن أحزانهم كثيرة وأفراحهم قليلة ، فإذا رقت الحياة لهم ووهبتهم لحظة فرح طاغ مباغت . . استدروا بفرحهم الصادق من الدموع أكثر مما استدروا من قبل بآلامهم . إن فرحة « قليل البخت » تبكينى ولا حيلة لى فى ذلك ولا

تفسير له منطقيا أو علميا عندى !! وإذا سألتينى عن مثال لذلك فسأحكى لك موقف الشاب الذى نشرت رسالته منذ ٧ سنوات أو أكثر بعنوان « الفصل الأخير » فى زفاف شقيقته الوحيدة ، فقد نشأ يتيمين فى رعاية أبيهما وتوفى الأب وهما فى المرحلة الثانوية فتساندا فى الحياة شقيقين يتيمين لا خال ولا عم ولا قريب واضح القرابة لهما ، كأنهما مهاجران إلى مصر من قارة بعيدة ، يعيشان على معاش الأب وكلما اشتدت عليهما ضغوط الحياة بكت الشقيقة فواساها الشقيق وهو يجفف دموعه ! .
ومضت بهما الحياة حتى تخرجا وعمل الشقيق وعملت الشقيقة ، ثم تقدم لها شاب أحبها فقدم لها شقيقها كل ما يملكه من إمكانات وباع حلى أمهما واستدان من عمله لكى يزفها إلى زوجها بشكل كريم يعوضها عن يتمها وانعدام الأهل ، وجاء حفل الزفاف فسعد الشقيق بفرحة شقيقته سعادة طاغية ، وغلبته مشاعره فأمسك بالعصا ورقص مبتهجا بين يدى شقيقته وعريسها . . ثم التقت عينه صدفة بعينى شقيقته فوجدها تصفق له ضاحكة ودموعها تسيل كالنهر، فعز عليه ألا يشاركها دموعها فجاوبتها دموعه وهو يرقص طربا ووصف لى هذا المشهد معلقا عليه بعبارة لم أنسها حتى الآن هى « وكأننا لا نعرف فى حياتنا إلا البكاء » ! وفى القصة تطورات أخرى مؤلمة . . لكنى لا أتوقف دائما إلا أمام هذا المشهد الفريد . إنها فرحة ذوى الأفراح القليلة والأحزان الكثيرة التى تثير التأمل . . وتوجع القلب ! ومن أمثلتها أيضا فرحة الشقيق الأصغر فى رسالة « أوراق الشجرة » وقصته أنه الإبن الأصغر لطبيب كبير شهير . . أراد أن يكون كل أبنائه من الناجحين

مثله فحققت البنت الكبرى والإبنان الأولان آماله وتخرجوا فى كليات مرموقة وتعثر الإبن الأصغر سيىء الحظ الذى رحلت عنه أمه وهو صغير وفشل فى الحصول على الثانوية العامة وهال الطبيب الكبير الذى تزوج بعد وفاة زوجته أن يكون له ولد « فاسد » لم يكمل تعليمه فطرده من بيته وقاطعه نهائيا وحرمه من جنته لرفضه أن يبدأ من جديد ، ويدرس الثانوية العامة بنظام المنازل . وفشل الشاب فى استرضاء أبيه وإقناعه أن هذه هى قدراته التى تختلف عن قدرات أشقائه وأنه لا يريد منه شيئا سوى ألا يحرمه من أبوته ، لكن قلب الأب أوصد فى وجهه رغم تعاطف أشقائه معه ، فخرج الشاب إلى الحياة يكسب رزقه بأعمال صغيرة . . وعمل بائعا فى محل أحذية . . ورضى عنه صاحب المحل لأمانته وأخلاقه لكنه فوجىء به ذات يوم يستدعيه ويعطيه أجره مضاعفا ويصرفه فوقف الشاب مبهوتا ومختنقا بالدمع وسأله بصوت خفيض : لماذا تقطع رزقىَ يا سيدى . . هل رابك منى شىء ؟ فيجيبه صاحب المحل متألماً : لا والله لم ألمس منك إلا كل خير وجدّ وأمانة وأخلاق كريمة . . ولكن ! ويسكت صاحب المحل . . ويفهم الشاب أن أباه قد « وصل » إليه وأرغمه بنفوذه على طرده ليجبره على تحقيق حلمه المستحيل فى إعادة الثانوية العامة ، ويظل الشاب ينتقل من عمل إلى عمل ويحرص على صلته بأشقائه الذين هاجر أحدهم إلى أمريكا ليحصل على الدكتوراه وتزوجت الكبرى وهاجرت إلى أوربا مع زوجها إلى أن جمع الله بينه وبين فتاة مكافحة من أسرة صغيرة فتزوجا وساندته أسرتها البسيطة وأعانته على فتح محل صغير لبيع السجائر والحلوى فى

أسفل بيتها ، ويحرص الأشقاء المرموقون على صلتهم الأخوية بشقيقهم ضئيل الشأن أبيض القلب الذى يحمل لهم فى قلبه أعمق مشاعر الحب والعرفان ، فى حين يواصل الأب القاسى رفضه له ومقاطعته حتى النهاية ، ثم يكون الشاب المكافح واقفا فى محله الصغير ذات يوم فتتوقف سيارة أجرة أمامه ويفاجأ بشقيقه الدكتور المهندس الغائب فى أمريكا منذ سنوات ينزل منها ومعه زوجته الأمريكية وابنه الطفل الوليد فتنتابه فرحة هستيرية برؤية شقيقه وحضوره مع أسرته لزيارته ، فيعانقه مرات ومرات ويرحب بزوجته بحراره طاغية . . ثم يحمل طفل شقيقه الذى لم يره من قبل فوق رأسه وتغلبه مشاعره فلا يدرى إلا وهو يرقص به فى الشارع سعيداً . . والطفل آمن باسم مستسلم له كأنه كما قال لى فى رسالته «يعرف أننى عمه» ! ثم يصطحب الجميع إلى شقته البسيطة فوق المحل . . ويمضى الجميع معا وقتا سعيدا صافيا ويكتب الشقيق لشقيقه بعد عودته إلى أمريكا أنه قد زار فى مصر أماكن فخيمة كثيرة ، وأقام فى أفخر الفنادق ، وتناول طعامه فى أغلى المطاعم « فوالله إنى لم أشعر فى مكان منها بمثل ما شعرت به من أمان وسلام وصفاء وأنا فى بيتك الجميل الصغير ولم أستطب طعاما . . كما استطبت طعام زوجتك المهذبة الودودة ، فحتى الماء كان له فى بيتك طعم خاص لا مثيل له . . وزوجتى تشاركنى فى هذا الرأى » ولقد أوجعت هذه القصة قلبى بأحزانها وأفراحها معا . . فتوقفت أمام اللحظة التى يسأل فيها الشاب المكافح صاحب محل الأحذية بانكسار عن سبب قطع رزقه . . وتوقفت أطول أمام فرحته « المؤلمة » بمجىء شقيقه المرموق مع زوجته الأمريكية

وطفلهما ليزوروه في عمله الصغير وسكنه المتواضع ، وكان أكثر ما آلمنى فيه هو إحساسى بأن جزءا كبيرا من أسباب هذه الفرحة الطاغية يرجع إلى سبب مؤلم إنسانيا ، هو استشعار الشاب البسيط « للتكريم » الإنسانى له من جانب شقيقه اللامع باصطحاب زوجته وطفله إليه كأنما يقول له إنك شقيقى مهما اختلفت حظوظنا فى الحياة . . لقد كانت فرحة « عرفان » إلى جانب كونها فرحة الشقيق برؤية شقيقه الغائب . . وقديما قالوا : إن من « يعرف » أكثر « يحزن » أكثر لأنه يفهم أكثر الأبعاد المؤلمة لبعض تصرفات الإنسان المعذب بالبحث عن سعادته منذ الأزل . .

وأخيرا قلت للمذيعة الشابة : إنى قد تعبت من الاجترار واستعادة المشاهد المؤلمة ، ورجوتها أن يتوقف الحديث عند هذا الحد ، فقالت : سؤال أخير . . لمن تكتب باب بريد الجمعة فى « الأهرام » بأحزانه ومآسيه هذه ؟ تفكرت فى سؤالها طويلا ثم قلت : عندى جوابان كلاهما يكمل الآخر الأول من إنشائى وهو أنى أكتبه لمن يريدون أن يشاركوا الآخرين أحزانهم ويخففوها عنهم ولو بالتعاطف والمشاركة الإنسانية معهم . . وأكتبه أيضا لمن يريدون أن يثروا خبراتهم بالحياة بتجارب الآخرين وخبرة الآلام الثمينة فى حياتهم . . وأيضا لأصحاب المشاكل والهموم أنفسهم الذين قد يؤدى جهدى المحدود إلى إضاءة بعض الطريق لهم أو إلى إعانتهم على تقبل أقدارهم . . والتواؤم معها أو إلى تفادى بعض أشواك الحياة وبعض عثرات الطريق . أما الجواب الآخر فلقد قاله الأديب السويسرى العظيم فردريش دورنمات لمن سألوه نفس

السؤال وهو : إننى أكتب دائما للذين إذا استمعوا إلى محاضرات فى الفلسفة أغرقوا فى النوم ، كما أكتب لهؤلاء الذين يشاركوننى الاعتقاد أننا نستطيع أحيانا أن ننقذ الإنسان . . من مخالب الإنسان!

وما أطول مخالب الإنسان فى بعض الأحيان . .

وما أطول شقاء الآخرين بها .



كثيرون يعرفون أن هناك علماً حديثاً اسمه علم السلامة يستهدف حماية الإنسان من مخاطر استعمال الآلات فى المصانع وحماية الأرواح من احتمالات الحريق وغيرها، لكن قليلين حقا من يعرفون أن هناك علماً أكثر حداثة منه اسمه علم « السلامة الزوجية» وأن لهذا العلم الجديد خبراء ومتخصصين مهمتهم حماية الحياة الزوجية من مخاطر الصراع بين الأزواج .. واحتمالات نشوب «حريق » يدمر العلاقة بينهم فى أية لحظة.

والعلم الجديد موطنه كالعادة أمريكا التى تنتشر فيها معاهد خاصة من كل نوع تهتم بتعليم الإنسان فن التفاهم مع البشر .. وفن التحدث

والإقناع . . وفن التأثير فى الآخرين . . وفن مغالبة الوحدة . . إلخ . وقد انضمت إلى هذه المعاهد مؤخراً معاهد جديدة تدرب من يلتحق بها من الأزواج والزوجات على كيفية تفادى الصراع بينهم وعلى بث الحرارة والانسجام فى علاقاتهم ! .

ومع أن ذلك قد يبدو ترفاً يتفق مع أسلوب الحياة فى أمريكا حيث تنتشر عيادات الطب النفسى . . وتنتشر عادة أو سلوك الاتجاه إلى الطبيب النفسى وطلب مشورته فى أبسط المواقف التى تعترض حياة الإنسان . . إلا أن الاهتمام بتحسين قدرات الإنسان على التفاهم مع الآخرين ليس ترفاً فى واقع الأمر . . وإنما احتياج إنسانى قديم يؤكد لنا أن الإنسان قد يحتاج لأن يعيش حياته عدة مرات لكى يستطيع أن يتفادى أخطاءه التى حالت دون التواصل بينه وبين أشخاص فقد حبهم أو صداقتهم خلال رحلة حياته .

ألسنا نقول لأنفسنا كثيراً . . لو رجعت بنا الأيام إلى الوراء بضع سنوات لما تصرفنا على النحو الذى تصرفنا به مع بعض الأعزاء والأصدقاء . . ولما فقدناهم . . ! .

ماذا حدث لنا إذن حتى نقول ذلك الآن ؟ . لقد تغيرت أفكارنا التى أملت علينا تصرفاتنا الخاطئة السابقة وازددنا فهما للحياة وللبشر فازددنا تقديراً لما لم نستطع فهمه أو تقدير دوافعه فى الماضى . . وازددنا التماساً للأعذار للآخرين . . فصفحنا عما بدا لنا وقتها مثيراً للغضب أو غير قابل للتسامح معه .

أو ربما ازددنا ثقة فى أنفسنا فرأينا فيما أغضبنا قديماً مجرد سفاسف لا تستحق منا أن نفقد صديقاً بسببها .

أو ربما ازددنا فهما للطبيعة البشرية . . فازددنا استعداداً للتجاوز عن بعض هناتها وصغائرها . . ألم تقل لنا الأديبة الفرنسية مدام دى ستايل أن فهم كل شىء يؤدى إلى العفو عن كل شىء ؟ . إذن لابد أننا قد فهمنا فصفحنا وتجاوزنا عما لم نكن نتسامح معه من قبل .

فسوء التفاهم هو مشكلة الإنسان منذ فجر البشرية وبالتحديد منذ عجز هابيل عن إقناع أخيه قابيل بأنه لا ذنب له فى أن الله قد تقبل قربانه ولم يتقبل منه هو .

ومن نقطة تحسين التفاهم بين البشر يبدأ مجال علم السلامة الزوجية الجديد فهو يؤمن بأن كثيرين من الأزواج والزوجات يعيشون تحت سقف واحد وينامون فى فراش واحد ، ويتناولون طعامهم على مائدة واحدة . . ومع ذلك ؛ فهم لا يتواصلون تواصلاً إنسانياً صحيحاً . . ولا يجمع بينهم شىء فى « العمق » . . على كثرة الأشياء العديدة التى تجمع بينهم فوق السطح ، هناك الأبناء وهناك التعود على شكل الحياة والتسليم بها وهناك الرغبة المشتركة فى استمرار الحياة اختياراً . . أوعجزاً عن تحمل مخاطر التغيير.

أما « فى العمق » . . فقد لا يكون هناك الكثير مما يجمعهم معاً . . فلا حب . . ولا تفاهم مشترك . . ولا تقدير متبادل . . ولا اعتزاز

خاص بشخص شريك العمر بعيداً عن الروابط العائلية والابناء والاعتبارات الاجتماعية .

والعلاقات الزوجية بل والعلاقات الإنسانية بوجه عام التى تفتقد الأشياء المشتركة . . « فى العمق »هى دائماً العلاقات المرشحة «للانفجار» من الداخل انفجاراً قد يطيح بها فى أى مرحلة من العمر .

لهذا فإن خبراء هذا العلم الجديد يحاولون أن يعلمونا كيف نتواصل مع شركاء الحياة على مستوى العمق . . وليس على مستوى السطح تفادياً لمخاطر الصراع ومخاطر الانفجار المفاجىء . وقد اكتشفوا أن كثيرين من الأزواج والزوجات حتى الذين جمعهم الحب فى بداية الزواج ، قد يمضون سنوات دون أن يتحدث أحدهم إلى الآخر «عن قرب» ! .

أما الحديث عن قرب فى عرفهم فهو الحديث الذى يتناول المشاعر الشخصية . . ويفصح عن الحب . . ويكشف عن الاعتزاز بشخص شريك العمر . . لشخصه وليس لأنه أبو الأولاد أو أمهم . . وهو أيضاً الحديث الذى يشعر الطرف الآخر بأنه شديد الأهمية له ولا يزال يرغبه ويسعد بقربه ويفتقده إذا غاب .

أما الحديث عن بعد فهو الحديث حول شئون الحياة اليومية ومشاكل الأولاد . . ومصروف البيت . . وفاتورة الكهرباء . . وحكايات الجيران . الخ .

وهم يقولون إن استمرار حبل الحديث بين الزوجين حول كل الأشياء

الصغيرة مفيد ومطلوب لأنه نوع من التواصل الإنسانى إلا أنه من الضرورى حرصاً على الصحة النفسية والسلامة الزوجية أن يكون هناك إلى جواره حديث آخر « عن قرب » يعمق الروابط . . ويجمل الحياة ويهون متاعبها ويجدد الشباب . ولأن الأمريكيين يحبون دائماً «القوالب الجاهزة » . . فإن خبراء هذه المعاهد الجديدة يقدمون لهم بعض «النماذج» العملية لفن الحديث عن قرب بين الأزواج والزوجات ! .

وفى أحد البرامج التليفزيونية الأمريكية شاهدت منذ فترة قصيرة تطبيقا عملياً للفكرة ! . ورأيت خبيراً ينفذ التجربة على زوجين حقيقيين التحقا بمعهده لتحسين التفاهم بينهما وراقبته باهتمام ودهشة وهو يطلب من الزوجين أن يجلسا على أريكة مريحة وأن يضع الزوج ذراعه على كتف زوجته بحنان وتريح الزوجة رأسها على كتف زوجها برقة ثم يطلب منهما بعد ذلك أن يناقشا ما أرادا مناقشته من أمور حياتهما العاجلة ، وهما على هذا الوضع مؤكداً لهما أن النتائج ستكون مختلفة تماماً عنها لو كانا قد تناقشا وهما فى وضع المواجهة الذى يتحفز فيه كل طرف لإثبات صحة رأيه وخطأ رأى الآخر ! .

ومن وضع التفاهم المريح هذا ينصح الخبراء الأزواج والزوجات أن يناقشوا كل مشاكلهم وخلافاتهم وبرامجهم للمستقبل .

ولتحسين التفاهم بينهم يقولون لنا ولهم : إن معظم المشاكل قد تنشب أحياناً لأننا لا نستوعب جيداً ما قاله الطرف الآخر فغضبنا منه قبل أن نسمعه كاملاً أو واضحاً ويقولون لكل طرف : اسمع أولا قبل أن

تتكلم ، فقد تكتشف أنك غضبت لأنك قد أخطأت سماع بعض التفاصيل أو لم تصبر لكى تسمع باقى الكلام ! .

أما حين تتكلم فاجعل نفسك واضحاً تماماً للطرف الآخر وتأكد من أنه قد سمع جيداً ما أردت أن تقوله له وليس شيئاً آخر . . فكثير من المشاكل الزوجية ومشاكل البشر قد تنشب أحياناً لأن كل طرف يحاسب الآخر على ما لم يقله بالضبط ويلومه على ما لم يسمعه منه بوضوح .

والحق أنه ليست هناك وجهة نظر ليست قابلة للمناقشة باحترام حتى لو رفضناها فى النهاية ، وأحق الناس بأن نطبق عليهم هذا المبدأ من مبادىء التفكير هم شركاء الحياة ، لكننا للأسف لا نفعل ذلك فى كثير من الأحيان ونجرح مشاعر الآخرين ليس برفضنا الاقتناع بوجهة نظرهم . . وإنما بازدرائنا لآرائهم . . ومبادرتنا برفضها قبل المناقشة ! .

والذين يريدون أن يتفاهموا أفضل مع البشر عليهم أن يشعروا الآخرين بأنهم قد أبدوا وجهة نظر جديرة بالاحترام ولا تخلو من وجاهة . . قبل أن يختلفوا معها ويشرحوا أسباب هذا الاختلاف .

وكالعادة يسعف خبراء هذه المعاهد الأزواج والزوجات بعبارات جاهزة صالحة للاستخدام فى مثل هذا الموقف منها :

ـ ما تقول يبدو وجيها للغاية لكنى أختلف معك ليس لتفاهة الرأى كما قد تظن ، ولكن لأننى أرى الأمور من زاوية أخرى ! . أما حين يشكو لك شريك العمر من تصرف من تصرفاتك أو يلومك عليه . .

فلا تثر عليه من البداية ولا تصرخ فيه قائلا : إذا كان عاجبك . . أو هكذا خلقت ولن أتغير . . أو : اضرب رأسك فى الحائط ! . . الخ .

وإنما ينصحك « عقلاء » هذه المعاهد بأن تتمثل أولاً مشاعر شريكك التى دفعتْه للومك أو الشكوى منك وسيدفعك هذا التمثل لتقدير معاناته والإشفاق عليه منها ثم تجيبه : إننى أفهم مشاعرك جيداً وهذا يثير تعاطفى معك ولك ! ثم « دِش » بعد ذلك كما تشاء دفاعاً عن نفسك فلقد نزعت معظم أشواكه . . وتجنبت أظافره قبل بداية المناقشة ! .

فالانسان ضعيف ـ صدقنى ـ أمام من يشعره بتعاطفه معه وفهمه لدوافعه . وهو أكثر ضعفاً مع من يشعره بأنه إنسان « خاص ومتميز » بالنسبة له . . ويحلق فى السماء إذا أشعره شريك عمره بأنه يحب كل شىء فيه من روحه إلى شخصيته إلى صوته إلى عينيه إلى أصابع يديه ! .

وأيضا إذا لم يبخل عليه بالتعبير عن هذا الحب فى كل مناسبة . . وفى كل وقت .

لهذا يقول لك خبراء هذه المعاهد : أنقذ زواجك من الدمار بكلمة إعجاب تذكر بها شريك حياتك بأنه يعنى لك الكثير . . وأنك لا تستطيع أن تعيش بدونه . . وينصحون كل زوج بألا يخجل من أن يقول لزوجته : إنه يشعر معها بأنه « رجل حقيقى » ولا تستطيع امرأة أخرى فى العالم أن تشعره بذلك ، ويناشدون كل زوجة أن تقول لزوجها بلا

خجل إنه الرجل الوحيد فى العالم الذى يشعرها بأنها امرأة . . ومن رابع المستحيلات أن تحس بهذا الشعور مع رجل غيره .

وهى نفسها فلسفة « جبر الخواطر » التى يعرفها البسطاء بغير معاهد أمريكية . . ولا خبراء متخصصين أو بتعبير آخر هى فلسفة اللسان الحلو الذى يذيب الصخر ويفتح الأبواب المغلقة . . فالإنسان «غلبان» فى النهاية مهما بدا للآخرين قوياً . . ووحيد نفسيا مهما كثر حوله الأصدقاء وهو فى حاجة دائماً لأن يشعره شريك حياته بأنه يحبه ويرغبه ويعتبره صديقه الأوحد فى الحياة .

فنابليون العظيم الذى ركعت أمامه قارة أوروبا ذات يوم قال لزوجته الامبراطورة جوزيفين : لقد نلت من المجد والسطوة ما لم ينله أحد قط وبرغم ذلك فهأنذا لا أجد حولى صديقاً مخلصاً أستطيع الاعتماد عليه سواك ! .

ونحن لسنا كنابليون فى عظمته ولا حتى فى انكساره ولم ننل بعض ما ناله من المجد والسطوة ، ولذلك فإن حاجتنا إلى صداقة شريك العمر . . وإلى قربه منا أكثر كثيراً من حاجة أمثاله من العظماء .

وليست هناك فى النهاية وسيلة لأن تحصل على صديق مخلص أفضل من أن تكون أنت أولاً صديقاً مخلصاً له .

لهذا فنحن فى حاجة ملحة ومستمرة لأن نحسن أسلوب التفاهم مع شريك العمر . . ومع كل من نتعامل معهم أو نلتقى بهم . ولهذا أيضا استمعت باهتمام شديد لحديث « خبير التفاهم الإنسانى » فى ذلك

البرنامج التليفزيونى الأمريكى وحاولت أن أستوعبه جيداً وأستفيد منه لكننى صعقت فى نهايته حين سألته مذيعة البرنامج عن حالته الاجتماعية فأجابها الخبير بثقة بأنه : مطلق ! .

إذن ففيم كان كل هذا « الإبداع » الذى أتحفنا به عن كيفية التفاهم مع شريك العمر . . والحديث معه عن قرب . . ومن وضع التفاهم المريح ؟ ! .



لفتت رسالتها انتباهى بشدة فتوقفت أمامها . متأملا ومفكرا ، إنها فتاة فى السابعة والعشرين من عمرها جميلة . . جذابة . . تخرجت فى الجامعة وتعمل . . أما « أزمتها » فإنى أدع كلماتها أو « اعترافاتها » الصريحة إلى حدّ مصادمة المشاعر فى بعض الأحيان تحكيها .

تقول لى هذه الفتاة فى رسالتها :

منذ فترة طويلة وأنا أقاوم الرغبة فى أن أجلس على كرسى الاعتراف أمامك . . وأبوح لك بكل ما أكتمه عن الآخرين . رغم علمى من متابعتى لآرائك فى بريد الجمعة بالأهرام أنك سوف تستاء منى ولن أكون موضع إشفاقك أو تعاطفك . وأبدأ قصتى من البداية البعيدة فأقول لك إننى ولدت لأبوين أنجبا قبلى ثلاث بنات ، وتركز أملهما فى أن يجىء

المولود الرابع ولدا ليحقق أملهما الأخير فى إنجابه . . فلما جئت إلى الحياة بنتا قوبلت بالوجوم وخيبة الأمل . . ونشأت طفلة رابعة سبقتها ثلاث بنات ، فحرمت من حنان الأبوين واحتفالهما بى . ودرجت فى بيت يكثر فيه الحديث عن عبء البنات والتحسر على افتقاد الولد الذى يشارك أباه المسئولية ويحمى أخواته البنات من غوائل الحياة .

فأدركت منذ صغرى أهمية « الولد » وتميزه عن البنت ، وأحسست دائما بأنه « كائن خطير » تعتمد عليه الشقيقات فى حياتهن ويصارع الحياة دفاعا عن الفتاة الضعيفة . وبدأت فى طفولتى أقص شعرى كالأولاد وأرتدى البنطلون مثلهم وأتسلق معهم الأشجار وأتشاجر كما يتشاجرون وحين بلغت سن الصبا وبدأت أنوثتى تتفتح لاحظت بسعادة كبيرة تأثيرى على الأولاد من حولى ومحاولاتهم للتقرب منى واسترضائى ووجدت فى ذلك متعة كبيرة . وحاولت دائما إيهام كل منهم بأنه موضع اهتمامى الوحيد .

أما حين التحقت بالكلية فقد اتسع المجال أمامى لاجتذاب اهتمام الشباب من زملائى . . والاستمتاع بتقريبهم منى حتى يحس كل منهم أننى أحبه وأنه فتى أحلامى . وأدعم اعتقاده هذا بإهدائه الهدايا الصغيرة فى المناسبات المختلفة ويتيه فخرا بذلك ويتجرأ ويطلب مقابلتى خارج الكلية أو يخطو خطوة أبعد ويمسك يدى فيفاجأ بانقضاضى عليه وتقريعى له بقسوة شديدة ثم ابتعادى عنه إلى غيره . . فيقف حائرا متعجبا شاعرا بالخجل . . والغيظ . . !

وتكررت اللعبة مرارا خلال دراستى بالكلية حتى عرفها عنى زملائى

واجتنبونى ، ثم تخرجت وعملت وانتقلت إلى مجتمع العمل وبدأت أمارس اللعبة على نطاق أوسع فيه كما بدأت أتردد على النادى كثيرا ، وأمارس فيه هوايتى . واستكمالا لمظهر الفتاة المتحررة الذى يغرى الرجل بالاقتراب منها و « المحاولة »معها اعتقاداً بأنها أيسر منالا . تعلمت تدخين السجائر ونفث الدخان بعمق فى وجوه الشباب . وأجدت لعبة « الولاعة » كوسيلة لاجتذاب من أريد إلى شباكى . وتفاصيلها أنى إذا لفت نظرى شاب فى النادى استخدمت معه أولا لغة العيون . وتبادلت معه النظرات والابتسامات الخفية وأرقب حيرته وتردده فى الاقتراب منى ومحاولة خلق أى مناسبة للتعرف على بمتعة كبيرة . وحين أقرر أخيرا أن أتعرف عليه أجلس إلى مائدة قريبة منه وأتبادل معه النظرات لبعض الوقت ثم أخرج سيجارة وأضعها فى فمى . . وأخرج من حقيبتى ولاعة قديمة نفد الغاز منها منذ فترة طويلة . . وأحاول إشعال السيجارة بها وتفشل المحاولة بالطبع رغم تكرارها فأتلفت حولى حائرة كأنى أبحث عن عود كبريت أو ولاعة . . فلا تمضى لحظات حتى أجد هذا الشاب أمامى يشعل لى سيجارتى بولاعته ، وتمضى الخطة إلى غايتها :

- ميرسى
- العفو . . خلى الولاعة معاك
- لا . . مرسى
- على إيه . . خليها معاك النهارده . . وأخدها فى أى يوم .
- مرسى . . أنت لطيف قوى . . اسمك إيه ؟

فتبدأ القصة . وتتكرر الرواية القصيرة بكل تفاصيلها . . تعارف ثم



اهتمام من جانبى ومقابلات . . ثم يقع الشاب فى غرامى ويتطلع إلى إتمام القصة ويبدأ يفكر فى المستقبل . . فيفاجأ بى وقد لفظته بقسوة وعنف وسددت أمامه كل الأبواب إلى أن ييأس منى تماما وينصرف عنى حزينا متألما .

وقبل أن تسىء بى الظن . . وتتهمنى بأننى فتاة مستهترة منحلةسأقول لك إن واحدا من هؤلاء الشباب أو الرجال . . لم يستطع أن يلمسنى أو يخرج معى على الحدود التى أرسمها له . تسألنى لماذا إذن أفعل ذلك ؟ . . وأجيبك بأنى أكاد أجن بالرجال وأبحث عندهم عن الحنان الذى حرمت منه فى طفولتى وأتقزز منهم حين يقدمون أجسامهم بدلا من حنانهم . ومشاعرى تجاههم متناقضة متشابكة فأنا أحب «الرجل » وأحترمه ، وأخاف منه وأحقد عليه وأراه فى نظرى صاحب السيادة والسلطان بالنسبة للمرأة . . فهو الكائن الأقوى الذى ينتدب للمهام الجليلة فى الحياة ، فى حين تترك المهام التافهة والصغيرة للمرأة ، وأرى أن المرأة هى الكائن الضعيف ، وأنها قد تأخرت ولم تتقدم كما تعتقد النساء ، فالمرأة فى الحياة البدائية كانت تشارك الرجل فى السعى إلى الرزق بالصيد وجمع الوقود واستنبات الطعام من الأرض ، وكانت هى التى تتزوج الرجل وهى التى تطلقه ، أما الآن فى المدنيّة الحديثة فقد حبسوها فى المطبخ تطهو وتغسل وتلد الأطفال وتخدم الرجل ، وتنحصر كل أمانيها فى الزواج ، والزواج يعنى باختصار ودون فلسفة سيطرة الرجل . وأنا كغيرى من النساء أحب أن أخضع للرجل وأرى أنه الجنس القوى المسيطر الجدير بالإعجاب والخضوع له ، ومع ذلك فإنى ما إن

أشعر أنى قد بدأت أحب رجلا ما وأنه فى سبيله إلى أن يتملكنى بالحب فإنى ألفظه بلا رحمة ، وأواصل حياتى التى أتحكم فيها فى الآخرين ، ولا أسمح لأحد بأن يسيطر على بالحب ويتفرعن ! إننى أنفق كثيرا فى بعض الأحيان على من أعرفهم وأحس حين أفعل ذلك بأنى قد انتصرت على الرجل وانتزعت منه السيادة ودوره التقليدى . . والغريب أنه يسعد بذلك ويعتبره دليلا على حبى الطاغى له . . ولو أدرك ما فى قرارة نفسى لصدم بأنى أحتقره . . وأنظر إليه كما ينظر الرجل إلى «الحيوان الأليف» الذى يقتنيه وينفق عليه من ماله ! . . وتبلغ صدمته الذروة حين يفاجأ بى وقد لفظته من حياتى بسهولة فى نفس الوقت الذى تأكد فيه من أننى قد أصبحت أسيرة هواه !

إننى حائرة مع نفسى . . فإنك إذا نظرت إلى وجهى الرقيق وعينى البريئتين أحسست فى البراءة والطهر وبأنك أمام « قديسة » لا تنقصها إلا هالة من نور فوق رأسها الجميل ، وإذا استمعت إلى اعترافاتى هذه أحسست أنك أمام شيطانة تريد أن تعبث وتهزأ بكل القيم ، كما أنى فى بعض الأحيان أحس بأننى « عبقرية » وفى أحيان أخرى أشعر بأننى مجنونة ، ويبدو أن هناك خيطا رفيعا بين العبقرية . . والجنون ، وبين الملائكية . . والشيطنة أتجاوزه فى أحيان وأرجع عنه فى أحيان ، ورغم كل ذلك فلست سعيدة بحياتى ولا حيرتى . . ولم أعترف لأحد من قبل بما اعترفت به لك الآن لثقتى فيك وفى آرائك فهل عندك ما تخرجنى به من حيرتى ؟

هذه هى الرسالة التى استوقفتنى وأذهلتنى على كثرة ما أتلقى من

رسائل واعترافات تتضمن الكثير من غرائب النفس البشرية ، وأزمة هذه الفتاة الحقيقية هى أنها تريد أن تنتقم من طبيعتها كأنثى احتجاجا على مجيئها للحياة كفتاة بدلا من أن تكون ولدا كما كان يتمنى أبواها ، لهذا فهى فتاة جميلة . . وأنثى مكتملة جسديا ، لكن فى داخلها روح رجل أو شاب عابث يريد أن يتمتع بالتنقل بين الفتيات والسيطرة عليهن ويريد أن يكون الطرف الأقوى دائما فى علاقته بهن .

لقد حرمت من حنان الأبوين لأنها الإبنة الرابعة بعد ثلاث فتيات وهى تعتقد فى عقلها الباطن أن سبب حرمانها منه هو أنها لم تكن ولدا وأن الولد جنس مميز قوى مسيطر يملك أمره ويستطيع أن يتزوج وأن يطلق بغير قيود المجتمع التى تكبل المرأة فى نظرها ، إذن فتلكن ولدا بالروح وليس بالجسد ، ولتفعل كما يفعل الرجال العابثون فتنتقل بين الرجال . . تقربهم وتبعدهم حين يتصورون أنهم قد امتلكوها . . وتستخدم « وسيلة الرجل » فى تعبيره عن الإحساس بالمسئولية عن فتاته أو زوجته ، فتنفق عليه لتكون الأقوى والأرفع شأنا . وهى تحب الرجال وتكرههم . وتعجب بهم وتحقد عليهم، وكل ذلك من رواسب إحساسها الذى ترسب فى أعماقها منذ الطفولة بالسخط على جنسها كفتاة ، واعتباره المسئول عن عدم احتفال أبويها بها كطفلة وحرمانها من حنانهما. إنها لا تبحث عن الحنان الذى حرمت منه فى طفولتها لدى الرجال كما تتصور، لكنها « تفتش » فيهم عن هذه المميزات الخفية لجنس الرجل الذى أعطاه أبواها كل هذه الأهمية فى طفولتها وصباها .

وكلما فشلت فى اكتشافها فى رجل تركته وانتقلت إلى آخر لتبحث فيه

عنها . كما يفعل الباحث الذى يكرر تجاربه على الحيوانات الصغيرة فى المعمل كلما فشلت النتائج .

يا آنستى إنك تظلمين نفسك كثيراً أو تظلمين النساء جميعا بأفكارك وتصوراتك الخائطة عنهن . . فلا المرأة الجانب الضعيف المقهور فى كل الأحوال ولا الرجل هو الجانب القوى المسيطر على الدوام . وليس للرجل من « ميزة » على المرأة إلا فى تحمله المسئولية عنها واستعداده للقتال دفاعا عنها وحماية لها . . فإذا كنت تعتبرين ذلك «ميزة» فتفضلى خذيها لنفسك على الرحب والسعة ، وقديما قال أحد المفكرين : « لم تخلق المرأة من رأس الرجل فتتفوق عليه ولا من قدمه فتتخلف عنه إنما من ضلعه لتتساوى معه فى الحقوق والواجبات » . ولهذا فإنى أشفق عليك من عدم توافقك مع جنسك ورفضك واحتقارك له . . لأن احتقارك للرجال الذين يخضعون لك يعكس احتقارك لجنسك الذى ترين أنه الأضعف . . لهذا يفقد الرجل مميزاته فى نظرك حين يتنازل عن قوته ويخضع لك . . وكل ذلك من آثار عدم توافقك مع جنسك وهو مرض نفسى خطير يتطلب علاجا نفسيا منتظما . فاطلبيه بلا تردد وغيرى من مفاهيمك عن الحياة والمرأة والرجل . . وكفى عن العبث والتنقل بين الرجال لأنه عمل لا أخلاقى بكل المقاييس حتى ولو كان بلا تلامس فعزة المرأة فى أن تكون لرجل واحد . والحب الحقيقى الذى لم تعرفيه بعد كالإيمان فيه وحدانية ، وأحد كبار المفكرين كان يقول أحب التوحيد فى ثلاثة : العقيدة . . والمبدأ . . والحب !

كما أن أحد الفروق الراقية بين الإنسان والحيوان . . هو أن الإنسان لا

يستطيع حين يحب حبا صادقا أن يلامس إلا من يحب وحده ، أما الحيوان فقد يلامس كل من تقع فى طريقه من الإناث . وأنت للأسف تعكسين الآية بتخبطك وإدمانك للعبة الاقتراب والابتعاد . . ولعبة أحب الرجل وأكرهه هذه .

إن الحب الحقيقى هو أن تهربى مع إنسان واحد من تفاهة الآخرين .

أما العبث والاستهتار والحيوانية ومخالفة الطبيعة البشرية فهو أن تقولى مع الشاعر الإنجليزى لورد بايرون : ليت للنساء جميعا فماً واحدا إذن لقبلته واسترحت !

مع استبدال الرجال بالنساء فى حالتك !

والانسان السوى هو من يحب امرأة بعينها وليس كل النساء . والفتاة الطبيعية السوية هى من تحب رجلا بعينه وليس كل الرجال .

أما حب « الصنف » كله هذا فليس حبا ولا شيئا شبيها بالحب إنما شذوذ عن الطبيعة . . وانحراف . . ومرض يتطلب تدخل الطبيب النفسى فى أقرب وقت . . وقبل أن تتفاقم الأخطار والنتائج .

١٩

علاقة شائكة

لى صديقان ـ رجل وامرأة ـ الزوجة فنانة مسرحية والزوج مهندس عرفتهما منذ أكثر من عشرين سنة وراقبت علاقتهما عن قرب ، فلاحظت حرصهما المشترك على حياتهما العائلية . . رغم شطحات الزوج ومغامراته أحيانا ، وكان دافعهما الأقوى لاستمرار الحياة بينهما رغبتها الصادقة فى توفير الاستقرار لوحيدتهما الجميلة ثم باعدت ظروف العمل والحياة بينى وبينهما ، فلم أعد ألتقى بهما إلا لماما ، وغالبا فى فصل الصيف فى الاسكندرية حين أذهب إليها ويتصادف وجود الفرقة المسرحية الحكومية التى تعمل بها الزوجة فأشاهد العرض . . وأدخل إلى الكواليس بين الفصول وألتقى بالزوجين وأستعيد معهما للحظات ذكرياتنا القديمة . .

ثم مضت عدة سنوات لم ألتق بهما خلالها، وفى الصيف الأخير

قضيت فى الاسكندرية بضعة أيام . . فذهبت إلى المسرح لأشاهد مسرحية مقتبسة عن الإنجليزية سبق أن شاهدت أصلها الإنجليزى فى لندن فى مسارح « الوست إند » بعنوان (الإباحية ممنوعة من فضلك . . فنحن بريطانيون !) وهى مسرحية كوميدية تحكى قصة زوجة شابة ضاقت بالفراغ والملل وقررت أن تشغل فراغها بأى عمل وقرأت فى الصحف إعلانا عن شركة سويدية تطلب موزعين « لإنتاجها المحترم » فى لندن فراسلت الشركة دون أن تعرف طبيعة عملها وطلبت اعتمادها موزعة لها وأرسلت إليها التأمين المالى المطلوب ، وبعد أيام أرسلت إليها الشركة على عنوان بيتها أول دفعة من إنتاجها «المتميز» لتوزيعها على المعارف والأصدقاء فإذا به مجموعة من المجلات والصور الفاضحة الممنوعة ، وإذا بالشركة شركة لإنتاج الأفلام والمجلات والصور الممنوعة، وتوالت المفارقات المضحكة مع رعب الزوجة حين اكتشفت الحقيقة وخوفها من انفضاح الأمر أمام والدة زوجها الإنجليزية الأرستقراطية المحافظة ، ومحاولات الزوج المضنية لإخفاء هذه الكارثة عنها وعن الأقارب ، مع استمرار الشركة فى إرسال «إنتاجها» إليها بالبريد . . وتطوره من المجلات . . إلى الأفلام إلى أن تبلغ الكوميديا قمتها بإرسال الشركة بعض « فتياتها » للموزعة الجديدة لكى تقوم بتسويق هذا «الإنتاج البشرى » بمعرفتها ! وقد توجهت للمسرح فى الإسكندرية ملهوفا على أن أعرف كيف تم تمصير هذه المسرحية واقتباسها بما يتناسب مع ظروفنا وتقاليدنا ، وعقب العرض دخلت إلى الكواليس لأحيى مخرجها وممثليها ومعظمهم من أصدقائى ومعارفى ،

فإذابى أمام هذه الفنانة التى لم ألتق بها منذ سنوات ، ومعها شخص لا أعرفه خمنت أنه أحد أقاربها أو أقارب زوجها جاء ليصحبها إلى بيتها وتهللنا للقاء . . وقدمت لى الشخص المرافق لها فاذا بها تقول لى عنه :

ـ فلان . . زوجى ! . .

يا إلهى . . زوجها . . أين ذهب إذن صديقى المهندس ؟ . . وكتمت دهشتى واستغرابى وصافحت الزوج الجديد باحترام وودعتهما بعد أن تبادلنا أرقام التليفون ، وفى اليوم التالى جاءنى صوتها فى فندقى يفسر لى الموقف المثير فروت لى أن زوجها ـ صديقى القديم ـ قد بلغ الستين منذ عامين وأحيل إلى المعاش فتقاضى مكافأة نهاية الخدمة الكبيرة وبدلا من أن يؤمن بالمكافأة مستقبل ابنته الوحيدة التى تستعد للزواج أو يسهم بها فى جهازها ، فوجئت به يعود إليها ذات يوم ويقول لها إنه «يحب » فتاة عمرها أربع وعشرون سنة وأنها تحبه ، وتريد أن تتزوجه لكنها تشترط عليه لكى توافق على زواجها منه ، أن يطلق زوجته أولا ولهذا فهو « يستأذنها » فى أن يطلقها ليتزوج هذه الفتاة التى «ستنتحر» إن لم يتزوجها ! وحاولت معه زوجته المستحيل لكى يرجع عن جنونه بلا فائدة . . فيئست منه واستسلمت لأقدارها . . وطلقت منه . . وبعد شهور من طلاقها تقدم لها أرمل متوسط العمر يعيش وحيدا فارتبطت به وتزوجته ووجدت فيه عزاء لها عن صدمتها فى رفيق العمر . . وقد عوضها بحق عما لقيته من عناء وحرمان مع زوجها الأول ، فعامل ابنتها بحنان وبإحساس أمين بالمسئولية عنها كأب وعاملها هى بحب واحترام . أما الزوج الأول فلم يتزوج فتاته التى طلقها من

أجلها وإنما راوغته طويلا حتى تسربت المكافأة من بين يديه وانصرفت عنه . . فعاد يلاحق مطلقته وأم ابنته ويعنفها على زواجها وهى أم لفتاة فى سن الزواج . . والأغرب من ذلك أنه يفرض « صداقته » على زوجها الجديدويزورهما فى بيتهما الجديد بانتظام ويحضركل مناسباتهما بلا دعوة ! ويصاحبهما فى سيارة الزوج إلى المسرح ويتصرف معهما كصديق قديم يتمتع « بروح رياضية » لا نظير لها ! والزوج الجديد محرج منه ولا يستطيع أن يغلق بابه فى وجهه . . وهى لا تستطيع له دفعا ! .

وفى نهاية حديثها لى سألتنى : هل أخطأت فيما فعلت ؟ إننى لم أتزوج شابا أصغر منى . . ولا رجلا عابثا . . وإنما تزوجت رجلا محترما يكبرنى فى السن ويتحمل مسئوليتى ومسئولية ابنتى بجدية ورجولة بعد أن طلقنى زوجى جريا وراء فتاة أصغر من ابنته . . فهل أخطأت فيما فعلت؟! .

وأجبتها صادقا بالنفى وتمنيت لها مخلصا السعادة والاستقرار فى حياتها الجديدة فإذا بها تقول لى عاتبة : إذن لماذا هاجمتنى فى بابك بالأهرام «بريد الجمعة » ولمتنى على زواجى منه ؟! .

وأجبتها مندهشا ؛ أنا هاجمتك ؟ .

فروت لى أنه بعد زواجها بشهور جاءها زوجها وقدم لها « الأهرام » وأشار إلى قصة بريد الجمعة التى أكتبها فيه ، وقال لها إن هذه هى قصتك وروى لها أنه قابلنى وشكا لى من تسرعها بالزواج بعد طلاقها . . وعدم انتظار عودته إليها حرصا على صالح ابنتهما ، فوعدته بأن أكتب قصتها فى بريد الجمعة وألومها على تصرفها وأنصحها بالعودة لزوجها

الأول ! وسمعت ذلك مصعوقا ومندهشا وأكدت لها أنى لم ألتق بزوجها السابق منذ ٦ سنوات ولم أسمع شيئا عنه منذ ذلك الحين ولم أعرف أنها قد طلقت منه أو تزوجت بغيره إلا (مساء أمس) حين قدمت لى الشخص المرافق لها على أنه زوجها ، وقد كان ذلك واضحا على أسارير وجهى حين عرفته ، أما القصة التى عرضها عليها فهى ليست بالتأكيد قصتها ولابد أنها قصة مشابهة أراد استغلالها بهذه الطريقة غير الأمينة . ليدعم بها حجته عليها .

وصدقتنى الصديقة القديمة ولم تتعجب من تصرفات زوجها السابق .. لكننى أنا الذى تعجبت منه .. ومن « روحه الرياضية » التى يفرض بها نفسه على الزوجين فى حياتهما الجديدة .. وتعجبت أكثر مما تصنعه الأيام من قصص وحكايات لا يصدقها العقل !



منذ أيام كنت ساهرا فى بيتى وسط أكوام رسائل البريد أحاول اختيار رسالة الأسبوع فمددت يدى إلى هذه الرسائل واخترت بعضها عشوائيا ولصقتها ببعضها بالدبابيس فصنعت شريطا طويلا من الورق . . ثم قررت أن أقرأها دفعة واحدة لأرى الأثر الذى ستحدثه فى نفسى حين أتنقل بينها . . فكانت النتيجة غريبة فعلا !

لقد كانت البداية هكذا :

مر عامان على تطليقى لها ، فقد تزوجتها منذ خمسة عشر عاما ، وأنجبنا طفلة وطفلا ، ولم أعمل منذ إحالتى إلى التقاعد ، فلدى ما يكفينا والحمد لله ، كما كنت ملتصقا بابنتى ثم بابنى ولم أتصور البعد عنهما وانشغالى عن تربيتهما يوما بيوم . فقد شاء ربى أن يغرس فى الأبوة

الراعية والصبر والاحتمال بعكس أمها التى خرجت بعد ذلك إلى الحياة العملية وكانت لديها طاقة هائلة فى العمل الحر وجنت من ورائه الأموال الكثيرة . وكنا كلنا نساعدها فى فترات عملها الموسمية . . فأصبح المال يسيطر على تفكيرها كله .

وكنت أنا الراعى لأولادى منذ طفولتهم وحتى التحاقهم بالمدارس من إيقاظهم وارتدائهم ملابسهم وهم صغار وإعداد طعامهم وإيصالهم وإحضارهم وإطعامهم والاستذكار لهم حتى ساعة نومهم . واستمر الحال هكذا حتى اليوم والحمد لله .

ولما حدث الانفصال استمر الحال كما هو وخرجت هى من البيت فى هدوء . لقد كان خروجها للعمل فى السوق وتعرفها بالأوساط المختلفة وحصولها على الأموال هو بداية المشكلة ، فقد أعماها ذلك عن واجباتها البسيطة وبهرها المال والمظاهر مما جعلها تلجأ إلى الكذب والغش ، وأصبحت تريد العيش معنا فقط لتستغل البيت كفندق ومطعم ومخزن ومكتب لها وتريد أيضا العيش خارج المنزل فى أوساط أخرى براقة .

وأصبحت أنا حائرا بسبب أولادى الذين أحرص على راحتهم ، ولم أكن أتصور يوما أن يعيشوا بلا أم وهى على قيد الحياة ، ولكن كان حتما على أن أحسم الموقف وأحرمها من اسمى ، وأحرمها من الحياة المستقرة التى كنت أوفرها لها وغادرت هى البيت إلى إحدى شققها التى أصبحت تملكها .

ومرت الفترة الأولى بعد ذلك فى شجون بسبب تفكيرى فى الصغار ولكن الله أنزل الصبر للإنسان ليستعين به فى ملماته بجانب الإيمان به .

إن الزوجة إذا فقدت الوفاء وحب الأسرة والإخلاص فلا بد لها من البتر . وهى لم تتعظ ، فقد كانت متزوجة قبل ذلك ولها طفلان هجرتهما أيضا ، إنى يا سيدى أجدنى دائما أدعو الله أن يعيننى على خدمة أولادى وحسن تربيتهم ، وأن ينتقم لنا منها لأنها ظلمتهم فهل أخطىء حين أطلب من الله الانتقام ممن ظلمنا؟

وهل من الصواب أن يتزوج المرء فى مثل حالتى (٦٠ سنة) وهل يمكن أن ترعى هذه الزوجة الجديدة الأولاد ومن قلبها تحبهم ؟ وأين هذه الإنسانة كريمة الأصل ؟ هل أتركها للقدر ليضعها فى طريقى ؟ وهل من فترة للتعارف وللتقرب إلى الاولاد ؟ هل فعلا يستطيع الإنسان أن يبدأ حياته من جديد فى مثل عمرى ؟

● ● ●

تعرفت عليه منذ ثلاثة أعوام . . إنه مهندس زراعى زميل لى فى العمل فى أول الأمر لم أعره أى اهتمام ولكنه قام بلفت نظرى إليه بجميع الوسائل من مطاردة إلى انتظارى أثناء وصولى لعملى وخروجى منه إلى محاصرتى عن طريق زميلاتى ورشوتهن حتى أكلمه . . وأخيرا قررت وضع حد لهذه المطاردة فركبت معه سيارته لتوصيلى إلى منزلى ومعرفة ماذا يريد منى ؟! فشرح لى أنه معجب بى وبأخلاقى ويريد الارتباط بى وروى لى قصة حياته وهى أنه متزوج من قريبة له وعنده طفلة منها عمرها الآن أربع سنوات وأنه لا يحس مع زوجته بأى عاطفة ، فأوضحت له أنه من المستحيل الارتباط به لعدة أسباب منها أنه متزوج وله طفلة ولن أبنى سعادتى على تعاسة الآخرين ، كما أن الأهل سيعارضون ذلك وطلبت

منه الكف عن المطاردة وشرحت له أنه تسبب لى فى كثير من المشاكل إلا أن المطاردة زادت ، وفى مرة مرضت ، فسأل عنى فى العمل وأحضر زوجته لزيارتى فى المنزل، ومن يومها وطد صداقته بالأسرة بتأدية بعض الخدمات والمشاركة فى المناسبات المختلفة . . وما زال يلح فى الارتباط بى خصوصا وأنه حصل على عقد عمل فى إحدى الدول العربية ويريد أصطحابى إليها كزوجة وطلب موعدا من أبى . . وعرض أبى الأمر على بطريقة كريمة جدا وأقنعنى بعدم الموافقة . . وأبلغته بذلك إلا أنه صمم على المطاردة ليلا ونهارا فاضطررت إلى معاملته معاملة غير كريمة . . وأخيرا قرر السفر بعد يأسه من موافقة أسرتى وطلب مقابلتى قبل سفره فرفضت بطريقة جافة ثم أحسست بوخز الضمير وقررت فى آخر لحظة وقبل قيام الطائرة بساعة الذهاب إلى المطار لوادعه وأخذت معى بعض الزملاء . . ولا تتصور مدى سعادته وسعادتى حين التقينا رغم وجود زوجته وأفراد أسرته . . فهل أخطأت بالذهاب إلى المطار رغم أن ذلك أراحنى بعض الشيء وكفر عن إحساسى بالذنب للإساءة إليه؟!

● ● ●

أنا شاب فى أواخر العشرينات من عمرى وحيد الأب وأم عظيمين رعيانى أفضل رعاية . . أمى سيدة حنون ترفق بى وتدللنى وتتابعنى أثناء فراغى وفترة دراستى ، أما أبى فبحكم أشغاله العملية كانت متابعته لى أقل لكنه وفر لى أسباب التربية الصالحة ، فقد أدخلنى أحسن المدارس وخصص لى مدرسا للقرآن الكريم ومدرسا للموسيقى ومدرسا للغة الإنجليزية .

أما بالنسبة لحياتى العاطفية فكانت دائما مستقرة ولا تخلو بالطبع من بعض التجارب التى لم تترك أثرا فى حياتى ، وبعد تخرجى فى الجامعة بدأ والدى فى الإلحاح على بالزواج، لكنى أرفض الزواج التقليدى وأومن بالحب والالتقاء الروحى والعاطفى بين الفردين ، وساعدنى على تأجيل الزواج أنى افتتحت لى مشروعا صغيرا فانشغلت به بشكل جنونى ونجح عملى خلال عدة سنوات وأصبحت فجأة رجل أعمال ناجحا ، وبعد ثلاث سنين من العمل خفق قلبى أخيرا ، ولكنه للأسف خفق فى الاتجاه الخاطىء . . فلدى فى عملى موظف قريب إلى قلبى وهو إنسان بسيط لا يهمه فى عمله إلا مرتب آخر الشهر وأن يؤدى عمله بإتقان وهو غير اجتماعى بالمرة ، وقد اضطررت ذات يوم لأن أذهب إليه فى بيته لاستدعائه فى أمر هام فرأيت زوجته . . نعم زوجته وأرجوك يا سيدى ألا تلقى بورقتى هذه بالأرض وتقول عنى إنى إنسان حقير لا أستحق أن تقرأ مشكلتى فأنا إنسان طيب وأكره الخيانة كرها عظيما ، لكنى لا أعرف ماذا جرى لى حين رأيت زوجته وإن كنت حاولت إخفاء مشاعرى .

لقد حاولت أن أسرى عن نفسى بأنها مجرد نزوة تزول مع زوال مسبباتها لكن صورتها لم تغب عن مخيلتى بعد ذلك ، مما جعلنى أقبل دعوة للعشاء عنده وما إن رأيتها مرة أخرى حتى عاد لى نفس الشعور السابق ومضت الأيام ، وأصبحت أختلق الأسباب لأزوره فى البيت لكى أراها، وخلال هذه الزيارات لم أحاول أن يصدر عنى أى شىء يخل بالأصول ، ولم أكتف بذلك فقد سلطت امرأة لا تعرفها هى لكى تعرف عنها كل شىء فعرفت ـ وهنا كانت المفاجأة التى زادت من معاناتى -

عرفت أنها غير سعيدة مع زوجها وأنها لا تحبه وأنها أصبحت تحب رئيس زوجها بالعمل الذى زارهم بالبيت أكثر من مرة وأعجبتها شخصيته وثقافته وذكاؤه ووسامته بالإضافة إلى أن نظراته لها فيها شىء من الغموض !

أنا فعلا أحبها بجنون عارم ودون أن تتردد كلمة حب واحدة بيننا ، وأرجو ألا تسىء الحكم على فلو كنت إنسانا سيئا لما كتبت لك ولكنت اتصلت بالمرأة وأعلمتها بحبى لها بأسلوب أخاذ ، وضغطت على زوجها إلى أن يطلقها لكنى حتى الآن لم أجرؤ على فعل ذلك واخترت أن ألجأ إليك فبماذا تنصحنى ؟ .

● ● ●

منذ أن قرأت رسالة « الملابس الملونة » التى تحكى قصة زوجة عاشت مع السعادة عاما واحدا فقط بعدها أصبحت أرملة ولهاطفلة لم أتمالك نفسى فأنا فتاة فى الرابعة والعشرين من عمرى نشأت فى أسرة كريمة طيبة مكونة من أبى وأمى وأخى الذى يصغرنى بعامين ، وقد نشأت على طاعة الله والخوف منه وعشت حياتى وليس لى اهتمام سوى الانتهاء من دراستى والمحافظة على الصلاة وصيام الاثنين والخميس ولم أفكر قط فى مسألة الحب لأنى كنت أخشى دائما مشاكله ، فعشت بعقلى فقط وألغيت عاطفتى، وظل الحال هكذا حتى وصلت إلى سن الواحدة والعشرين وتوفى والدى رحمه الله وعملت فى شركة خاصة ومن خلال عملى بها تعرفت على شاب يعمل معى وهو شاب ساحر وممتاز وعلى خلق نادر . . ومنذ أن عرفته أحسست بشعور غريب يتملكنى وظللت

أكتم هذا الإحساس بداخلى حتى يخمد ثم فوجئت به فى يوم أعتبره أسعد أيام حياتى يعترف لى بحبه وبأنه يبادلنى نفس الشعور منذ رآنى ، وطلبت منه التقدم لأسرتى الصغيرة وتمت خطبتى له وسعدت به سعادة لا توصف ، وذات يوم كان خطيبى يزورنا وأثناء الحديث معى روى لى نادرة « لطيفة » هى أنه كان جالسا أمس مع بعض الأصدقاء وإذا برجل يقرأ الكف يمر عليهم فطلب منه خطيبى قراءة الكف له فأمسك بيده واستغرق فى قراءة كفه حتى وصل إلى العمر وقال له بعد إجراء عمليات حسابية من طرح وجمع وغيرها إنه سوف يموت فى الثلاثين من عمره ! وضحك خطيبى وهو يقول : إن عمره أكثر من الثلاثين ببضعة أشهر وأنه كشف بذلك جهل هذا القارىء واستغرق فى الضحك مرة أخرى . . لكننى لم أضحك وانقبض صدرى ولم تفارق خاطرى هذه القصة رغم إيمانى العميق بالله وبأنه لا يعرف الغيب غيره . . إن هذه القصة السخيفة تفسد على حياتى وسعادتى وكل ما أفعله الآن هو الصلاة ودعائى لله سبحانه وتعالى أن يجعل يومى قبل يومه ، وكلما سألت أحدا عن قراءة الكف يقول لى: إنها علم له أصوله وقواعده . . ومع أنه لم يحدث أى شىء من كل ما قاله قارىء الكف لخطيبى إلا أن القلق يفتك بى . .

إننى لست نادمة لأنى أحببت خطيبى فهو يستحق حبى . . لكنى نادمة لأنى أحببت من الأصل . لأن هذا هو ثمن الحب !



٢١

أنت الجميلة .. فأين الوحش ؟

لم أشهد عرض الجميلة والوحش لوالت ديزنى حين قدم فى القاهرة منذ شهور . لكنى قرأت قصته وأعجبت بها ، ووجدت فيها فهما راقيا لإحدى حقائق الحياة التى أومن بها ، وأدعو لها كثيرا فى كتاباتى . وهى أن الجمال الحقيقى هو جمال الروح وليس جمال البدن . وأن الجمال المادى ليس سوى بطاقة تعارف تجذب الغرباء فيتعارفون ويلتقون لكن صحبتهم لا تنجح ولا تدوم بهذه البطاقة وحدها . . إن لم تتكشف بعد حين عن نوع أهم من الجمال هو جمال الروح ، وطيبة القلب ، وحسن المعاشرة . . والفهم العطوف المتبادل بين الطرفين .

والقصة عن أسطورة قديمة كتبها الإيطالى جيوفانى استرابالو عام ١٧٥٥ وتحكى عن فتاة جميلة حالمة يتنافس أفضل الشبان فى بلدتها على

طلب يدها للزواج . . لكنها ترفضهم جميعا ولا ترى فيهم فتى أحلامها المنشود وترفض أيضا أكثرهم وسامة وثراء ، لأنه مغرور بوسامته وثرائه ومتغطرس . . فينفجر سخطا وكبرياء حين ترفضه الفتاة الجميلة كما رفضت غيره وهى الفتاة رقيقة الحال التى تعيش وحيدة مع أبيها . . وهو الفتى الوسيم الثرى الذى تتمناه أى فتاة . . ثم يذهب أبوها إلى الغابة المجاورة لبلدتها ذات يوم ليصيد فيها فيضل طريقه ويعجز عن العودة إلى بيته ويحل الظلام ويخشى على نفسه من حيوانات الغابة المفترسة ، ويبحث عن مأوى يحتمى به حتى الصباح فيجد قصرا مهجورا يدخله . . ويتبين له بعد قليل أن القصر لوحش قبيح الوجه ، وكثيف الشعر يعيش فيه منعزلا عن الجميع ، لبشاعة منظره ، فيرتعب حين يكتشف ذلك ويهم بالفرار منه ، لكن الوحش يعثر عليه فيسجنه فى القصر عقابا له على اجترائه على بيته . وتفتقد الفتاة الجميلة الحالمة أباها الطيب فتخرج للبحث عنه . . ويشاركها شباب البلدة فى البحث عنه آملين أن ينجحوا فى إنقاذه ، فتزيد فرصهم فى نيل إعجاب الفتاة الجميلة . ويعرفوا فى النهاية أنه سجين فى قصر الوحش فيرجعوا عنه متخاذلين وينسحبوا جميعا من المهمة ، وتقرر الفتاة أن تنقذ أباها بنفسها مهما كانت الأخطار . . وتذهب إلى الوحش فى قصره المهجور ، وتطلب منه أن يطلق سراح أبيها . . ويزمجر الوحش غضبا من اجترائها على هذا الطلب، لكن عينه ترى جمالها الآسر . . ووداعتها . . فيرق لها ويقبل الإفراج عن أبيها ولكن مقابل أن تبقى هى بدلا منه فى القصر !

ويرفض الأب مشفقا على ابنته من صحبة هذا الوحش كريه المنظر

لكنها تطمئنه على نفسها . . وتطلب منه العودة إلى بيته آمنا . وينصرف الأب مهموما بأمر ابنته التى قبلت التضحية بنفسها من أجله ، وتمضى الأيام بالجميلة فى قصر الوحش . . وتتحمل فى البداية بصعوبة منظره الكريه . . لكنها مع الأيام تنجح فى ترويضه تدريجيا . . وتكتشف يوما بعد يوم أن وراء منظره القبيح هذا نفسا طيبة تطلب الخير للآخرين ، وتؤمن بالإخلاص والوفاء لمن تحب ، وأن فى صدره كثيف الشعر هذا قلبا حنونا يرق لأى لمسة حنان ، ويتجاوب معها ، فتقبل الزواج منه وهى التى رفضت من قبل أكثر الشبان وسامة وثراء ، وتعيش معه بإرادتها سعيدة راضية ، وقد تعلمت درساغاليا فى حياتها هو ألا تحكم على البشر بمظهرهم الخارجى وإنما بأخلاقهم وطباعهم وجوهرهم الحقيقى .

وهذا درس ينبغى أن يتعلمه أيضا كل إنسان . . فالوجوه الجميلة للأسف قد لا تعكس قبح السرائر ، فتظلم من ينبهرون بحسنها وتصدمهم بسوء أخلاقها وعشرتها . . والوجوه العاطلة عن الجمال قد لا تعكس أيضا جمال السرائر وحسن الطباع ، فتظلم أصحابها وتحرم الآخرين من اكتشاف مزاياهم .

لكن هذا الخداع لا يستمر إلى النهاية . . فلقد ثبت من دراسات علم النفس الجسمى أن الحقد والكراهية ينطبعان مع طول الانطواء عليهما على وجوه أصحابهما فيدمغانها بطابع شيطانى الملامح حتى ولو كانت ملامحهم وسيمة ، وأن صفاء النفس وطيبتها أيضا ينعكسان مع طول الزمن على وجوه أصحابهما فتطبعها بطابع سمح مريح للآخرين .

وطابع الشر وطابع السماحة والصفاء كلاهما كالعلامة المائية فى أوراق النقد لا ترى إلا إذا عرضتها للضوء . والضوء هنا هو الاختبار والعشرة . . والمواقف التى تتبدى فيها معادن البشر ، فعندها تظهر الوجوه الجميلة قبيحة كسرائر أصحابها . . والوجوه العاطلة عن الجمال جميلة وأصيلة كنفوس أصحابها .

ولا أحد يعرف لماذا نلتقى ببعض الأشخاص لأول مرة فنحس بالارتياح لهم حين نراهم ونتحدث إليهم ، ولماذا نلتقى بآخرين لأول مرة فنحس وكأننا نجلس على الشوك معهم ونتعجل إنهاء اللقاء والابتعاد عنهم .

لكن شعور الارتياح هذا هو فى تفسيرى جائزة أصحاب النفوس الطيبة الخيرة من الحياة ومن الآخرين .

وشعور النفور والضيق هو عقاب أصحاب النفوس الحاقدة الموتورة من الحياة ومن الآخرين جزاء وفاقا ، لما يحمله أصحابها من مشاعر كريهة تكدر صفاءهم . . وتنعكس على وجوههم .

وفى أحيان كثيرة أتمنى لو كان لكل إنسان صورة زيتية كبيرة كتلك الصورة التى كانت لسير دوريان جراى فى المسرحية الشهيرة التى تحمل هذا الاسم لأوسكار وايلد ، لكى يرى فيها ما يصنعه الحقد الذى يحمله الإنسان والشر الذى يرتكبه ضد الآخرين فى صورته ، فلقد كان دوريان جراى شابا وسيما صمدت ملامحه للزمن فظل متألقا بالشباب وبراءة الوجه حتى منتصف العمر ، وكانت له صورة زيتية رسمها له أحد الرسامين فى شبابة قبل أن تلوثه الشرور والأحقاد ، فبدت ملامحه فيها

بريئة جميلة ثم انغمس فى الشر والأنانية فدمر حياة أكثر من فتاة وارتكب أفعالا دنيئة عديدة ، فكان يلاحظ أنه كلما ارتكب فعلة جديدة . . بقى وجهه فى المرآة بريئا كما هو ، لكن صورته الزيتية هى التى تتغير وتنطبع عليها آثار شروره وجرائمه حتى تحولت فى النهاية إلى صورة شيطان بشع واضطر لإخفائها فى بدروم بيته بعيدا عن العيون !

والفكرة خيالية بالطبع لكنها جميلة وبها جانب ضئيل من الحقيقة العلمية والنفسية . . ولو كانت قابلة للتنفيذ فى الحياة كما جاءت فى العمل الأدبى لرأينا فى المكاتب وفى البيوت وفى الحياة رجالا ونساء وقد نبتت لهم فى رؤوسهم قرون الشياطين ، ووسمت وجوههم بعلامات الشر وإيذاء الآخرين ، كما حدث لصورة دوريان جراى فى رواية أوسكار وايلد ، أما الجانب الضئيل من الحقيقة العلمية فيها ، فهو أن إضمار الشر والحقد لفترة طويلة يفسد السلام النفسى للإنسان فينعكس ذلك تدريجيا على ملامح وجهه ، لهذا فهناك وجوه محبة للآخرين ووجوه كارهة لهم . . وهناك وجوه سمحة متواضعة . . ووجوه متغطرسة ممتعضة من كل شىء ، وأذكر أننى رأيت منذ فترة شخصا فى سرادق عزاء لم أكن قد قابلته منذ عدة سنوات ففوجئت بما ناله من تغيرات فى ملامح وجهه ، رأيته معها إنسانا دميما بكل معنى الكلمة مع أنه كان حتى سنوات قليلة مقبول الشكل والملامح . . فملت إلى صديقى الذى يجلس إلى جوارى وهمست له : يا إلهى . . ماذا حدث لفلان حتى بدا بهذا الشكل البشع ؟ فأجابنى هامسا وهو يعبث بحبات مسبحته :

الحقد نهش قلبه على كل من حوله وكل زملائه السابقين واللاحقين ، فانطبع على وجهه بهذا القبح الشرير !

ولم أستغرب ما سمعت لأن قبح الوجه قد يكون فى أحيان كثيرة من قبح السريرة ، ولأن كثيرين منا لا يعرفون قيمة نصيحة أرسطو لنا بأهمية أن نطهر نفوسنا من الحقد على الآخرين حتى تصفو لنا الحياة وتصفو لنا وجوهنا وملامحُنا أيضا فلقد قيل له : ما بال الحقود أشد همّاً من الآخرين؟ فأجاب : لأنه أخذ نصيبه من هموم الحياة . . وأضاف إليه غمه بسرور الناس !

أى همه بنجاحهم وتوفيقهم فيما لم يوفق هو فيه . . فأصبح كل نجاح لهم سهما جديدا يصيب قلبه ويرسم خطا جديدا فى تجاعيد وجهه ، لهذا تسرع الشيخوخة إليه ولو كان فى سن الشباب . . ويكتسى وجهه بالقبح الدميم ولو كان وسيما .

وفى قديم الزمان شاهد أفلاطون شابا دميما يسب شابا وسيما فأمره بالكف عنه وقال له : ينبغى أن ينظر المرء كل يوم إلى وجهه فى المرآة فإذا وجده حسنا لم يخلطه بقبيح . . وإذا وجده قبيحا لم يجمع بين قبحين !

وصدق أفلاطون فيما قال . . ولعلى أضيف إليه أنه إذا لم يجمع بين قبحين . . والتزم مع الحياة بالقيم الصحيحة والأخلاقيات الكريمة . . وحمل فى قلبه دائما أنبل المشاعر وأرقها وكان وفيا مخلصا أمينا مع الحياة ومع الآخرين ، فإن قبح وجهه سوف يتراجع تدريجيا فى عيون الآخرين . . وسوف يطفو صفاء نفسه على وجهه ويكسبه طابع الطيبة والقبول

لدى الآخرين . . وهذا هو جمال الروح الحقيقى الذى لا يعدله جمال . . وهذا هو سر سعادة كثيرين مع زوجات عاطلات عن الجمال المادى لكنهن ثريات بجمال النفوس والعشرة الجميلة والفهم لشريك الحياة والعطف والقلب الطيب ، وهذا أيضا سر شقاء كثيرين رجالا ونساء مع شركاء للحياة سخت عليهم الحياة فى مقاييس الجمال الخارجى . . وبخلوا هم على أنفسهم بجمال الروح والطبع والعشرة فتعذبوا وعذبوا شركاءهم بسوء أخلاقهم ولم يغن الجمال المادى عنهم شيئا .

ثم هذا فى النهاية هو ما أراد الوحش أن يقوله لنا فى الأسطورة القديمة حين كسب حب الجميلة التى فشل أجمل الشباب فى نيل ودها بنفسه الطيبة وقلبه الحنون الذهبى، وهو ما تستطيع كل « جميلة » أن تفعله بنفسها حين تكون جميلة شكلا وروحا فيصبح شريك حياتها هو الوحش الطيب الذى تأسره بجمالها الداخلى والخارجى . . ويأسرها هو بأخلاقه وطيبة قلبه .

وشكرا لوالت ديزنى الذى استدعى إلى ذهنى هذه الأفكار القديمة الجديدة حين قرأت منذ أيام الأسطورة التى بنى عليها عرضه الشهير .



هل هو جديد أن نقول : لو علمتم الغيب ما اخترتم إلا الواقع ؟ لا ليس جديداً ولا فريداً فنحن لا نعلم الغيب .. ولن نعلمه .. ومع ذلك يظل الإنسان دائماً يحلم بواقع أفضل من واقعه ، ويتحرك فى اتجاه « الحلم » مضحياً بواقعه ، آملا فى مستقبل أسعد ، فلا يجد فى يده غالباً إلا حسرة الندم ! وهكذا الإنسان فى كل عصر وزمان ..

فشاه إيران السابق محمد رضا بهلوى مثلا كان متزوجاً من زوجة جميلة تتصدر صورها أغلفة المجلات العالمية كنموذج للجمال الشرقى الأصيل، وكان سعيداً بها ومعها ، لكن الامبراطورة الجميلة ثريا أصفنديارى لم تكن قادرة على الإنجاب وهو يتلهف على إنجاب ولد يرث عرشه ويحمل اسمه من بعده ، وللسياسة أحكام لا تخضع لأحكام

القلب ، لهذا فقد طلب من زوجته أن تسمح له بالزواج من أخرى لإنجاب الوريث الذى سيحفظ العرش فى ذريته ، والزوجة الجميلة تأبى . . وتبكى ثم توافق فى النهاية لكنها تضع شروطاً عسيرة تجعل من زواجه أمرا مستحيلا هى ألا يكون للزوجة الجديدة أى دور فى حياة زوجها سوى إنجاب الطفل . . وألا يكون لها أى وضع فى البروتوكول ، فلا تظهر مع زوجها فى مكان ولا فى احتفال ، وأن يطلقها بعد إنجاب الطفل مباشرة فتتعهده ثريا بالتربية ليصبح صالحا للجلوس على العرش فى المستقبل ، والشاه السابق يحب زوجته وهى تحبه . . لكنه يحب عرشه أكثر ، وهذه الشروط لن تقبل بها فتاة من أسرة كريمة تليق بأن تكون أما لشاه المستقبل ، إذن فلا مفر من التضحية بالحب على مذبح العرش . . وطلَّق الشاه زوجته وهو يبكى . . وأشاد العقلاء بحكمته التى ضحت باعتبارات الحب والسعادة الشخصية من أجل مصلحة العرش والوطن ! وغادرت ثريا إيران إلى أوروبا .

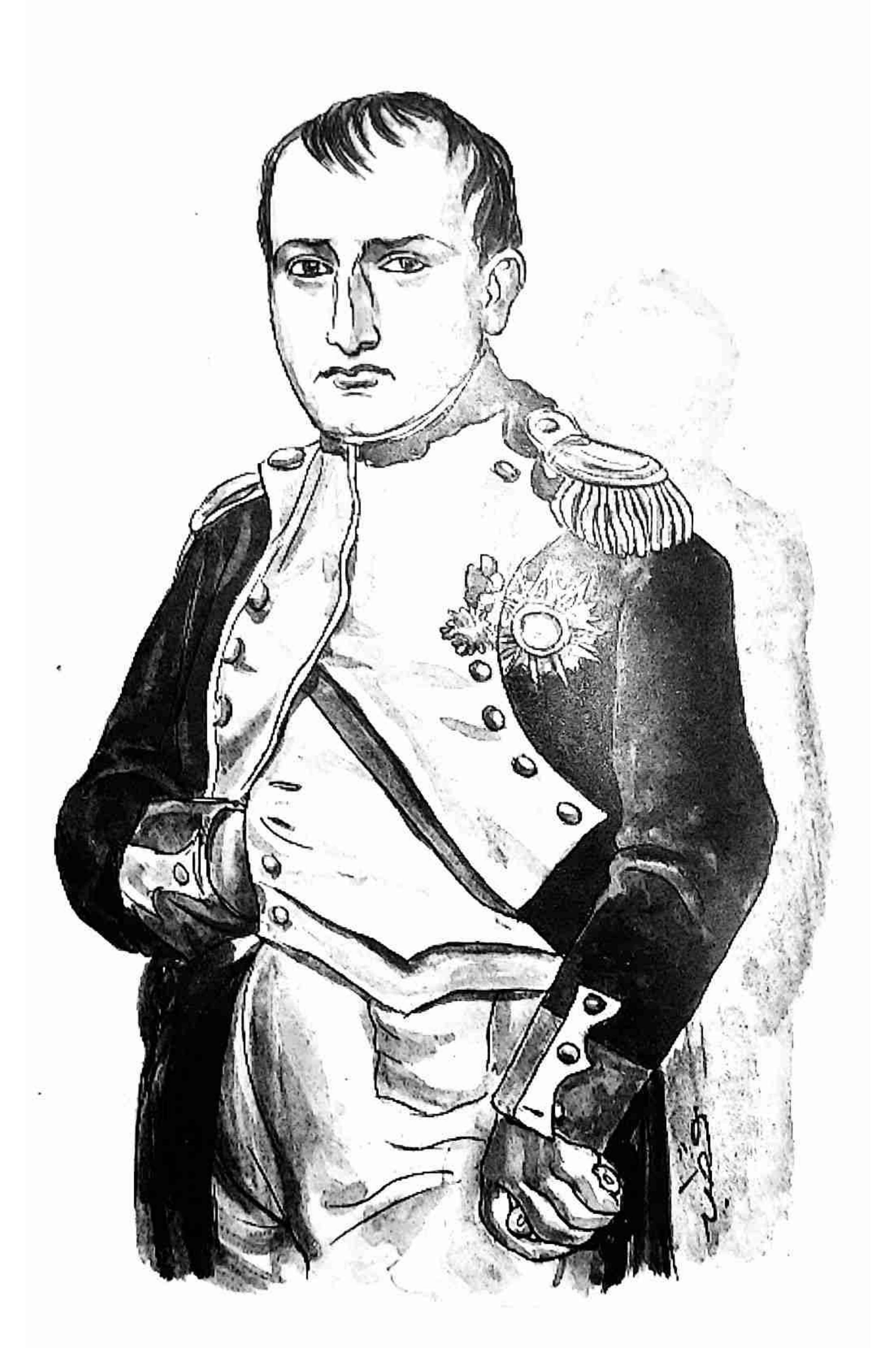
وأصبحت حكايتها قصة أثيرة لدى الصحافة الغربية تكتب عنها كل يوم وتنشر صورها دائماً تحت عنوان « الجمال الحزين »!

وتزوج الشاه من فتاة جميلة أخرى من عائلة عريقة ، وحققت الامبراطورة الجديدة فرح ديبا لزوجها أكبر أحلامه فأنجبت له وريثاً للعرش وأبناء وبنات واطمأن قلبه نهائيا للمستقبل . . فالدولة فى ازدهار . . و « الوريث » السعيد ينمو ويكبر . . وكل الحسابات سليمة وفى الاتجاه الصحيح . . لكن الأرض زلزلت فجأة. تحت الأقدام وهبت العاصفة فاقتلعت عرش الشاه من جذوره وغادر الشاه وأسرته إيران إلى

المنفى ولم يعد هناك عرش يحتاج إلى وريث ولا إلى التضحية بزوجة محبة من أجل إنجابه .

وأسرع الصحفيون إلى ثريا يطلبون تعليقها على ما حدث فاكتفت بالصمت المعبر ، لكن من المؤكد أنها تأملت هذه المفارقة الساخرة طويلا . . وتعجبت لها !

وفى قصة انتصار نابليون بونابرت وسيادته لأوروبا تلفت حوله وسأل نفسه : من سيرث عرش هذه الامبراطورية الشاسعة بعدى ؟ ولم يسمع جواباً ! فزوجته الجميلة الامبراطورة جوزيفين التى تدلهت فى حبه وغالت فى غيرتها عليه ، لا تنجب . . وهو يريد بإلحاح وريثاً لعرشه ويرفض نصيحة مستشاريه بأن يتبنى طفلاً ليخلفه على العرش ، ويرى أن الوقت قد أصبح مناسبا لتأسيس أسرة امبراطورية تحمل اسمه ، وهكذا طلق زوجته جوزيفين وأجمع المؤرخون على وصف قراره هذا «بالقسوة » و «الغلظة »وتزوج من الأميرة مارى لويز ابنة امبراطور النمسا بعد أن أنزل بجيوش بلادها وبكبرياء أسرتها التى أرغمهاعلى التضحية بالأميرة الجميلة ، ضربات قاصمة ، وتزوج مارى لويز وأنجبت لزوجها طفلا سعد به نابليون ، ومنحه لقب « ملك روما » لكنه لم يهنأ بميلاده ولا بزواجه السعيد طويلا ، فلقد لاحظ العرافون أن طلاقة لجوزيفين وزواجه من مارى لويز كان بداية لتخلى الحظ السعيد عنه خاصة وأنه قد توافق مع قراره الآخر الذى هز العالم المسيحى فى ذلك الحين بخلع البابا بيوس التاسع ونفيه من روما ، فأمضى نابليون معظم أيامه بعد الزواج السعيد فى معارك خاسرة ، وتوقفت الانتصارات وبدأت الهزائم حتى



اضطر للاستسلام لجيوش ملوك أوروبا والتنازل عن العرش والخروج منفياً إلى جزيرة (ألبا) . أما الامبراطورة الجميلة مارى لويز فلقد رفضت أن تصحبه إلى منفاه وأما « وريث العرش » فلقد عهدت به أمه إلى البلاط النمساوى لتربيته ، فلم يطل به العمر ومات فى سن مبكرة بمرض غامض ، ولم تزد الفترة بين ميلاد الوريث الذى ضحى أبوه بزوجته الأولى لكى ينجبه . . وبين هزيمته وانكساره سوى عامين وبضعة أسابيع !

والملك فاروق الأول ملك مصر السابق طلق زوجته الملكة السابقة فريدة لأسباب كان أهمها أنها لم تنجب له سوى البنات ، وهو يتلهف على إنجاب ولد ليحفظ له العرش فى ذريته . وبعد طلاقه لها راح رجال حاشيته يبحثون له عن فتاة بارعة الجمال تصلح لأن تكون ملكة ، وأما لوريث العرش ، وكان من بين المكلفين بهذه المهمة جواهرجى الأسرة المالكة أحمد نجيب ، وذات مساء دخلت إلى محله فتاة جميلة فى السادسة عشرة من عمرها ، لها وجه باسم برىء لتشترى مع خطيبها الموظف الشاب بإحدى المصالح الحكومية شبكتها الذهبية ورآها أحمد نجيب فصعق بجمالها و « استكثر » أن يفوز بها هذا الموظف الصغير .

فتعمد أن يعرقل عملية شرائها للشبكة وطلب منها أن تعود إليه بعد يومين ليريها خاتماً جميلاً رخيص الثمن سيحضره لها خصيصا ، وأسرع يتصل بالملك فاروق ويطلب منه الحضور إلى محله فى الموعد المحدد ليرى هذه الفتاة . وعادت الفتاة مع خطيبها فى الموعد المحدد ورآها فاروق فى مكتب الجواهرجى من خلف ستار وقرر خطبتها . . وسعى رجاله إلى

أسرتها بالنبأ السعيد . . فلم تتردد الأسرة ولا الفتاة نفسها فى التضحية بخطبة الموظف الصغير الذى فوجىء بالتنكر له بلا سبب مفهوم . وكان تصرف الفتاة بأحكام العقل المجردة « حكيماً » للغاية ! فأين هذا الموظف الصغير الذى لا تعدها الحياة معه إلا بحياة ربة أسرة عادية تشرف على المطبخ وتكوى ملابس زوجها ، من حياة القصور التى يعدها بها الزواج من فاروق ، وتزوجت الفتاة الموعودة بالحظ السعيد من الملك وحققت له أكبر أحلامه فأنجبت له ولداً ، واختال فاروق طرباً بمولد من سيحفظ العرش فى ذريته وأقام الأفراح ابتهاجاً به فلم تمض ستة شهور حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو وفقد فاروق عرشه إلى الأبد ، وغادر مصر إلى إيطاليا ، مصطحبا زوجته وطفله الوليد ، ولم تطل العشرة بينه وبين ناريمان بعدها أكثر من شهور تضاعفت خلالها معاناتها معه ، وقيل إنها لم تسعد بالحياة منذ تزوجته أكثر من أيام معدودة ، وحصلت على الطلاق وعادت لمصر . . وبعد فترة تزوجت من طبيب شاب فلم تستقر بها سفينة الحياة الزوجية معه أكثر من عامين أو ثلاثة ثم طلقت منه ، أما « الموظف الصغير » الذى امتحنته الحياة بهذه المحنة فقد عرف بعد قليل سر فسخ خطبته حين رأى صورة خطيبته السابقة فى الصحف وقرأ أنباء زواجها من الملك ، وتجاوز آلامه بعد قليل وتقبل أقداره . ثم تزوج من فتاة جميلة فاضلة من أسرة كريمة سعد بها وسعدت به ومضت بهما رحلة الحياة سعيدة هادئة . . ولم يمض وقت طويل حتى حقق نجاحه ، واستقال من الوظيفة الصغيرة وحصل على الدكتوراه فى القانون الدولى وعمل محامياً دوليا للشركات العالمية وصعد نجمه حتى

شغل منصب الوزير وحقق ثراء عريضاً هيأ له ولزوجته حياة ناعمة كحياة القصور ، وأتيح لى أن أقترب ذات مرة من حياته الشخصية وهو فى منصب الوزير فلمست فيه وفى زوجته الفاضلة دماثة الخلق والطبع الوديع .

وآه حقا لو كنتم تعلمون الغيب ! فلقد تزوج الشاعر الإنجليزى العظيم ميلتون صاحب « الفردوس المفقود » من ابنة قاض إنجليزى . . ولم تكن زوجته فى البداية سعيدة بزواجها منه لأن عمره ضعف عمرها ومزاجه كمزاج بعض الفنانين عنيف بعض الشىء ، وقد ظلت تسأل نفسها طويلا : ماذا سأفعل حين أنجب أولاداً منه ثم يموت زوجى وهم صغار وأواجه الحياة كأرملة وحيدة ! وأثرت هواجسها من المستقبل على حياتها معه فلم تنجب منه وهجرته فى عام زواجهما الأول ، وعادت لبيت أسرتها وبقيت به عامين ، ثم ثابت إلى رشدها وعادت إليه وأنجبت له ثلاث بنات . ولم تتحقق مخاوفها من أن تواجه الحياة كأرملة وحيدة فلقد ماتت « هى » وتركت بناتها فى رعاية الشاعر الذى كف بصره وهو فى الرابعة والأربعين فتقبل أقداره بشجاعة وقال فى إحدى قصائده :

« أنا لا أعتراض على مشيئة السماء » .

« ولم أضعف ولم يمت الأمل فى قلبى » .

وبعد قليل تزوج ميلتون من زوجة أخرى فماتت أيضا بعد سنة من زواجها منه فتزوج بعدها من زوجة ثالثة كانت « هى » التى طال بها العمر وعاشت بعده !

أما الأديب الإنجليزى العظيم شارلز ديكنز فلقد أحب الفتاة الجميلة

ماريا بندل ابنة مدير أحد المصارف وهو أديب يكافح لبناء حياته بقلمه، وألح عليها فى أن تتزوجه . . لكن الفتاة « العاقلة » لم تضعف أمام دموعه ولاأمام العاطفة التى تؤثر فى غيرها من « الحمقاوات » ورأت أنه لن يستطيع أن يوفر لها إمكانات الحياة المريحة . . وقالت « إن ديكنز شاب لطيف . . لكنه أديب ، فهل يستطيع أن يعولنى بقلمه ؟ » وحطمت قلب الأديب الشاب وتزوجت من ثرى إنجليزى يملك الضياع والبيوت ويستطيع أن يهيىء لها الحياة اللائقة بها . . وأشادت الأسرة بقرارها وبرجاحة عقلها فلم تمض أعوام قليلة حتى أفلس زوجها وبيعت الضياع والبيوت وعاشت حتى آخر أيامها فى مستوى الكفاف تحاصرها الديون من كل جانب .

أما ديكنز فقد تغلب على آلامه وواصل كتابة روائعة القصصية وكسب بقلمه ما لم يحلم به ذات يوم وأصبح من أغنى الرجال فى انجلترا فى عصره « وعبدته نساء انجلترا » كما قال عنه من أرخوا لحياته ولو علمتم الغيب حقا ما اخترتم إلا الواقع .

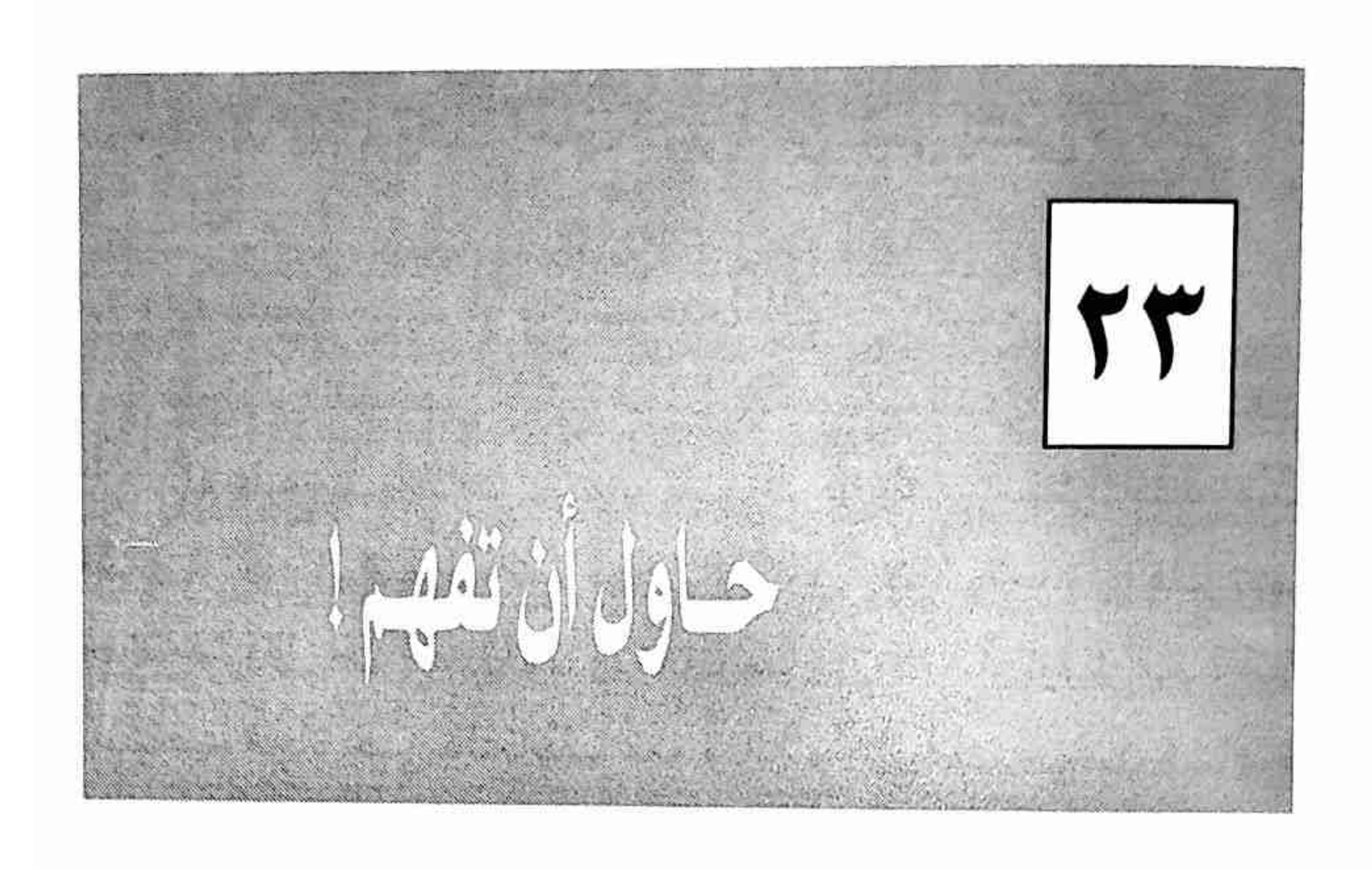
أو كما يقول الإمام الحسن بن على : من اعتمد على حسن اختيار الله لم يرض بغير ما اختاره الله له .

لكننا لا نرضى بكل أسف . . ولا نتقبل أقدارنا بشجاعة . . وإنما نتطلع دائما لما نرى أننا جديرون به . . ولا نكف أبدا عن الحلم بأن تجتمع لنا كل أسباب السعادة فى بوتقة واحدة ، كأننا بشر فوق العادة أو كأننا «درة البشر » التى ينبغى أن يكتمل لها ما لم يكتمل لأحد من قبلها ، ولا يجوز أن يجرى عليها ما يجرى على غيرها من الناس . أو كأننا نعلم الغيب

ونضمن تماما أننا إذا تخلينا عما بين أيدينا وضحينا به على مذبح أحلامنا فسوف نجنى السعادة التى نبحث عنها ونحصل على الأنفع الأرفع دائما .

وأبداً لا نتعلم من دروس الحياة ودروس التاريخ التى تطالبنا بالعكس أو قليلا ما نتعلم . . وقليلا ما نتقبل أقدارنا ونقول مع «ميلتون» :

« أنا لا أعترض على مشيئة السماء » ! .



٢٣

حاول أن تفهم!

تخيل نفسك تسير فى الشارع فإذا بشخص يصطدم بك بعنف ثم لا يتوقف ليعتذر لك . . وإنما يمضى فى طريقه بلا مبالاة .

لقد صدمك بعنف حتى كدت تسقط على الأرض . . ومع ذلك فلقد كنت مستعداً للصفح عنه . . إذا قال لك كلمة اعتذار واحدة . . ولم يقلها فغلى الدم فى عروقك . . واستدرت إليه منفعلاً وجذبته من ذراعه وعنفته بشدة . . واستسلمت لانفعالك فقلت له: إنه حيوان وتماديت فى الغضب حتى أصبحت مستعداً لأن تضربه أيضاً إذا تفوه بأى كلمة تزيد من هياج أعصابك . . فإذا بالرجل ينظر إليك مهموماً ويقول لك آسف ، لم أرك ولم أشعر بأنى اصطدمت بك . . لأنى حزين ومهموم بأفكارى ولا أكاد أشعر بالناس من حولى . . فقد مات ابنى

الوحيد منذ أيام ، وكنت أحاول التسرية عن نفسى بالمشى هرباً من جو البيت الحزين !

ماذا ستفعل حينئذ أو ماذا سيحدث لك حين تسمع منه ذلك؟

إنك نفس الشخص الهائج منفلت الأعصاب الذى كان على وشك الاعتداء عليه منذ لحظات . . وهو نفس الرجل الذى استثارك بشدة منذ قليل ، لكن الوضع اختلف بينكما الآن وفى لحظة واحدة ، فلم تعد حانقاً عليه إلى حد الجنون . . ولم تعد راغباً فى إيلامه أو إيذائه . . وإنما أصبحت فجأة تحس بالتعاطف معه وبالندم على أنك جرحت مشاعره بكلماتك القاسية ، وترغب بكل وسيلة فى أن تخفف أثرها عليه وتعتذر له عنها . . بل ولن تستريح نفسياً إلا إذا تأكدت أنه قد صفح عنك ، وقبل اعتذارك . . وربما تعارفتما وتبادلتما البطاقات ، وأصبحت هذه المقابلة العاصفة بينكما بداية لعلاقة إنسانية حميمة .

ما الذى تغير داخلك خلال لحظات فنقلك من حالة الغضب الأهوج إلى حالة التعاطف والمشاركة والمواساة ؟ إنه شىء جوهرى هام هو الفهم الإنسانى لمشاعر الآخرين ودوافعهم . . لقد فهمت لماذا اصطدم بك الرجل كأنما لم يرك . . ولماذا مضى فى طريقه بغير اعتذار، وحين « فهمت » تغيرت حالتك الوجدانية من فورة الغضب إلى حالة العطف عن الآخرين والتماس الأعذار لهم .

« وفهم كل شىء يؤدى إلى الصفح عن كل شىء » كما قالت الأديبة الفرنسية مدام دى ستايل ذات يوم . . لكن كيف يتحقق هذا الفهم فى

البداية لكى ينزع فتيل الغضب ويغرس بدلاً منه بذور العطف والتقارب؟

إنه لن يتحقق إلا إذا « تكلم » الإنسان عن نفسه وعبر عن مشاعره بصدق أو تكلم الآخرون عنه وفسروا ظروفه . . لكن آفة الإنسان فى أحيان كثيرة أنه قد لا يهتم بتوضيح أفكاره ويفضل أن يحيط نفسه بالغموض ، فيسىء الآخرون فهمه ويتعاملون معه على أساس فهم خاطىء له . . وآفة الآخرين أنهم فى كثير من الأحيان ليسوا على استعداد لأن يتطوعوا بشرح ظروف غيرهم . . وطلب الأعذار لهم ، لأنهم مشغولون بأنفسهم عن الآخرين .

وفى مسرحية « سوء التفاهم » للأديب الفرنسى الجزائرى المولد البير كامى عاد الإبن المهاجر بعد غيبة طويلة إلى بلدته . . وأقام فى الفندق الصغير المهجور الذى تملكه أمه، وشقيقته ، فلم يتعرفا عليه . . وفضل ألا يصارحهما بشخصيته فى اليوم الأول من إقامته ليستمتع بالمفاجأة التى يعدها لهما بعد قليل ، فكانت النتيجة المأساوية أن قتلته أمه وشقيقته دون أن يعرفا شخصيته ليسرقاه . . لأن الفندق مهجور . . والمدينة الصغيرة مخربة ولم يعد يزورها أحد . . ولم يعد الفندق يدر عليهما ما يسد مطالبهما !

ولخص كامى أزمة الشقاء الإنسانى كلها فى عبارة واحدة هى : لو أن كلمة واحدة قد قيلت لما وقعت الجريمة ، لكن أحداً لم يقلها . . وشقاء البشر ينتج أحياناً بسبب عجزهم عن النطق بكلمات بسيطة أو بسبب تفضيل البعض لأن يغلف نفسه بالصمت والغموض !

وكذلك الحال فى كثير من معاملات الإنسان اليومية وفى حياته الخاصة وفى كثير من أزماته التى تحس أحياناً أنه لو أن كلمة واحدة قد قيلت لما تعقدت الأمور على هذا النحو ولأمكن تجنب كثير من الخلافات والمشاكل . . والمعاناة .

إن الإنسان قنبلة قابلة للانفجار فى أية لحظة . . لكن هناك كلمات سحرية تستطيع أن تنزع فتيلها وتبطل مفعولها قبل أن تدوى بالخراب والدمار ، وهى الكلمات التى تحقق الفهم الإنسانى فيقود الفهم إلى الصفح والتماس الأعذار للمخطئين . . لكن هل ينطق بها فى الوقت المناسب ؟ هذه هى القضية التى يهتم بها فرع جديد من فروع علم النفس السلوكى الذى يجد إقبالاً عليه الآن فى الغرب لأنه يساعد الإنسان على تعديل سلوكه وتوضيح نفسه للآخرين . . حتى لا يسيئون فهمه ويظلمونه باتخاذ مواقف حادة منه على أساس فهم خاطىء له !

لقد قال سقراط العظيم لأحد تلاميذه ذات يوم : تكلم حتى أراك أى لكى أعرف شخصيتك الحقيقية من خلال أفكارك . . وأفهمك . . وألتمس العذر لك .

وهذا هو نفس ما يطالب به المتخصصون فى هذا الفرع الجديد الإنسان فى حياته الخاصة . . والعامة على السواء .

أن يتكلم . . ويوضح نفسه ولا يتصور أن الآخرين ينبغى عليهم أن يعرفوه من الداخل بغير جهد منه . فالصمت والغموض والانكفاء على الذات والتردد فى البوح بالمشاعر من أكثر عوامل سوء التفاهم الإنسانى

بين البشر . . ومن أعدى أعداء الحب بين المتحابين والمودة بين الأهل والأصدقاء ورفاق الحياة .

لقد درس خبراء الاستشارات العائلية فى الولايات المتحدة عدداً كبيراً من حالات عدم الوفاق الزوجى ، وكثرة المشاحنات اليومية بين أزواج وزوجات يعترف كل منهم بأنه يحب رفيق حياته ، لكنه يعانى معه ، وتوصلوا بعد الدراسة إلى روشتة من ثلاث خطوات تساهم فى تجنب أسباب المنازعات اليومية بين الأزواج . . ويمكن فى رأيى تعميمها على كل العلاقات الإنسانية الأخرى .

الخطوة الأولى منها تقول لك : اسمع جيداً ما قيل لك لتتفهم أولاً الأمر المطروح للنقاش ، قبل أن تندفع إلى الرفض والاعتراض والهجوم وتخرج منك كلمات طائشة ، ثم تكتشف بعد انفجار الأزمة أنك لم تتبين جيداً ما قيل لك ، وأنك تسرعت بالانفعال قبل أن « تفهم » . . ولو « فهمت » لعذرت وكان رد فعلك أكثر . عقلانية وأقل اندفاعاً !

وعلى الجانب الآخر . . فإذا قلت شيئاً لشريك حياتك أو لأى إنسان تتعامل معه . . فتأكد أولاً من أنه قد سمع بوضوح ما قلته واستوعبه جيداً قبل أن يثور غضبك عليه لأنه لم يستجب لك الاستجابة الملائمة ، فقد تكتشف بعد اشتعال الأزمة أنه لم يسمعك أصلاً . . أو سمعك ولم يفهمك جيداً . . أو سمعك وفهمك على نحو خاطىء . . وهذه الخطوة ضرورية لتجنب بعض أسباب النزاع بين البشر من المنبع . . فقد تلوم على سبيل المثال شخصاً لأنه لم يرد عليك تحيتك وتقاطعه أو تعامله

بجفاء ثم تكتشف بعد حين أنه لم يسمع تحيتك من الأصل ، أو سمعها ولم يتصور أنها موجهة إليه هو بل لشخص آخر . . إلخ .

أما الخطوة الثانية فهى أن تجعل وجهة نظر شريك حياتك أو الطرف الآخر معك فى النقاش قابلة للمناقشة والتفكر فيها ، ومن ثم قبولها أو رفضها بعد ذلك ، ذلك أن من أهم أسباب سوء التفاهم بين البشر . . مبادرة أحد الطرفين بنبذ رأى الطرف الآخر قبل مناقشته كما لو كان «زبالة » لا تستحق الالتفات إليها ، وليس وجهة نظر جديرة بالتفكير فيها . كما أن إشعار شريك الحياة أو محدثك بأنك تأخذ شكواه أو أفكاره مأخذ الجد يريحه نفسياً ، ويشعره باهتمامك به ومشاعره قبل أن تبدأ مناقشة رأيه والاختلاف معه حوله .

فقد تقول لك زوجتك مثلاً إنك لا تشعر بمعاناتى . . ولا تهتم بأحاسيسى كإنسانة وكل ما يعنيك من الحياة هو مطالبك واحتياجاتك . . إننى لست خادمة مكلفة بخدمتك وخدمة أطفالك ليل نهار فلى أنا أيضاً احتياجاتى الإنسانية وحقوقى . . أريد من يفهمنى ويقدر مشاعرى ويشاركنى أحاسيسى ويلبى احتياجاتى العاطفية ، وليس نزيلاً فى فندق لا يعنيه من أمرى سوى الطعام والملابس النظيفة وميزانية البيت وصحة الأولاد . . إلخ .

فكيف يكون فعلك السريع تجاه شكواها التى سمعتها من قبل وربما سوف تسمعها إلى نهاية العمر ؟

إنك قد تجيبها الإجابة الشائعة : ما هذا الهراء الذى تقولينه وترددينه كل حين ؛ إننى أشقى وأكافح وأفعل كل ما أستطيع لإرضائك وتلبية

احتياجاتك ومطالب الأبناء فماذا تفعلين أنت ؟ إن أعمال البيت وإعداد الطعام لا تستغرق منك أكثر من ساعتين وتمضين اليوم بأكمله جالسة كالصنم أمام التليفزيون ؟ ثم تحاولين بعد ذلك زيادة متاعبى بهذه التفاهات التى لا يهتم بها سوى « رأس » خالية من الاهتمامات الجدية كرأسك ؟

فإذا فعلت ذلك فلقد حولت شكوى عابرة أو مجرد عبارة للتنفيس عن الضيق العابر بحكم العادة ، إلى موضوع للجدال . وسوف ينهض كل منكما لإثبات سلامة موقفه وخطأ موقف الآخر وينتهى الأمر بنزاع جديد يؤكد لكل منكما أنه إنسان تعيس . . وضحية لأنانية الآخر واهتمامه بنفسه وحدها ! وكذلك نفس الشىء فى أى خلاف عابر مع أى إنسان تتعامل معه !وخبراء الاستشارات ينصحونك بشىء مختلف هو أن تجعل من شكوى الطرف الآخر شيئاً له منطقه ومعقوليته حتى ولو اختلفت معه . . فالشكوى جدية أولا وليست من التفاهات لكن إذا كان لك رأي آخر فيها تشرحه لها وتحاولان معاً التوفيق بين ظروف كل منكما بما يزيل أسباب الشكوى ويرضى الطرفين .

ولأن الأميركيين مولعون بمعلبات الطعام الجاهز . . والأكلات المطهوة مسبقاً التى لا تحتاج إلا إلى تسخينها قبل تناولها ، فلقد أعدوا لهم أيضاً حوارات وعبارات جاهزة لكى يستخدموها لامتصاص بوادر الشقاق وتحويله إلى مناقشة عائلية هادئة وليس إلى نزاع عائلى ، ويدربون الأزواج والزوجات الذين يلجأون إلى مكاتب الاستشارات العائلية على حفظها وترديدها فى الحالات المماثلة . . وهى قائمة تختلف

فى كلماتها ، لكنها تتفق فى مضمونها الذى لا يخرج عن مضمون هذه العبارة : إن كلامك يبدو لى منطقياً ومعقولاً وأفهم أسبابك وأقدر مشاعرك وأتعاطف معها . . لكنك من ناحية أخرى يا عزيزتى . . ثم يبدأ الزوج أو الزوجة فى عرض وجهة النظر الأخرى فى مناخ من العطف والاستعداد للتفاهم وليس فى جو من العناد والرفض والتحفز لإثبات حمق الطرف الآخر أو تفاهته .

ثم تأتى الخطوة الثالثة بعد ذلك . . وهى تطالب كل طرف بأن « يتمثل » مشاعر الآخر . . ويتصور نفسه فى موقفه ، وحين يفعل ذلك فسوف يكتشف أنه لو كان الشخص الآخر لكان له بعض الحق فى شكواه . وهذا « التمثل » يخفف من حدة الرفض والإنكار لوجهة نظر الطرف الآخر . . ويفتح الباب لالتماس الأعذار له . . ويقوى الرغبة فى التفاهم معه .

ويرتبط بهذه الخطوة شىء آخر شديد الأهمية . هو أن يشعر كل طرف الطرف الآخر أنه يحاول الالتقاء معه فى منتصف الطريق ، ويحرص على عدم إغضابه . . لأنه إنسان عزيز عليه ولا يتصور أن يفقده مشاعره الحميمة . ومن عجب أن هؤلاء الخبراء لا يكتفون بذلك وإنما يتجاوزونه إلى « تدريب » الأزواج والزوجات على التعبير عن مشاعر الحب التى يحملونها لشركاء الحياة والتى تتوارى أحياناً خلف غيوم الشجار اليومى .

وقد شاهدت فى إحدى حلقات البرنامج التليفزيونى الأميركى الشهير « أوبرا وينفرى شو » مذيعة البرنامج السمراء الذكية تعرض ثلاث حالات لأزواج وزوجات يحب كل منهم الآخر لكنهم كانوا يعيشون فى

شقاق مستمر ومشاجرات يومية ، فلجأوا إلى خبير الاستشارات الأسرية ، وقام الخبير بدراسة حالاتهم ومساعدتهم على عودة الحب والصفاء بينهم . . ولا غرابة فى ذلك لكن الغريب حقاً ، هو أن كل ذلك قد تم على عدة مراحل استغرقت عدة أسابيع وسجلتها كاميرا التليفزيون فى بيوت هؤلاء الأزواج والزوجات ! فسجلت الكاميرا فى البداية شكوى كل زوجة وزوج بدموع الزوجة وسأم الزوج وتفكيره فى الانفصال ، ثم بدأ العلاج وتابعته الكاميرا أيضاً فى جلسات متعددة، تضمنت نصائح الخبير لكل زوجة وزوج بما يفعل ويقول عند نشوب بوادر الخلاف . ثم بدأ « التدريب العملى » من الخبير للزوجين على النطق بالعبارات المدروسة التى تنزع فتيل الغضب والعناد قبل الانفجار، ثم النطق بعبارات الحب والهيام التى أنسى استمرار المشاجرات الزوجية استخدامها خلال السنوات الأخيرة . وشاهدت الخبير يجلس بين الزوجين كالملقن فى خشبة المسرح يقول للزوجة : قولى له ماذا تحبين فيه ؟ فتنظر إلى زوجها وتعبر له عما تحب فيه ابتداء من لون عينيه إلى تسريحة شعره ، إلى ملامح وجهه حتى طريقة مشيته . . ثم يتجه الخبير إلى الزوج ويطلب منه أن يعبر لزوجته عما يحبه فيها فيستجيب ويعبر لها عن إعجابه بكل شيء فيها من عينيها حتى أصابع قدميها الجميلة .

ويلقن الخبير الزوجة بما تجيب به على كلمات الإطراء ويسعفها «بمفاتيح » الحوار كما يفعل الملقن مع الممثلين كلما نسوا . . وكذلك يفعل مع الزوج . والغريب حقاً هو أنه رغم أنهما كان يرددان حواراً معداً من جانب الخبير الجالس بينهما ، فلقد سعد كل منهما بما سمع وبدت

السعادة على وجهه ، لأن الحوار معد . . لكن المشاعر صادقة وكانت تنتظر من يساعدها على إخراجها والتعبير عنها . ، ولأن الإنسان يتطلع بلهفة دائماً لمن يؤكد أنه يحبه ويفهمه ويتعاطف معه .

وبعد التدريب على الحوار بدأ التدريب على « الحركة » أو الميزانسين بلغة المسرح ، فراح الخبير يدرب كل زوجين على أن يستلقيا متجاورين على أريكة غرفة المعيشة ويحتضن كل منهما الآخر فى حنان . . ورأيته يرفع يد الزوجة ويضعها على مؤخرة رأس زوجها ويطلب منها أن تداعب شعره بأصابعها وهى تتحدث إليه . . ويرفع ذراع الزوج ويلفه حول كتف زوجته ، ويطلب من كل منهما أن ينظر إلى عينى الآخر وهو يتكلم معه ، لأن نظرة العين نوع من التواصل . . وأزمة جفاف الحب تبدأ من تجاهل كل طرف النظر إلى عينى الآخر وهو يحدثه . . حتى ينتهى الأمر بانقطاع سلوك التواصل والاتصال بين الاثنين مع تصاعد الخلافات . . ورأيته ينصحهما بألا يناقشا أى اختلاف فى وجهة النظر بينهما إلا وهما فى هذا الوضع الحميم . . ويؤكد لهما أن النتائج ستختلف كثيراً .

وبعد انتهاء برنامج العلاج الذى استغرق عدة أسابيع جاء الجميع إلى استديو التليفزيون وناقشتهم المذيعة الذكية وعرضت أمامهم لجمهور الحاضرين فى الاستديو مراحل العلاج التى صورتها الكاميرا فشاهدوا أنفسهم مع الجمهور ومع ملايين المشاهدين فى أنحاء العالم . . وهم تعساء متباعدون يفتقدون التجاوب والاتصال . . ثم وهم يعالجون بواسطة الخبير إلى أن نجح العلاج وحل الوئام محل الخلف !

وفى عبارة واحدة لخص الخبير الأزمة كلها فى أنها كانت أزمة انقطاع التواصل بسبب عدم فهم كل منهما لدوافع الآخر وحقيقة أسبابه ومشاعره . . وحين تحقق الفهم عاد التواصل وذاب الجليد ونمت بذور الحب القديم من جديد !

وبالفهم تحل كثير من المشاكل . . ويتخفف الإنسان من كثير من عناده ومعاناته .

لكن الفهم لا يتحقق فى ظل الصمت والغموض وموت الكلمات الحلوة فوق الشفاه . . فتكلم أرجوك حتى أراك . . وأفهمك . . وألتمس لك العَذر وأصفح عنك . . وشكراً مقدما ! .

٢٤

أحبّوها .. ولعنوها !

كلهم أحبّوها . . أكثرهم لعنوها . . جميعهم اتفقوا على أنه لاغنى عنها ! هذا باختصار هوموقف الأدباء والمفكرين العظام من المرأة منذ قديم الزمان ! فكتب الأدب حافلة بالسخريات اللاذعة عن المرأة والزواج ، وبالرغم من ذلك فالجميع يسلمون مع الشاعر الإنجليزى (كيتس) بأنَّك « تستطيع أن تكره المرأة . . وتستطيع أن تحبها لكنك فى كل الأحوال لا تستطيع أن تعيش بدونها » .

. . وهذا صحيح فكل من تظاهروا من الأدباء والمفكرين بأنهم يكرهون المرأة . . ولا يرونها « كائنا » جديراً بالحب ، سلموا أمامها فى حياتهم الخاصة وبعد بعض العناد وألقوا أسلحتهم نادمين .

وصاحب أشهر السخريات اللاذعة عن المرأة والزواج الروائى

الفرنسى العظيم أنوريه دى بلزاك كان يقول إنه لا ينبغى للرجل أن يتزوج قبل أن يدرس علم وظائف الأعضاء . . ويقوم بتشريح امرأة واحدة على الأقل ليعرف سر هذا الكائن الغريب ! .

وكان يقول أيضاً : العشق أسهل ألف مرة من الزواج فالعاشق ليس مطالباً إلا بأن يكون لطيفا من حين لآخر عندما يلتقى بحبيبته ، أما الزوج فهو مطالب بأن يكون لطيفاً ليل نهار . . وإلا كانت عاقبته سوداء! .

وغير ذلك كثير وكثير من الكلمات اللاذعة الساخرة ، ومع ذلك فلقد كان هو نفسه أسيرا لكونتيسة بولندية ظل يطاردها اثنى عشر عاما لكى تحصل على الطلاق من زوجها وتتزوجه ، وهى تعبث به وتراوغه ثم مات زوجها فأسرع إليها يكرر مطلبه ويؤكد لها أنه قد تخلص من ديونه وجمع ثروة كبيرة وسوف يهيىء لها حياة فاخرة ، فظلت تراوغه خمس سنوات أخرى ثم وافقت على الزواج منه ، وأعدَّ لها بلزاك قصراً فاخراً وكتب إلى شقيقته أنه قد حقق الآن حلم حياته ، وتزوجها فإذا به يجد بين يديه سيدة كهلة ذوى جمالها وتورمت ساقاها ويداها من أثر مرض النقرس . . وتعجز عن السير أحياناً بغير مساعدة الآخرين ، لكنه رغم كل ذلك سعيد بأن فتاة أحلامه القديمة قد استقرت فى عش الزوجية معه ، ولم يمض على زواجه بها سوى شهور حتى مات وورثت الكونتيسة العجوز ثروته ، وقال بعض النقاد إنها ما تزوجته إلا بعد أن تأكدت من قرب وفاته ، وصدقت عليه كلمة معاصره العظيم فيكتور هوجو الذى

زاره فى مرضه ثم كتب عنه فى أوراقه « تزوج أخيراً وهو غنى وعلى أبواب القبر » أى بعد طول عناد ومكابرة فى احتقار الزواج ورفضه والتندر عليه !

والأديب الإيرلندى الكبير برنارد شو كان يقول : إن الفقراء يتزوجون لأنهم لا يملكون أجر خادمة ، وأواسط الناس يتزوجون لأنهم لا يقدرون على تكاليف العشيقة ، والأثرياء يتزوجون لأنهم لا يجدون وسيلة أخرى «لشراء » وريث يرث عنهم أموالهم ! وكان يقول أيضا ساخراً من الزواج : طريقان لا ثالث لهما لكى تصبح ثرياً . . الأول أن تتزوج من زوجة ثرية . . والثانى أن تكافح عشرين عاما وتجمع ثروة ثم تتزوج من زوجة ثرية أيضا !

ومع ذلك فلقد استمتع بحياته العائلية مع زوجته إلى أقصى حد واستمتع بحبها وعطفها وإعجابها به كإنسان وأديب ، وكانت زوجته أطول لسانا منه على النقاد الذين هاجموا مسرحياته . . بل وعلى الجمهور الذى لم يحسن استقبال بعضها . . وطلبت منه غاضبة بعد فشل إحدى هذه المسرحيات ألا يكتب « لهؤلاء الناس » مسرحيات جديدة . . لأنهم لا يستحقونها !

والشاعر سانذارد كتب يقول :

« يكتب على الماء . . يزرع فى الرمال من يسلم كل أمره إلى قلب امرأة ! » .

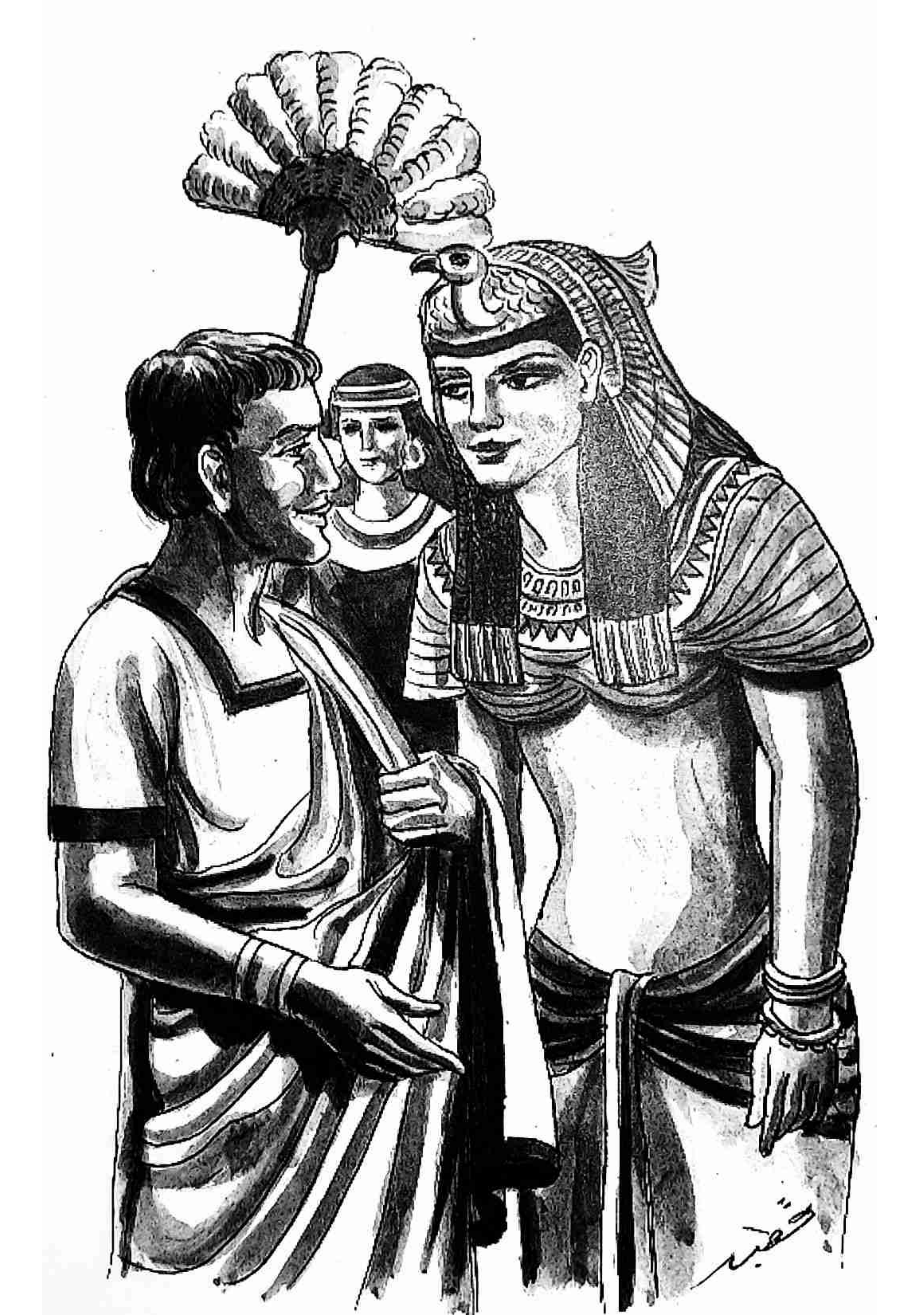
فلم تمض عليه فترة قصيرة حتى « سلم كل أمره » إلى قلب امرأة وتزوجها وعاش إلى جوارها حتى نهاية عمره !

والفيلسوف الألمانى شوبنهاور ظل معظم سنوات عمره يكره المرأة ويحتقرها ويقول : « المرأة مخلوق وضيع قصير النظر ليس لديه أى استعداد للسمو الروحى وهى «شيء» بين الطفل والرجل تستعبدها اللحظة الراهنة ولا تستطيع أن تنظر لأبعد من موضع قدمها » !

وعاش وحيداً منعزلاً حتى بلغ السبعين . . وكان من فقرات برنامجه اليومى الذى يقسمه بين القراءة والتفكير والتحديق الصامت فى تمثال صغير لبوذا يضعه على مكتبه فقرة ثابتة لم تتغير لأكثر من عشرين عاما هى : توجيه كلمة قاسية كل يوم إلى صاحبة البيت الذى يقيم فيه والسخرية من غبائها وتبادل بعض السباب معها !

ثم طرقت بابه ذات يوم فتاة شقراء جميلة صغيرة استأذنته فى أن تصنع له تمثالاً . . ووافق الفيلسوف وجلس أمامها ساعتين كل يوم . . فإذا بهذا القلب الذى ظل يكره المرأة من أعماقه أكثر من خمسين سنة . . يقع فى هوى هذه الفتاة الصغيرة الجميلة . . ويسلم قياده لها بلا مقاومة ويكتب الفيلسوف فى أوراقه متعجباً من نفسه : لم أكن أتخيل أن هناك فتاة واحدة فى العالم جديرة بالحب حتى التقيت بهذه الفتاة !

والقائد الرومانى ماركوس انطونيوس أو مارك انطونيو زحف بجيوشه إلى الشرق ليرفع أعلام روما عليه . . ووصل إلى طرطوس فى سوريا ، وأقام معسكره هناك ، وكان يشك فى ولاء ملكة مصر الجميلة كليوباترا فأرسل يستدعيها للحضور إليه لتقدم إليه الحساب عما فعلت وعما تقدم إلى روما ، فتوجهت إليه كليوباترا فى موكب لم يشهد له التاريخ مثيلا فى الجلال والعظمة ، والتقت بالقائد الرومانى المنتصر ، وبدأ أنطونيو كما



قال المؤرخون حديثه لها بلهجة « السيد الآمر » للتابع المشكوك فى أمانته ، فلم يلبث أن فتنته الملكة الساحرة ووقع فى هواها وعادت معه إلى الإسكندرية فاستسلم لحبها وأشركها معه فى العرش ثم أقدم على الخطوة التى أثارت عليه عداء روما فطلق زوجته أوكتافيا ، وتزوج كليوباترا فاعتبرته روما خائنا لها وسيرت إليه الأساطيل التى هزمته . . وانتحرت كليوباترا .

ولخص المؤرخون قصته مع كليوباترا فى عبارة موجزة هى أنه :

بدأ آمراً ثم انتهى عبداً مطيعا !

وكذلك فعل المفكر الفرنسى « سان سيمون » واضع بدايات الفكر الاشتراكى ، فلقد انشغل بدعوته وبالشباب الذين يلتفون حوله ويتعلمون مبادئه عن المرأة والزواج وقال : إن المرأة « اهتمام لا يليق بالمفكرين » . . لكنه رغم ذلك تمنى أن يتزوج أشهر كاتبة فى عصره وهى مدام دى ستايل وحاول إقناعها بالزواج منه . . فقال لها : أنت أعظم امرأة فى العالم وأنا أعظم رجل فلنتزوج إذن لننجب أعظم ولد فى هذا الكون !

لكن مدام دى ستايل ردته خائباً وضحكت من طفوليته وأوهامه ومن محاولته أن يخفى ضعفه واحتياجه العاطفى إليها تحت قناع فخم من الكلمات الكبيرة والألفاظ الرنانة . . وكأنهما إذا تزوجا فلن يفعلا ذلك لاحتياجات إنسانية وعاطفية وبيولوجية كما يفعل سائر البشر . . وانما

لأداء رسالة تاريخية تليق بأمثالهما من الفلاسفة والمفكرين !

وعاش سان سيمون عمره يتمنى الزواج منها . . وهى ترفضه بإصرار . وما حدث لشوبنهاور ومارك أنطونيو وسان سيمون حدث لكثيرين غيرهم ويحدث كل يوم لآخرين بدأوا جميعا آمرين . . ثم انتهوا راكعين . . بل ونادمين على ضياع العمر بلا زواج . من توفيق الحكيم الذى ظل رافضاً للزواج حتى اقترب من الخمسين ، وكتبت عنه الصحف أنه عدو المرأة ثم تزوج وسعد بحب زوجته له سنوات طويلة . . كأى أعزب عادى قاوم فكرة الزواج طويلا ثم انهزم أمامها ، فإذا قرأت هذه الكلمات القصيرة اللاذعة التى يجمِّل بها بعض الكتاب كتاباتهم من نوع :

إذا تشاجر الزوج وزوجته فإما أن تنتصر هى أو ينهزم هو !

أو من نوع :

الزواج كالجلوس فوق ظهر سفينة فى بحر هائج كلاهما ينبغى أن يفعله المرء بحذر شديد !

أو من نوع :

لا تمدح زوجتك لأصدقائك إلا إذا عاشرتها سبع سنوات كاملة فإذا فعلت . . « ابقى قابلنى » إذا استطعت أن تجد صوتك بعدها لكى تتكلم بالمدح أو بغيره !

إذا قرأت شيئاً من ذلك فلا تتصور أن كاتبه من أعداء المرأة أو أعداء الزواج . . فهى ليست سوى ثرثرة ينصح بها أطباء النفس لكى تخفف من

البخار المكتوم «وتعين» الجميع على الاستمتاع بالحياة الزوجية . . أو على مواصلة الحياة . والشىء اللافت للنظر حقاً هو أن هذه السخريات اللاذعة من الزواج لا نقرأها إلا للكتاب الرجال ، وأننا لا نقرأ مثلا لكاتبة أو أديبة عبارة لاذعة تسخر من الرجل أو الزواج ، وتصبح قولا مأثورا تتناقله كتب الأدب كما تفعل مع أقوال الرجال . وتفسير هذه الملاحظة عندى هو أن معظم الكتاب أصلاً من الرجال . . وأن من يكتب من النساء يتحرجن من السخرية من الزواج ومن الرجل لأسباب عائلية واجتماعية مفهومة ، وأيضا لأن المرأة تبدد موهبتها الفنية فى انتقاد الرجل والزواج فى الكلام الشفوى وجلسات الصديقات ، ولو خطت أفكارها على الورق لأضحكتنا بتعليقاتها اللاذعة من الرجل ربما بأكثر مما يضحكنا الرجل حين يسخر من المرأة والزواج . فعسى أن تتجرأ المرأة وتكتب بالشعر والنثر رأيها فى ذلك وإلى أن تفعل فسوف يظل إعجابى بلا حدود بعبارة الفيلسوف الإغريقى سقراط حين سأله شاب من تلاميذه : هل تنصحنى بأن أتزوج أم بأن أبقى عزباً ؟

فأجابه سقراط الحكيم بلا تردد : تزوج يا ولدى . . فأنت فى كلا الحالين نادم !

أى أنك إن تزوجت سوف تندم على ضياع حريتك ومالك وراحة بالك !

وإن لم تتزوج فسوف تندم على ضياع العمر فى الوحدة والوحشة وافتقاد الرفيق !

وما دام الأمر كذلك فرأيى دائماً هو أن تندم بعد أن تضيف شيئاً للحياة . . بدلا من أن تندم بعد أن تخصم شيئاً منها . ذلك أن ندم الأعزب فى رأيى دائماً أكبر . . لهذا لا أتردد فى استعارة عبارة سقراط البليغة هذه لأجيب بها على من يسألوننى نفس السؤال الحائر . فهل توافقنى فى ذلك . .

أم . . هل عندك جواب آخر ؟



أقسى أنواع العذاب . . أن ترى « أملك » أمامك أو قريباً من يدك وتعجز عن أن تمسك به !

ولأنه « قريب » . . فسوف تتعذب دائماً بالرغبة فيه . . ولأنه «مستحيل » فسوف تتعذب دائماً بالحرمان منه وأبداً لن تناله ويسكن به قلبك . . وأبداً لن تيأس وتنعم باليأس منه .

وهذا هو عذاب كل إنسان يتطلع إلى حلم سعادة مستحيلة . . أو إلى أهداف لا تسمح له الأقدار ببلوغها . . ولا يسمح هو لنفسه باليأس منها .

وهو أيضاً عذاب فرنتشيسكا الجميلة الذى صور به الشاعر الإيطالى العظيم عذاب الإنسان فى كل مكان وزمان ، أصدق تصوير . . وأبشعه

! ففى مدينة إيطالية صغيرة تقع على ساحل الأدرياتيك ، اتفقت أسرتان نبيلتان فى العصور الوسطى على وضع حدّ للعداء والتنافس بينهما عن طريق المصاهرة . ورشحت فرانتشيسكا الجميلة الرقيقة للزواج من أحد شباب الأسرة المنافسة ، فاعتقدت أنها سوف تتزوج من باولو الشاب الوسيم القوى الذى تحبه فى صمت ، لكنها خدعت وفوجئت بنفسها تزف إلى شقيقه القبيح المشوه الصارم جانتشوتو فاستسلمت لمصيرها ونفذت إرادة أبيها وأسرتها وتزوجته وأنجبت منه طفلة وكتمت حبها الصامت فى قلبها ، ولأن نداء الحب يخترق الحواجز فلقد أحبها باولو وبادلها حبها الصامت المقهور .

ثم عين الزوج عمدة لإحدى المدن القريبة فانتقل إليها وأصبح غيابه عن زوجته الجميلة يطول ، ووجد المحبان بعض الوقت لتبادل الأحاديث البريئة والنظرات المعبرة، ثم حدث أن جلسا فى أحد الأيام يقرآن معاً قصة فرنسية عن غرام الملكة جينفرا بفارسها الوسيم لانتشلوتو فبلغا فيها مشهداً عاطفياً تضعف فيه إرادتهما ويستسلمان لإرادة الحب فيتبادلان قبلة محرمة ، فالتقت عيون الحبيبين فرانتشيسكا وباولو وشحب وجه كل منهما وتزايد نبضه ورأت فرانتشيسكا نفسها فى صورة الملكة جينفرا ورأى باولو نفسه فى صورة الفارس الوسيم . . فمال على حبيبته ولمس شفتيها . . واستسلمت الجميلة لقبلته للحظات ثم تمالكت نفسها ونهضت مضطربة . ورآهما أحد الأقارب فكتب إلى زوجها وعاد الزوج وراقبهما خفية حتى رآهما فى عزلتهما يقرآن نفس القصة فاندفع إليهما . . وبادر باولو بالفرار لكن ثوبه تعلق بالباب وهجم عليه لانتشلوتو ليضربه

بسيفه فأسرعت فرانتشيسكا تعترض طريقه وتحمى حبيبها ، فاخترق السيف صدرها ونفذ إلى ظهر باولو فمات العاشقان فى لحظة واحدة وبسيف واحد جمع بين جسديهما للمرة الأولى منذ غزا الحب قلبيهما .

وعرف الشاعر العظيم دانتى الليجرى بمأساة العاشقين الحقيقية فى شبابه وتأثر بها ، واعتزم أن يكتب عنها فى أشعاره ذات يوم . ثم كتب ملحمته الشعرية « الكوميديا الإلهية » التى يتصور فيها أنه قد صعد إلى السماء وزار بإرشاد أستاذه الشاعر العظيم فرجيل الجحيم ثم المطهر ثم الفردوس ، وكتب يصف «ما شهده » شعراً ، فقال : انه رأى فى المنزلة الثانية من منازل الجحيم فرانتشيسكا وحبيبها باولو بين الآثمين بدافع الحب وليس عن استسلام للشهوات واللذات ، وهؤلاء عذابهم أخف من عذاب الممعنين فى الفسوق واللذات بإرادتهم . ومع أنه أخف فإنه أقسى على من له قلب وعاطفة من عذاب الجسد ، فلقد صورهم دانتى ورياح الجحيم تتلاعب بهم بصفةدائمة وتضربهم ببعضهم بعضا بلا توقف وتزأر الرياح حولهم للأبد فلا يسمعون بعضهم بعضاً . . ولا يستريحون . وهكذا من يفقد سيطرته على عواطفه فتتلاعب به فى الدنيا . . وتتلاعب به رياح الجحيم فى الآخرة كما يقول لنا دانتى !

أما فرانتشيسكا الجميلة وحبيبها فلقد اختار لهما دانتى عقابا مختلفا رآه أخف من عذاب الآخرين . . ورأيته أنا أقسى وأشد ! فالرياح تحملهما معاً دائماً ويحلقان أو يتخبطان متجاورين وعواصف الجحيم تسكن قليلاً من حين لآخر لكى تتيح لهما أن يتبادلا عبارات الحب التى حرما منها فى الدنيا لأن خطيئتهما فى رأى دانتى تستحق العطف لا القسوة ،

وقد نالا عقابهما فى الدنيا بالقتل . . وسكنا المنزلة الثانية من الجحيم فى الآخرة . . فلا بأس بأن يسمح لهما ببعض العزاء العاطفى فترفق بهما رياح الجحيم وتحملهما معا من مكان إلى آخر ويتبادلان الأحاديث . . ثم تقربهما الرياح حتى يوشك ثغراهما أن يتلاقيا فإذا ما هما بتبادل القبلات باعدت بينهما من جديد واستمر هذا العذاب بلا نهاية . . ولا أمل

وحين سألها دانتى عن خطيئتها أجابته باكية بأنها الحب الذى لا يعفى محبوبا من أن يبادل من يحبه . . الحب !

وقالت له : إن الحب قد قادهما إلى ميتة واحدة وحكمت الأقدار عليهما بأن يتلازما فى الحياة والموت واللذة والعذاب !

وسمع باولو كلام حبيبته فبكى صامتاً . . واشتد تأثر دانتى بعذابهما فأغمى عليه !

وانعكس تعاطف الشاعر العظيم مع فرانتشيسكا الجميلة فصورها رقيقة نبيلة صادقة لا تحقد على أحد حتى على من قتلها ولا تسخط على عذابها الذى تتقبله برضا وتتحمله فى صبر ولا تتهرب من خطيئتها أو تلتمس لنفسها الاعذار فيها ، وإنما تفسرها بالحب وتقول : إن حرارة القلوب تذيب الذنوب أو تذيب الإحساس بها على الأصح فيكون هذا المصير !

وحرام والله ما فعله الشاعر العظيم بفرانتشيسكا الجميلة وحبيبها باولو رغم عطفه عليهما وإيمانه بأنها قد أحبته بلا خطيئة حتى كانت لحظة الضعف والقبلة المحرمة التى لم تتكرر !

فقد أراد لها عذاباً « مخففاً » فحكم عليها بأن تقاسى أشد أنواع العذاب . . ولو اختار لها أقصى درجات الجحيم التى يرشح لها فى أنشودته الرابعة والثلاثين من يغدرون بمن أحسن إليهم ،لكان ذلك أرفق بهما وأكثر رحمة من قسوة العذاب البدنى .

فعذاب الأمل فى المستحيل والاقتراب منه حتى يبدو للإنسان أنه سوف يناله مع الحرمان الأبدى منه رغم ذلك أشد وأقسى !

ومن أقسى صور العذاب التى تخيلها عقل الإنسان ، ما جاء فى إحدى الأساطير الإغريقية القديمة عن الرجل الذى غضبت عليه الآلهة فحكمت عليه بأن يقف ليل نهار وسط بركة من المياه العذبة وهو فى أشد حالات العطش فإذا انحنى على الماء ليروى عطشه جف وابتلعته الأرض ولم يذق منه رشفة وإذا انتصب جسمه يائساً من الشرب ، تفجر الماء فغمر البركة من جديد وهكذا إلى الأبد . . بلا رى للعطش . . ولا يأس من الماء !

ومن أعجب صورها أيضا ما صوره أحد الأدباء عن السياسى الذى ظل يتطلع لرئاسة الوزارة ويبذل فى سبيل الوصول إليها كل غال ورخيص حتى وافته المنية قبل أن يحقق حلمه فيها ، وكان قد أوشك فعلا على التحقيق ، واجتمع حوله أبناؤه وأهله وهو فى النزع الأخير يبكون ويرددون له الدعوات ويسألونه أن ينطق بالشهادتين قبل أن يحم القضاء فيفتح شفتيه بصعوبة ويهم بالكلام ، فإذا به يتخيل أنه يلقى بيان وزارته الجديدة أمام البرلمان ويقول : وستعمل حكومتى على تنفيذ كذا وكذا من

برامج الإصلاح ! وتصعد روحه إلى السماء وهو معذب حتى اللحظة الأخيرة بالأمل الذى لم يبلغه . . والرغبة التى لم تمكنه الحياة من تحقيقها . . والقصة حقيقية وليست من صنع خيال الأديب .

وهذا هو عذاب الإنسان فى كل زمان ومكان فى كثير من الأحيان . . عذابه بالتطلع الأبدى إلى السعادة التى تلوح له قريبة فى الأفق فإذا ما أنهكه الجرى إليها ابتعدت وأوغلت فى البعد .

وعذابه بالتطلع إلى الثراء . . والصحة . . والمكانة الاجتماعية والرضا بحياته الذى لا يجىء ولا يمل الإنسان رغبته فيه ، فحتى فى أشد حالات المرض ، ورغم كل ما تؤكده التقارير الطبية الجامدة قد يظل الإنسان حتى اللحظة الأخيرة يراوده أمل عجيب فى أن يبرأ من مرضه بطريقة سحرية ويستعيد صحته وشبابه وسنوات عمره الضائعة فى المعاناة ويحلم بيوم أو بأيام يحقق لنفسه فيها كل ما أراده لها من سعادة وهناء !

كيف وقد فات الأوان . . والحواجز والسدود تزداد ارتفاعاً ؟ لا يعرف ومتى . . وأنغام الوداع الحزينة تتردد فى الأجواء ؟ لا يدرى . وبأى وسيلة والعين بصيرة . . واليد قصيرة والأحلام تبدو بعيدة غاية الابتعاد؟ لا يعلم !

لكن الحلم الغامض مازال يراوده . . وهو يتعذب به فى معظم الأحيان ويتعزى عنه فى أقل الأحيان . . والرياح لا تهدأ . . ولا تكف عن عبثها بالأمانى ولا عن تقريبنا منها ثم إبعادنا عنها وزئير العواصف يصك الأسماع . . فلا يصل صوتنا لمن نريد أن يصل إليه ولا يصل صوته إلينا . . ولا نبلغ الأمل . . ولا نيأس منه .

فيارب رحمتك بالإنسان . . وشكراً ، ،

كتب للمؤلف

العنوان	النوع	الطبعة	السنة
١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٦ (نفد)
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧ (نفد)
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٨ (نفد)
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٠ (نفد)
		الطبعة الثالثة	١٩٩٣
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٠
		الطبعة الثانية	١٩٩٣
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الثانية	١٩٩٣
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الثانية	١٩٩٣
٨ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الثالثة	١٩٩٤
٩ ـ إفتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
١٠ ـ إندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢

١١ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثانية	١٩٩٤
١٢ ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
١٣ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
١٤ ـ وقت للسعادة . .	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
ووقت للبكاء		الطبعة الثانية	١٩٩٤
١٥ ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثانية	١٩٩٤
١٦ ـ أماكن فى القلب	قصص إنسانية رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٤
١٧ ـ لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٨ ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٩ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
٢٠ ـ وحدى مع الآخرين	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثانية	١٩٩٩
٢١ ـ خاتم فى إصبع القلب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
		الطبعة الثانية	١٩٩٩
٢٢ ـ سائح فى دنيا الله . .	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٩٦
حول العالم فى ٣٠ عاماً			
٢٣ ـ أهلا . . مع السلامة	صور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٩

الفهرس

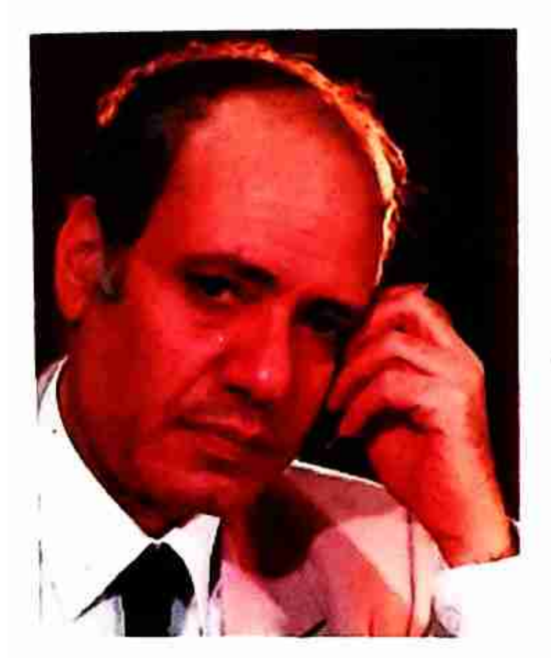
وحدى مع الآخرين

يتميز أسلوب الكاتب الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بالسهولة الممتنعة واليسر الجميل المتدفق بالمشاعر الإنسانية . . وهو أسلوب يخاطب القلب والعقل معًا . . ويسبر أعماق النفس البشرية ليستخلص منها الدوافع والأسباب الكامنة التى تؤدى إلى سعادة الإنسان أو شقائه .

وهذا الأسلوب المتميز بالعقل والعاطفة يعرفه كل قراء الأستاذ عبد الوهاب مطاوع الذين يستمتعون بكتبه ومقالاته الواسعة الانتشار على مستوى العالم العربى بأكمله . . كما يستمتع مستمعو الإذاعة ومشاهدو التليفزيون بأحاديثه السمحة الطلية التى تدور فى معظمها حول حلول مشاكل وهموم البشر .

وفى هذا الكتاب يعرض لنا الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بأسلوبه الأخاذ تحفة أدبية وفلسفية ونفسية مكونة من خمسة وعشرين موضوعاً من الموضوعات الإنسانية . . هى فى حقيقة الأمر سياحة عقلية عاطفية فى أعماق النفوس البشرية فى كل زمان وكل مكان .

« الناشر »



- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب « بريد الجمعة » الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام .
- صدر له ٤٠ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .
- له ثلاث مجموعات قصصية هى : «أماكن فى القلب» و«لا تنسنى»، و«الحب فوق البلاط» .

